برتولد شبولر

# العالم الإسلامي في العصر المغولي

نقله إلى العربية
الأستاذ خالد أسعد عيسى



راجعه وقدّم له
الدكتور
سهيل زكار

نشر وتوزيع
دار حسان
للطباعة والنشر

برتولد شبولر

# العالم الإسلامي في العصر المغولي

نقله إلى العربية
الأستاذ خالد أسعد عيسى

راجعه وقدّم له
الدكتور
سهيل زكار



# العالم الإسلامي

# في العصر المغولي

الطبعة الأولى
١٩٨٢ م - ١٤٠٢ هـ


دار حسان للطباعة والنشر
دمشق ـ ص.ب ٣٢١٨



# تقديم

بعدما نجحت أعمال الفتوحات العربية الكبرى ، تبدلت صورة العالم القديم بشكل جذري ، فلأول مرة في التاريخ صارت الأراضي الواقعة في شرقي الفرات وغربيه تدار من قبل سلطة واحدة ، لها صفات عقائدية وحضارية جديدة ومجددة ، وحين قامت الخلافة الأموية ، وشرعت في إكمال حركة الفتوحات في كل من آسية وأفريقية ثم في أوربة ، نقلت إلى البلدان المفتوحة المؤثرات العربية الاسلامية ، لكن تبعاً لمعطيات ومواريث تجربة الوضع الحضاري لبلاد الشام المتفاعلة مع وادي النيل .

ويلاحظ الباحث في تاريخ العرب والاسلام أنه جرت منذ ما بعد القادسية عمليات تعاون في الشرق بين بعض القوى المحلية والمسلمين ، إنما بشكل محدود ، لكن ظل العرب على العموم يعيشون خارج المدن المفتوحة على شكل حاميات عسكرية ، دونما تماس اجتماعي مع الشعب أو أية محاولات للاندماج ، على أن هذه الصورة بدأت تتغير مع انتهاء العصر الأموي السفياني ومجيء المروانيين للحكم ، فبعدما خلصت الأمور لعبد الملك ابن مروان صُنعت انجازات باهرة ، فقد رسمت الدولة الأموية سياسة لتعريب الأمم الجديدة ، وهكذا جاءت قرارات التعريب الشاملة للادارة والنقود والاقتصاد ، ونسمع تبعاً لهذا أخبار أولى عمليات الاندماج السكاني ، خاصة في خراسان ، ولقد سارت عمليات الاندماج بنجاح كبير في بلدان مصر

وشمالي أفريقية ، وساعد على هذا ويسره أن ماضي هـذه البلدان مرتبط بشـكل عميق ومباشر بأسلاف عرب بلاد الشام من : هكسوس وكنعانيين وآراميين وسواهم .

أما في خراسان ، فقد اختلفت القضية ، وهنا لا بد من وقفة لتبيان معنى حدود خراسان سياسياً وجغرافياً : خراسان هي أرض الشرق « أول حدودها مما يلي العراق .... وآخـر حدودها مما يلي الهند » وينقـل ياقوت عن البلاذري أن خراسان تقسم إلى أربعة أقسام : الهضبة الايرانية ، الأراضي الشرقية حتى مرو ، أراضي ما وراء مرو حتى نهر جيحون ، أراضي ما وراء نهر جيحون حتى حدود الصين . ولقد اعتبر الفردوسي في الشاهنامة نهـر جيحون حداً تقليدياً يفصل بين الشعوب التورانية والايرانية ، ويوحي هذا بأن خراسان حتى النهر كانت ايرانية سياسياً وعرقياً وحضارياً .

لم يكن هذا الحال أبداً عندما قام الاسلام ، فالامبراطورية الساسانية حكمت ما يقارب الربعين الأولين من الأقسام الأربعة ، ففي الربع الثالث فيما دون النهر كان هناك عدد من الدويلات التركية ، وظلت أراضي هذا الربع « خراسانية » أي تركية ايرانية شرقيـة ، يقول الجاحظ : « إن الخراساني والتركي أخوان ، وإن الحيز واحد ، وإن حكم ذلك الشرق ، والقضية على ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غـير متفاوت ، وإن الأعراق في الأصل إن لم تكن راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لم تكن متساوية فإنها متناسبة ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعض الوجوه ...... وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي والزنجي والحبشي ، فضلاً عما هو أبعد جوهراً ، وأشد خلافاً ، بل كالاختلاف ما بين المكي والمدني ، والبدوي والحضري والسهلي والجبلي ، وكالاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي .... » .

لقـد تغيرت أحوال خراسان بعد الفتح العربي لأراضي الامبراطورية الساسانية حيث قضى العرب على الدويلات التركية في خراسان ما دون النهر ، ثم تابعوا حركة الفتوحات فيما وراء النهر فحققوا الاندماج ، وأقاموا ظاهرة جديدة اسمهـا خراسان ، وتطور هـذا الحال مع الأيـام اجتماعياً وسياساً وعقائدياً إلى حد رأينا فيه الجاحظ يتحدث فيه عن شعب جديد اسمه الشعب الخراساني جاء نتيجة للتمازج التركي الايراني .

كانت الامبراطورية الساسانية دولة مترامية الأطراف ، غير متماسكة سياسياً ، ولا شعبياً ، لهـا ديانة رسمية واحدة هي الزرادشتيه لكن فيهـا العديد من النحل والعقائد والمواريث ، كانت دولة اقطاعية طبقيـة ، عصب الحياة فيها جماعة عرفت باسم الدهاقين « جمع دهقان » بأيديهم رست الادارة الزراعية وحتى التجارية وبالتالي التأثير « بالرعـايا » من جميـع الوجوه ، وحين زالت الامبراطورية الساسانية تعاون العرب مع الدهاقين وأوكلوا إليهم أمور الادارة ، وكان هؤلاء أول من دخل في الاسلام لتسهيل مصالحهم مع الحكم الجديد .

وحين أسقط العرب الامبراطورية الساسانية توقفت أعمال النزاع بين الفرس والدويلات التركية لما دون النهر ، خاصة امارات الهياطلة ، وقـام فراغ سياسي حاول الهياطلة وسواهم من الترك « مثل الصغد » شغله .

لقد كانت بلاد ما وراء النهر مناطق شاسعة ، العمران فيها قليل والسيطرة عليها كانت لشعوب السهوب البدوية التي كانت شعوباً [تركو-مغولية]الترك أقرب إلى جيحون والمغول من ورائهم أقرب إلى الصين ، ويبدو أن سقوط الامبراطورية الساسانية وحدوث الفراغ السياسي أدى إلى تدفق كميات من الترك من مناطق ما وراء النهر على ما دونه وعلى خراسان الساسانية ، ولكن قيام الفتح العربي رد الموجة ، وأبعد آثارها .

وهنا ندرك أن اسقاط الامبراطورية الساسانية جرّ منافع كبيرة جداً

على الفرس ، فبصرف النظر عن الجانب العقائدي ، وهو أساسي ، توحدت الأراضي الساسانية واندمجت في ظل ادارة واحدة ، وأخذت الفوارق من : سياسية وطبقية اجتماعية ولغوية حضارية ودينيـة وعرقية كلها بالزوال ، وأتيحت السبل لإقامة أمة جديدة ، وهنا بدأ السباق •

لقد أرادها العرب أمة اسلامية مستعربة ، لكن الدهاقين وإن تظاهر قسم كبير منهم بالاسلام أرادوها أعجمية وحتى لا إسلامية •

فحين أقبلت جموع من « جماهير العامة » في خراسان على الدخول في الاسلام والاستعراب خشي هـذا عظيم الخشية « الدهاقين وورثة الاقطاع والكهنوت الساساني » وقاوموه مقاومة فعالة ، عن طريق احداث تنظيمات تهدف إلى الاطاحة بالخلافة الأموية •

وحين جاء عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز قطعت عمليات التعريب في خراسان مع الاندماج السكاني مراحل هامة وكبيرة ، فغالبية الناس أخذوا ينادون بقيام الأمة الواحدة الجديدة ،وقد بعث هذا الهلع في قلوب أعداء الاسلام والعروبة ، فنشطوا في تنظيماتهم الهادفة إلى اسقاط الحكم الأموي ، وطرد العرب من خراسان ، وكان على رأس هذه التنظيمات ما عرف فيما بعد باسم « الدعوة العباسية » • حيث أنه من المرجح قيام جماعات من دهاقين ايران وخراسان الساسانية بصنع تنظيم محـكم استهدف اسقاط الحكم الأموي تحت زعامة أسرة قرشية ذات مطامح سياسية ضئيلة ، تقبل بالتعاون على أساس أن تملك دون أن تحكم ، فقد أراد حـزب الدهاقين أن يتولى السلطة الفعلية بوساطة رئيسه الذي أطلق عليه ، بعد تفجر الثورة العباسية ، لقب « وزير آل محمد » ، فالوزير هو حامل وزر المسؤولية عن آل محمد ، وهو حين يقوم بمسؤوليات السلطة يمارس وظيفة الخليفة في ظل إمام مكانته دينية فقط •

لقد رأى الدهاقين اخفاق جميع محاولات التصدي المكشوف للعروبة

والاسلام ، فاستهدفوا ركوب التيار وتوجيهه حسب أهوائهم ،فقد استعاروا من فكر الشيعة المعارض فكرة الخلافة والامامة ، وأرادوا استغلالها ، فقد قال الشيعة بأن علياً ورث النبي صلى الله عليه وسلم كلياً ، ورث فيه النبوة فكان اماماً ، وورث فيه الحكم والادارة فكان يستحق أن يكون خليفة ، لكنه حين أبعد عن السلطة أبعد عن الخلافة ، وظل محتفظاً بالامامة ، لأن الامام هو قائد الأمة ، والأمة في القرآن واللغة هم « أصحاب الدين » « وكنتم خير أمة أخرجت للناس » كنتم خير أصحاب دين أخرج للناس .

وقبل العباسيون التعاون مع حزب الدهاقين ، ومن هنا نفهم كيف شجعت « الدعوة العباسية » بشكل مباشر حيناً وغير مباشر حيناً آخر ، جميع العقائد التي كانت موجودة قبل الفتح الاسلامي ، على التحرك ضد الحكم الأموي ، وفقط عندما كانت بعض هذه الحركات تشتط إلى درجة محرجة فتعلن العداء الصريح للاسلام ، كان بيت الامامة يعلن براءته من ذلك ، أو يقال بأنه أعلن براءته .

على هذا الأساس يمكن أن نفهم ما تذكره مصادرنا بأن الدعوة العباسية نشطت أيام عمر بن عبد العزيز ، فالمصادر العربية جميعاً تربط بين عصر عمر بن عبد العزيز ونشاط دعاة الدعوة العباسية ، هذه الدعوة التي استقطبت جميع القوى في خراسان على اختلاف مشاربها للاطاحة ببني أمية ، ومن هنا نفهم أيضاً قيام مثل الداعي « خداش » وعلاقته بالبيت العباسي ، ونفهم أكثر محتوى رسالة ابراهيم الامام لأبي مسلم الخراساني بأن لا يبقي على عربي في خراسان حتى وإن كان رضيعاً .

ونجحت الدعوة العباسية ، وتمت الاطاحة بالنظام الأموي ، وتسلط الأعاجم على الحكم الجديد ، فقد قامت مؤسسة الوزارة ، التي عهد إليها بالحكم فعلياً ، والباحث في تاريخ الوزارة والوزراء العباسيين الأوائل يرى أنهم انحدروا جميعاً من أسر أرستقراطية ايرانية ساسانية « دهاقين » زعيم كل منها ، أو رجل منها عمل داعياً بالدعوة العباسية .

فبرمك ـ مثلاً ـ جد الأسرةالبرمكية الواسعة الشهرة كان سادن معبد زرادشتي أو بوذي ، التحق هو أو ابنه بحزب الدهاقين ، ثم جاء العراق مع جيش الثورة والتحق برئاسة إدارة الدولة الجديدة منذ لحظة قيامها ، وظلت أسرته تقوم بدورها الكبير حتى أوقع بها الرشيد، ولنتذكر هنا أن قيام الحكم العباسي ترافق مع أو تلاه مباشرة قيام حركات الزندقة والشعوبية ، مع توقيف أعمال التعريب والاندماج في خراسان، وبدلاً من هذا شهدت خراسان ما يمكن وصفه بانبعاث قومي فارسي ، وزالت من الوجود الخطط التي جاء بها الاسلام لإقامة أمة عقائدية واحدة ، وأخفقت جهود التعريب على الصعيد الشعبي وانشطر العالم الاسلامي إلى شطرين : عربي وأعجمي ، وضم الجزء العربي ما يعرف اليوم باسم الوطن العربي مع الأندلس .

وتنبه عددكبير من العلماء الأوائل إلى كل هذا، وبينوه وحاولوا التصدي له علمياً ومن أفضل ما رأيت حوله ما كتبه أبو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم : « إلى أن أنشأ الله بني برمك : يحيى بن خالد ، ومحمد بن خالد ، فملّك الوالي أمر الدين إياهما ، وجعل الخلافة بأيديهما ، فكان محمد ابن خالد حاجبها ، ثم كان وزيرها ، وصاحب أمرها كله يحيى بن خالد ، ثم ابنه جعفر بن يحيى ، وكانوا باطنية يعتقدون آراء الفلاسفة ، فكادوا للدين ، وأحيوا المجوسية، واتخذوا البخور في المساجد ، وإنما كانت تطيب بالخَلوق، فزادوا التجمير ليعمروها بالنار منقولة ، حتى يجعلوها عند الأنس ببخورها ثابتة ، وتمكن العجم من افساد دولة العرب والملحدة من الملة ، والعبيد من الأحرار ، وقد كانوا يضمرون لها حقداً ، وينتظرون لفسادها وقتاً ، فانتقوا كل ضيق العطن مخلوع الرسن ، وأظهروا الآراء الفلسفية بعد خفائها ، وجلبوا الناس إلى أنفسهم بعظيم الوطاء ، وسعة الافضال ، والتمكن من الملك ، والادناء من مقار العز ، فنفقت بعد كسادها ، وعادت بعد نفادها ، ولحظوا إلى الخلق بعين التنفير ليأخذوا من يوافقهم على هذا النكير » .

ولئن أخفقت حركات الاندماج والتعريب في خراسان ، وتوقفت على الصعيد الشعبي فإنها استمرت على الصعيد الرسمي ، وما لف لفه ، ومعروف أن الدولة العباسية قد قطفت ثمار أعمال التحضير الثقافي للعصر الأموي ، وهكذا ، ورغم كل شيء ، ظلت العربية لغة الادارة ، والعلم والعلماء في كل رقاع الدولة ، إنما بشكل رسمي فقط في خراسان ، وعلى الصعيد الديني إلى بعض الحدود ، ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن العباسيين بعدما تسلموا السلطة اعتمدوا سياسة دينية اسلامية خاصة ، ودخلوا في صراعات مع حزب الدعوة العباسية بحيث أنزلوا به عدة ضربات قاسية .

ولنعـد إلى الذاكرة ما سلف ذكـره من أن الفتح العربي الاسلامي لخراسان قدم خدمات جليلة لايران والحضارة والثقافة الايرانية، حيث لم يكتف بتوحيد أراضي الامبراطورية الساسانية ، بل زادها اتساعاً بخراسان ما دون النهر ثم خراسان ما وراءه ، وتولد عندها نواة أمة ايرانية مندمجة ونواة لغة ايرانية جديدة متأثرة بالعربية ومتبنية للحرف العربي .

ومع الأيام ازداد التأثير الجديد على مناطق ما وراء النهر ، وبدأت أجزاء كبيرة من هذه المناطق تفقـد طابعها التركي المسيطر لتتحول إلـى اسلامية ايرانية ، ومن المدهش حقاً أنه عندما ضعف الحكم العباسي في المركز ، وبدأت الدول المستقلة بالظهور كانت أول الدول الفارسية ظهوراً في الاسلام وهي الدولة السامانية ، قد اتخذت مقراً لها في منطقة ما وراء النهر ، ففي بلاط هذه الدولة عاشت العربية إلى جنب فارسية جديدة نشطة مثلها عـدد من الأدباء والكتاب يتقدمهم الفردوسي صاحب « الشاهنامه ـ ملحمـة فارس التاريخية » وحين تركز نشاط هذه الدولة الفارسية على مناطق ما وراء النهر ، أثّر بشكل فعال على شعوب سهوب أواسط آسية من الترك .

وعلاقة الاسلام بالترك مبكرة كانت عدائية على جبهتين رئيسيتين : جبهة الخزر وجبهة ما وراء النهر ، ومنذ فترات مبكرة اهتم العـرب باستخدام

العناصر التركية على شكل مرتزقة ، وفي العصر العباسي ازداد الاعتماد على العناصر التركية ، ووصل الذروة منذ أيام المعتصم حين جعل صلب جيشه تركياً .

وفي العصر الساماني ازداد تدفق الأتراك على ديار الخلافة العباسية ، ثم تحكم الأتراك ببغداد ، وهنا بدأ عصر السيطرة التركية على مناطق الشرق الأدنى سياسياً حيث استمر لقرون طويلة جداً ، وعندما سقطت الدولة السامانية ورثها أسرتان تركيتان: واحدة فيما وراء النهر هي الدولة القراخانية ، وأخرى فيما دون النهر ، في غزنة ، وهي دولة محمود بن سبكتكين « الغزنوية » .

وعاصر ذلك كله استيلاء الديلم على بغداد ، وفي ظل إدارة آل بويه والتسلط الديلمي التركي على بغداد ، وفي حواضر الامبراطورية الغزنوية ربحت الايرانية الجولة على العربية ، وبات من المتيسر الحديث عن نظام ايراني إداري جديد ، وتقاليد سياسية ايرانية ورسوم ملكية جديدة مع فلسفة للحكم قائمة بذاتها ، وظهر إلى الوجود عدد من المؤلفات في السياسة كتبت كلها بالفارسية نذكر منها : جهار مقالة للنظامي العروضي ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك للامام الغزالي ، وسياسة نامة المنسوب لنظام الملك الحسن بن علي الطوسي .

وحدثت تطورات خطيرة في مناطق ما وراء النهر ، فامبراطورية الخزر اليهودية ضعف نفوذها على قبائل السهوب ، وكانت هناك تحركات كبيرة وصراعات شديدة بين هذه القبائل ، وظهر إلى الوجود تحالفات جديدة ، أهمها حلف « تركمان » بين جماعات الغز ، وأقبلت قبائل برمتها بالرحيل من داخل السهوب إلى أطراف الممالك الاسلامية ( الدولة السامانية ) ودخلت على شكل جماعات في الاسلام ، وتورط زعماء هذه القبائل في صراعات الدول الاسلامية خاصة صراعات القراخانية ، وعملوا كمرتزقة ، وقامت

صلات بين هذه القبائل والدولة الغزنوية ، وقامت حشود قبلية عظيمة بعبور نهر جيحون إلى خراسان الغزنوية ، وشهد على هذا الأساس القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد بداية تدفق عظيم للقبائل المهاجرة ، واستمر هذا التدفق تركياً حيناً ومغولياً حيناً آخراً ومزيجاً حيناً ثالثاً لمدة فاقت السبعة قرون .

وغمر مد المهاجرين سياسياً وبشرياً مناطق شاسعة جداً شملت خراسان ، والعراق والشام وآسية الصغرى ، وأفغانستان « والهند وأطراف الصين » وأوربة الشرقية ، وأقام المهاجرون عدة امبراطوريات ثم دولاً كثيرة ، فأول دفعة من المهاجرين أقامت الامبراطورية السلجوقية ، وهذه الامبراطورية كانت ايرانية حضارة وثقافة وادارة وأنظمة ، وإن كانت عناصرها الحربية وسلاطينها تركمان ، ذلك أن حكامها الفعليين كانوا من الوزراء الايرانيين يتقدمهم الوزير الكُنْدري ، وزير طغرلبك أول سلاطين السلاجقة ،ثم نظام الملك الحسن بن علي الطوسي وزير كل من ألب أرسلان ثم ابنه ملكشاه ومؤسس نظام مدارس النظامية ، وواضع أسس الاقطاع العسكري بشكل راسخ .
في ظل الامبراطورية السلجوقية استمر الصراع الخفي بين العربية والفارسية ، وباتت العربية مقتصرة على العلوم الدينية وتفرعاتها ، وصار غالبية العلماء يكتبون بالعربية والفارسية ، كما هو حال الغزالي مثلاً .

والجدير بالملاحظة في العهد السلجوقي ، وهو ما يجب تقدير أهميته العظيمة : ليس التقدم الكبير للتقاليد الفارسية الجديدة والأدب الفارسي ، وإنما دخول هذه التقاليد إلى الجزيرة والشام وآسية الصغرى البيزنطية ، وهكذا تمكنت التقاليد الايرانية من اجتياز الفرات نحو الغرب ، وهو أمر لطالما أخفقت في تحقيقه في الماضي ، صحيح أن هذه التقاليد لاقت الاخفاق في الشام والجزيرة ولذلك قصة منفردة ، إلا أنها نجحت في آسية الصغرى وأخذت هذه البلاد تتغير كلياً وتتحول من الاغريقية البيزنطية إلى الايرانية التركية الاسلامية .

وفي أواخر القرن الحادي عشر للميلاد تفتت أواصر الامبراطورية السلجوقية ، وشغلت بلاد الشام بالغزو الصليبي القادم من أوربة ، ونلاحظ أنه أثناء هذا الغزو ،ورغم وطأة الاحتلال ، ومن بين المعارك الحربية والصراعات ، بعثت شخصية الشام الفعالة الدور والمؤثرة بالأحداث بشكل حضاري عربي متميز ، متفاعل مع وادي النيل ، هذه الذات بدأت تنجح في مطلع القرن السادس للهجرة في استعادة تكوين ذاتها مجدداً ، وكانت هذه الذات ـ كما سلف بي القول ـ قد أصيبت بضربة مميتة حين سقطت دولة بني أمية ، حيث بطل دورها التشريعي ـ اندراس مدرسة الأوزاعي ـ وألغي دورها السياسي والحضاري العام .

وتجلت أعمال اعادة التكوين حين تمكن نور الدين من توحيد شمال الشام مع جنوبه ثم في مدّ رقعة الوحدة إلى مصر وشبه جزيرة العرب وليبيا ، ووضحت الشخصية الشامية المستقلة بقيام الدولة الأيوبية ، وبان هذا الوضوح لا في المؤثرات الحضارية على الصليبيين التي نقلت إلى أوربة ، ولا في الانجازات العسكرية الباهرة خاصة معركة حطين فحسب ، وإنما في تجدد الصراع مع الأراضي الشرقية، ونخص بالذكر الصراع بين الناصر صلاح الدين الأيوبي والناصر لدين الله العباسي ، وإقدام الناصر على تبني عقيدة الفتوة ، ثم فيما عزي إليه من مراسلة جنكيز خان .

وقبل التعرض لقضية المراسلات هذه ، وقيام جنكيز خان ، ينبغي أن نذكر للانصاف العلمي أن بعث شخصية الشام بدأ قبل الحروب الصليبية ، إنما بشكل منقوص ، ونرى ملامحه في قيام الدولة الحمدانية ، ثم في ظهور المؤسسات الثقافية في شمالي الشام خاصة في المعرة وحلب ، لكن شخصية سيف الدولة، ولونها العقائدي، وكون جنوب الشام كان خاضعاً للمصريين كل هذا عرقل هذا الانبعاث وأخره .

وفي عودة نحو الناصر وجنكيز خان نرى بعض المؤرخين قد أفاد بأن

الناصر العباسي سمع بظهور قوة بشرية سياسية جديدة في الشرق ، هي قوة المغول ، فراسل زعيمها جنكيز خان وعرض عليه التحالف ، وقد أدى هذا فيما أداه — برأي البعض — إلى توسيع معلومات جنكيز خان عن العالم الاسلامي ، واجترائه على الشروع في غزو بلدان هذا العالم .

إن موضوع قيام جنكيز خان وتأسيسه لامبراطوريته المترامية الأطراف من أخطر الموضوعات التاريخية وأهمها ، ومما هو مؤسف أن المكتبة العربية المعاصرة تكاد تكون خالية من الدراسات وحتى من المصادر ذات القيمة حوله ، فهذا الموضوع الخطير ، ليس أدنى مكانة من موضوع الحروب الصليبية ، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاحتلال المغولي لبلاد الاسلام ، واسقاط الخلافة العباسية ، واحتلال بغداد ، ثم بمحاولة احتلال الشام ومصر ، وهزيمة المغول في عين جالوت ، وقيام دولة الايلكخانات في ايران والعراق ، وتصدي النظام المملوكي السوري المصري لها ، كما هو مرتبط بشكل فعال بتاريخ أوربة دينياً وحضارياً واقتصادياً واجتماعياً وعرقياً .

فكتاب العرب قد فجعهم طويلاً قضية سقوط بغداد ، واتلاف المغول لمعاهد الثقافة فيها ولما لا يحصى من المخطوطات والكتب ذات القيمة العالية ، ومع عدم التقليل من أثر هذه الفاجعة ، أرى أن التأثير ليس هنا ، فمعظم الكتب التي حوتها خزائن بغداد كان منها نسخ في مكتبات المدن والأقاليم الاسلامية في الشرق والغرب .

الطامة الكبرى للاجتياح المغولي هي أن الحرب الخفية التي كانت ما تزال مستعرة في خراسان بين العربية والايرانية ، انتهت بفعل هذا الاجتياح لغير صالح العربية ، فقد طمس المغول جميع مراكز الاشعاع العربية في خراسان ، وثبتوا مع الأيام الطابع الايراني في خراسان وآسية الصغرى ، ونقلوه إلى الصين والهند وشرقي أوربة ، فالمغول شعب بلا خلفية ثقافية أو حضارية متميزة ، حاول جنكيز خان صنع لغة له وقانون ، فحقق نجاحات

مؤقتة ومحدودة ، وعليها أقام المغول بوساطة الفتح العسكري امبراطورية واسعة ، لم يعرف التاريخ ما يماثلها سياسياً فقط ، واستعارت حضارتها من التجربة الايرانية الاسلامية •

لقد نجحت العمليات هذه في جميع المناطق التي احتلها المغول بنسب متفاوتة إلاّ في الشام ، وبذل المغول جهوداً مكثفة وطويلة لاحتلال بلاد الشام بشكل دائم ، فأخفقوا ، ولهذا ظلت شخصية الشام متميزة ، واستمر الصراع على الشام ، فالشام في تاريخ الانسانية كالمرآة تنعكس عليها جميع الأحداث بلا استثناء •

لقد تحول معظم المغول إلى الاسلام ، وصبغوا بالايرانية إلى أوسع الحدود ، واستمرت أمواج القبائل التركية والمغولية بالتدفق ، ومرة ثانية وصلت الذروة في أواخر القرن الرابع بظهور جنكيز خان جديد بصورة اسلامية تحت عنوان « تيمورلنك » وتتيجة لفتوحات تيمورلنك الواسعة ، نجد في القرن الخامس عشر رقعة العالم « الايراني الاسلامي » تغطي التركستان وخراسان والأناضول وأطراف الصين ، وشبه القارة الهندية وشرقي أوربة •

لقد كان هذا تحولاً يعد من أخطر ما مر بتاريخ الاسلام والعالم أجمع ، لكن لم يكتب لمسيرته الديمومة ، بل تصدع البنيان وانشطر بشكل خطير في مطلع القرن السادس عشر ، ففي سنة ١٥٠١ ، أعلن عباس الصفوي تبني ايران للمذهب الشيعي الامامي ، وبهذا العمل تميزت إيران الدولة ، وبدأت تعمل لأخذ شكل الأمة في الأراضي الايرانية التقليدية ـ الأراضي الساسانية ـ ، وبذلك تم التخلي عن مناطق ما وراء النهر وأفغانستان والهند وأوربة الشرقية ، وظهرت معالم هذا الانشطار بحدة عبر الفرات ، في آسية الصغرى حيث الامبراطورية العثمانية الفتية ، فقد دخل العثمانيون في صراع شرس مع الصفويين ، وقادهم هذا الصراع إلى احتلال العراق ، ثم احتل العثمانيون

الشام ومصر وقضوا على دولة المماليك ، ولكن ليس على المماليك في مصر ، وكانت الروابط قد بدأت تتمتن بين العثمانيين وبلدان شمال أفريقيـة ، واستورد العثمانيون الآن المؤثرات من العربية بدلاً من الايرانية ، ودخل العالم مرحلة جديدة هي مرحلة الاكتشافات البحرية والاستعمار الأوربي وبدأ دور أوربة في صنع تاريخ العالم وحضارته •

إن هذا كله لجدير بالدراسة والبحث ، ولهذا جمعت حوله كمية من المصادر العربية والفارسية والأرمنية والسريانية والأوربية القديمة والحديثة ، ورسمت لهذا العام خطة ترجمة بعض الدراسات الجيدة أولاها هذا الكتاب الذي أقدم له ، ثم كتاب آخر عن جنكيز خان ، ثم كتاب ثالث وثائقي فيـه تقارير السفراء الذين تمّ تبادلهم بين قره قورم عاصمة المغول وعواصم أوربة مع الفاتيكان، ثم ما كتبه الصينيون في القرن الثاني عشر عن حياة جنكيز خان تحت عنوان « الحياة السرية للمغول » مع وصف وثائقي لحالة خراسان وما وراء النهر أيام الفتح المغولي •

وسيتلو ذلك إن شاء الله في العام المقبل الشروع في تحقيق النص العربي لكتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين فضل الله ، وكتاب « عجائب المقدور في أخبار تيمور » لابن عرب شاه •

وادراكاً مني أن هذه البرامج الطموحة مع أعمالي الأخرى في مجالات التراث والتاريخ تحتاج إلـى جهود متعاونة ، فقد قدمت ما رأيتـه جديراً بالترجمة إلى بعض الاخوان ، يتقدمهم الاستاذ خالد عيسى ، فهو تولى ترجمة هذا الكتاب مع كتاب « جنكيز خان قاهر العالم » وقمت أنا بمراجعة الترجمة، وقد استغرق هذا العمل مني جهداً طويلاً ، وأثنـاء المراجعة ، أثبت عدداً كبيراً من الحواشي الضرورية ألحقت كل منها بحرفي ( س • ز ) لتمييزها عن حواشي الكتاب الأصلية •

ليس بودي الحديث عن محتويات هذا الكتاب ، فنظرة سريعة إلى فهارسه توضح ذلك على أنه من المفيد أن أشير إلى أنه أفضل الدراسات في بابه وأحدثها ، وأكثرها توازناً ، وثبت المصادر والمراجع الملحق به غني ومفيد جداً •

لقد كان بودي متابعة الحديث بشكل مفصل ومتكامل حول الموضوع الذي أثرته في أول هذه المقدمة ، وخاصة ما تم بعد الغزو المغولي على مراحله، لكنني آثرت ترك ذلك ، كيما أترك المجال للقارىء الكريم ليقوم بنفسه من خلال قراءة الكتاب بالتعرف وتكوين التصور التاريخي ، فأنا ـ كما أشرت في غير مقدمة هذا الكتاب ـ آخذ بطريقة سقراط الحكيم في العمل الثقافي ، أنير بدايات الطريق للقارىء ، وأترك له حرية السير بعقل وفهم إلى الغاية المنشودة ففي ذلك متعة وفائدة أكبر •

إن هذا اجتهاد مأجور في جميع الحالات ، والله الموفق والمعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين •

دمشق ١٩٨٢/٥/٢٩

سهيل زكار

# الإمبراطورية المغولية

هنالك في غربي الصين وشماليها تقع رقعة شاسعة من الأرض تنبع منها أنهار سيبيريا العظيمة ، وتؤلف السهوب جزءاً كبيراً منها ويتكون الباقي من صحاري ، والمناخ في هذه الاماكن البعيدة عن البحر هو مناخ قاري ، تتخلله تغيرات متطرفة في درجات الحرارة ، ويؤلف الشرخ الذي تقع فيه بحيرة بايكال الحدود الشمالية لهذه الرقعة ، أما في الغرب فهنالك عقدة جبال ألطاي العالية ، فبعد أن هدأت جلبة ذلك الطوفان العظيم المتجه شرقاً من من هجرات الشعوب الهندو ـ أوروبية أصبحت هذه الرقعة حوالي عام ٢٠٠ ق.م المكان الذي تجمّعت به قوى متنافرة قدّر لها أن تكون سبباً في تغيير الصورة البشرية لسكان أواسط آسيا وتحديد شخصيتها الأساسية حتى هذا اليوم ، فلقد كانت هذه المنطقة مقراً لسكن امتين مختلفتين تعيشان جنباً إلى جنب وتجمعهما خصائص مشتركة كثيرة ولكن تفرقهما اللغة ، وهاتان الأمتان هما الاتراك والمغول ، فمن بداية العصر المسيحي نجد المصادر الصينية تذكر باطراد جماعات تنتمي لكل من هاتين الأمتين تقوم بغارات متكررة بقصد السلب والنهب وهذا ما جذب انتباه الصينيين ، ولكن بناء السور الصيني العظيم أخيراً وضع حداً لتدميرهم وتخريبهم .

إن هجرة قبائل الهون إلى الغرب بدأت من هذه المنطقة ، بينما بدأت البنية السياسية للأتراك تتبلور في هذه المنطقة أيضاً ابتداءً من القرنين السادس والسابع الميلادي ، بعد أن تأثروا بكل من الثقافتين الايرانية والصينية ، وقد استطاع هؤلاء الأتراك ان يندفعوا باتجاه المناطق الجنوبية

الغربية إلى الأراضي التي سميت باسمهم وهي : تركستان ، وقد انشأ الأتراك كيانات سياسية مثل دولة كوك ترك وأوغور ولم تشغل هذه الكيانات دوراً فعالاً في شؤون آسية الوسطى فحسب بل وبسبب سياستهم الدينية ونشاطهم التجاري ، فقد قاموا بدور رائد في تاريخ البشرية بأجمعها ، فقد اجتاح الأتراك الأوائل مناطق نهر الفولجا حتى منطقة ما بين النهرين ، وأما المغول فقد بقوا في حالة هدوء وركود في وطنهم خلال تلك الفترة ، ولم يشغلوا أي دور على مسرح الأحداث العالمية ، وكان يشار إليهم غالباً باسم التتار وكان الاسم يطلق على احدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر التي عاشت في أقاصي الأصقاع الشرقية ، ولكن اسم التتار اكتسب في هذه الأيام معنى آخر ( كما سنبين فيما بعد ) .

انقسمت الأمة المغولية إلى عدة أقسام وعدة قبائل ، ففي أقاصي الغرب بين أعالي نهر ارتش ونهر أورخون شمال جبال ( ألطاي ) هنالك سكنت قبيلة نيمان وبسبب اقتراب هذه القبيلة من قبائل الأوغور التركية في الجنوب، لهذا فقد امتصت قبائل النيمان في مرحلة مبكرة عناصر متعددة من ثقافة آسية الوسطى كحروف الهجاء ( الأوغرية ) والديانة المسيحية حسب الطقوس النسطورية ، وبالنسبة للحضارة ، كان هؤلاء أكثر القبائل المغولية حضارةً ، وعلى مقربة منهم سكنت قبائل كرايت الذين انضموا إليهم في الشرق وعلى امتداد جنوب نهر أورخون ، وفي أواسط الألف الأول الميلادي كانت أكثرية قبائل كرايت قد اعتنقت الديانة المسيحية حسب المذهب النسطوري ، وفي شمال كرايت على حوض نهر سلنجا الأوسط والأدنى عاش المركيت ، وفي غربي المركيت وشمال النيمان عاشت قبيلة يورتاس المتخلفة جداً ، وقد صنف الصينيون التتار والقبائل المغولية طبقاً لدرجات حضارتهم إلى : ( التتار البيض ) وهم من المنطقة الجنوبية شمالي الحدود الصينية مباشرة ، ثم ( التتار السود ) بعيداً عنهم إلى الشمال ، وأخيراً ( التتار المتوحشون ) أو ساكنو الغابات الذين كانوا يعيشون على الصيد وقد اعتنقوا الديانة

الشامانية[1] وقد ظل الكهنة الشامانيون لعهد طويل يعتبرون الاشخاص الموثوقون المعتمد عليهم أكثر من غيرهم في تلك المنطقة .

وبنفس الوقت الذي اعتنق به هؤلاء المغول الديانة المسيحية ، بدأوا يتقدمون سياسياً واقتصادياً ، وفي السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادي أوقعوا بقبائل الكرغيز التركية وأجبروها على الجلاء من منغوليا إلى نهر ينسي وطردوا الخطا إلى الحدود الشمالية للصين .

وهناك أسس الخطا إمبراطورية ( لياو ) الهامة، وهكذا وكنتيجة لذلك ، فقد بدأت اتصالات المغول الوثيقة والمنتظمة بالحضارة الصينية وبنفس الوقت تحركت قبائل النيمان إلى الغرب ، وبدأت تعيث في حملات تخريبية متلاحقة في أواسط آسية ، وسقطت امبراطورية ( لياو ) حوالي عام ١١٢٥ وهرب فرع من فروع عائلة ( لياو ) غرباً من الصين إلى منطقة حوض نهر تريم وفرغانه ، وهناك أسسوا دولة جديدة هي دولة قره خطاي التي دامت حوالي مئة عام ، وبسقوط امبراطورية ( لياو ) عادت الحياة كما يبدو في بلاد المغول إلى سابق عهدها ، من الفوضى والصراعات ، وكانت السلطة تنتقل بين اتحادات تتألف من قبائل مختلفة تتنافر أحياناً وتتحد أحياناً أخرى ، وكانت القضايا المتنازع عليها عادةً هي السيطرة على القبائل والعشائر الصغرى ، وعلى تملك قطعان المواشي ، أو قل بصورة عامة السلب والنهب ، فلم يظهر أي نوع من مفاهيم أو حتى تصور مفاهيم حضارية عليا في تلك الحقبة .

---

(١) اصطلاح اطلق على مجموعة من الديانات البدائية ، التي استقطبت حول شخصية الكاهن ، الذي عرف في سيبريا باسم « شامان » ومن هذه العبارة اشتقت التسمية الحديثة ، والشامان تصير إليه وظيفته وراثة أو باختيار سماوي ، ويمر في عدة أطوار حتى يتمكن من ممارسة وظيفته التي تجعله بالنسبة لقومه رجل دين وسحر وطب وحتى سياسة وحرب وغير ذلك . ومن أفضل الدراسات عن هذه الديانة كتاب :

Shamanism , by Mircea Eliade, London 1964. ( س.ز )

وفي غمرة هذه الخصومات اللامتناهية ظهر شخص اسمه يسوغاي ، وكان سليل عائلة نبيلة قديمة من قبيلة ما نخول [ مغـول ] ولكن المصادر التاريخية، تختلف في تحديد أهميته وسلطته، فالكثيرون يصفونه بكونه كان قائد فئة من عشرة جنود ، بينما تصفه مصادر أخرى بأنه كان أميراً مستقلاً ، هذا ولا نجد في حياته عملاً بارزاً يميزها ، بل أنه قضاها في قتال مستمر دفاعاً عن أملاكه ، وعندما مات في عام ١١٦٥ ، ترك عدة أبناء كان أكبرهم تيموجين في العاشرة من العمر ، وطبقاً للعادات المغولية فإنه كان يسكن مع عائلة ختنه المستقبلية وقد اضطر هذا الصبي بسبب المصيبة التي نزلت به ، أن يظل دائم التنقـل منذ نعومة أظفـاره لتأمين حقوقه الوراثية ، وحتى يحقق ادعاءاته كان مجبراً على الالتجاء إلى أصدقاء أقوياء ذوي نفوذ .

واستطاع أن ينال الدعم والتأييد من قبل أمير كرايت طغريل ( توريل ) الذي ساعده في غزوته ضد قبيلة ميركت التي كانت قد أغارت على معسكره وخطفت زوجته ( بورتي ) وحققت له انتصاراته استعادته زوجته ( بورتي ) مع كثير من الهيبة والنفوذ ، حتى أنه استطاع حوالي عام ١١٩٦ ان ينتزع اعلان زعامته المتفوقة على قبيلة المانخول، وبنفس الوقت حصل على لقب جنكيز خان ( وهو اللقب الذي لا يزال معناه غير واضح لغوياً ) وأيـد أعيان وزعماء القبائل المغولية ، بما فيهم صديقه القوي النفوذ جاموخا ارتقاءه وحيازته لهذا اللقب .

وسارت أعمال جنكيز خان ومجهوداته حتى ذلك الحين ، في مسارها الطبيعي، واستطاع بفضل جهوده الخاصة أن يجمع حوله جمهرةً من المؤيدين المخلصين الذين كان يثق بهم ثقة عمياء ودونما تحفظ ، كما مكنته انتصاراته أن يوزع العطايا السخية ، والمناصب العالية على مؤيديه وأنصاره ، وجذب نحوه قسماً كبيراً من العناصر المتأرجحة التي لم ينعدم وجودها أبداً في تلك السهوب ، إنما لم تساهم هـذه التطورات في تجـاوز أو تخطي الترتيبات الداخلية والتقاليد القبلية الارستقراطية لهؤلاء البداة ، ولـم يكن لها أي تأثير في تاريخ العالم .

ولكن نشاط تيموجين وحيويته كانت تبتغي اهدافاً أبعد وأجدى، ولذلك فإن بعض أعمال اللصوصية وقطع الطرق ( التي هي قضية تافهة بحد ذاتها ) أجبرته على اتخاذ بعض الاجراءات ضد صديقه القديم جاموخا ، وسواءٌ دلت هذه النزاعات على نشوء حركتين : احداهما مؤسسة المجموعات العريضة التي تؤيد ( جاموخا ) والأخرى المؤسسة على الحركة الارستقراطية المؤيدة لجنكيز خان كما تدّعي التحريات الحديثة ، وبصورة خاصة التحريات التي تبناها الاتحاد السوفييتي أم لا ، فإن هذه القضية تظل مدعاة للشك على ضوء الوضع الراهن ، إذ لا مندوحة لنا عن القول : إن الجيشان الذي حدث في منغوليا ، والتأثيرات الثقافية الطاغية التـي نتجت عن الهجرات في القرون الماضيــة ، تسببت في نشوء توتر اجتماعي وجد له متنفساً في الخصومات والنزاعات بين مختلف ملوك وزعماء تلك السهوب ، وفي احـدى المعارك الفاصلة التي اشترك بها عدد لا يستهان بـه من الجند ، خُذِل تيموجين ، واضطر إلـى الانسحاب إلى منابع نهر أونون حيث مكث مدة ، فهو لـم يستطع أن يسترد هيبته ونفوذه إلاّ بعد القضاء على قبيلة التتار ، الأمر الذي سبب له الحظوة لدى أسرة كين التي كانت تحكم آنذاك في شـمال الصين ، وهنا نال حليفه طغريل ( توريل ) اللقب الصيني وانج خان ، وبدا الآن جلياً لزعماء القبائل المغولية الأخرى أن تيموجين كان يطمح للوصول إلى مركز أعلى بكثير مما كان عليه قبلا ، ورأوا أن الطريقة الوحيدة لمجابهته وكبح جماحه هي تكوين تحالف ضده جعلوا ( جاموخا ) رئيساً له ، وفي مواجهة هذا الوضع الخطير أظهر جنكيز خان جرأة وجسارة ودهاءً لا يتسم بها إلاّ القائد البدوي الصلب ، وقد وضع جنكيز خـان خططه على أساس أن يقهر كل قبيلة من أعدائه على حدة ، وخصوصاً قبيلتي مركيت ونيمان وبذلك يصبح ، بقوة السلاح ، صاحب المقام الأول في منغوليا ، ومع ذلك فقد حاول خصومه محاولة أخرى يائسة للقضاء عليه ، وذلك بحبك مؤامرة اشترك بها ( وانج خان ) نفسه ، ولكن ( تيموجين ) علم بالمؤامرة في الوقت المناسب ،

وهاجم ( وانج خان ) وقضى عليه وعلى قبيلة كرايت ، ولم يمض وقت طويل حتى سحق قبيلة نيمان وجاموخا ومركيت في معارك طاحنة عام ١٢٠٤ م ، وقام بعد هذا بافناء جزء من رجال القبائل المقهورة الذين بقيوا أحياء ، وألحق قسماً منهم في وحدات جيشه ، ويظهر ان ( جاموخا ) قد أسر بعد ذلك بقليل وأعدم ، وأما كوشلوغ قائد قبيلة نيمان الذي إما أنه كان ، أو أصبح مسيحياً نسطورياً ، فقد هرب باتجاه الغرب إلى قرا ـ خطاي حيث استلم السلطة هناك .

ان سلسلة الانتصارات هذه التي بالكاد عرفت التوقف ، انتهت بالقضاء التام على جميع القبائل المعادية ، ورفعت مقام جنكيز خان في مدة عقد من الزمان إلى مركز الحاكم المطلق بدون منازع لمنغوليا ، ومنحته سلطة فوق شعبه لم ينلها أي حاكم قبلي في حياته منذ أجيال ، وعمد الآن إلى توحيد جميع القبائل المنغولية تحت سلطانه وهكذا أصبح يرى نفسه أساساً لأمته ومعبراً عن إرادة الشعب المغولي ، وكانت أولى رغباته أن يمنح حق الشرعية للسلطة التي جسّدها نجاحه في شخصه ، وفي سنة ١٢٠٦ م استعمل نفوذه لعقد اجتماع وطني عظيم ( أو قوريلطاي ) عيّنه به المجتمعون سيداً للمغول دون منازع ، وثبتوا لقبه جنكيز خان ، وكرس هذا العمل رغبة جميع المغول ـ التسمية التي دعت القبائل بها أنفسها من الآن فصاعداً ، مشتقة ذلك من عبارة ما نخول ـ بأن يتصرفوا بأمورهم السياسية كوحدة مستقلة ، كما أنه خلع على الحاكم الجديد سمة من سمات الأمور الخارقة للطبيعة ، أصبحت بها أوامره لا تتسم بالسلطة الدنيوية المطلقة فحسب ، بل تتخذ طابعاً إلهياً أيضاً ، فقد اعتمدت التطورات المقبلة اعتماداً كلياً على ارادة جنكيز خان ونشاطه ونجاحاته العسكرية ، وصار هو وحده القادر على أن يعطي البرهان الكامل على سمو مقامه وجلالة اعتباره اللذان يحققان طموحات الشعب المغولي بأجمعه .

لا شك أنه كان للشعب المغولي طموحاته ، حتى وإن لم يملك جميع

أفراد المجتمع المغولي نفس درجة الحماس لتنفيذ تلك الطموحات ، وعلى كل حال كانت الجماعات القيادية تعرف بالضبط ماذا تريد ، وكما هو الحال في المجتمعات الاقطاعية نصف البدوية ، لم يكن يهمهم إلاّ أنفسهم ، وبالحب الغريزي لتملك الأرض الذي يمتاز به سكان السهوب ، بدأ هؤلاء يتوقون لإخضاع المناطق المجاورة ذات الطابع الحضاري المتفوق ، ولم يكن هدفهم الاقتباس أو تعلم أي شيء من الحضارات الموجودة ، بل دفعهم حبهم للغنائم التي لا تعد ولا تحصى ، وأملهم بالحصول على الرفاهية المنشودة في طرق الحياة ، لذلك لم يعودوا يهتمون بالقيام بحملات للسلب كما كان يفعل آباؤهم واجدادهم منذ القديم ، بل أصبح هدفهم انشاء دولة مترامية الأطراف ، وامبراطورية عالمية تشمل جميع انحاء العالم المعروف حينذاك ، وإن مثل هذه الأفكار مع أنها غريبة ، إلاّ أنها لم تكن بالجديدة، فالصين كانت تعتبر منذ زمن طويل انها مركز العالم ، مع أن الصين لم تحاول أن تحكم العالم ، وإن مركز الامبراطورية الصينية المتوسط ربما أسهم في الايحاء بفكرة الامبراطورية المغولية البدائية ، وقد اسهمت النظريات المسيحية بايجاد الكنيسة العالمية الموحدة التي تحكمها قيادة مركزية موحدة بهذه الفكرة أيضاً[1] ، وذلك أن بعض القبائل المغولية كانت قد اعتنقت الديانة المسيحية النسطورية منذ حوالي قرنين من الزمان ، وهكذا فقد تسربت إليهم الافكار المسيحية ، وبما انه ليس لدينا سوى الاستنتاجات المنطقية حيث ليس هنالك أي دلائل حسية مباشرة عن الأفكار السياسية المعاصرة ، لذلك يبدو أنه قد حدث تحول غريب في النظريات العقائدية المسيحية التي انقلبت إلى أفكار سياسية ، كان لها أهميتها في تطور مفهوم الامبراطورية العالمية لدى المغول .

إن الأمم المتشبعة بالأفكار الدينية التبشيرية سواء أكانت تلك الأفكار روحانية صرفة أو ذات صفةٍ دنيوية ، هذه الأمم تكتسب قوة هائلة ، ورغبة

---

(١) إن العلاقات بين المغول والمسيحية موضوع خطير،سنتناوله في دراسة وثائقية، تتركز بشكل أساسي على العلاقات مع الكاثوليكية ( س.ز ) .

بالتوسع كما يظهر مثلاً عند ارتفاع شأن الإسلام[1] ، وما أن رسخت هذه الفكرة في أذهان الطبقات الحاكمة في الأمة المغولية حتى كان هنالك ضغط شديد لتنفيذها ، وإن ارتقاء جنكيز خان كان يعني أن هنالك قائداً قد تم اختياره وانيط به تنفيذ إرادة الشعب ، وليس هنالك من شك أن الخان العظيم الجديد كان يعتقد جازماً أنه يحمل تفويضاً إلهياً[2] ، وكان موقفه بالنسبة للدول المجاورة ، كما تشهد بذلك كثير من المصادر المختلفة ، هو برهان ساطع على هذا القول ، كما كان يقول في كلماته الشهيرة التي رددها المغول في كل مكان « هنالك شمس واحدة في السماء وسيد واحد على الأرض » ، وعندما بدأ جنكيز خان باعادة تنظيم القوى الوطنية للمغول أخضعهم لنظام قاس لم يكن معروفاً من قبل ، ورأى في نفسه أداة ربانية ، وكان الرأي العام المغولي يميل للسير معه قُدماً في هذا المضمار ، إذ ليس هنالك أي تفسير آخر للحقيقة التي ظهرت ، وهي عدم وجود أي معارضة تستحق الذكر لسياسته بين أفراد شعبه ، وهكذا فقد اكتسبت الأمة المغولية القوة اللازمة لتأسيس امبراطورية ليس لها مثيل في اتساعها ، ولم يشهد العالم خلال عصور التاريخ لها شبيهاً .

إن الاحساس بالتفويض الالهي ، لم يكن بالطبع كافياً لترجمة إرادة السماء إلى حقيقة واقعة ، وللوصول إلى هذه الغاية كان من الضروري بناء قوة مادية متفوقة على قوى الدول المجاورة ، أو بكلمة أخرى تنظيم جيش هجومي ضارب ، ولقد ثبتت شجاعة الجندي المغولي في القرون الماضية ، وما أن حان الوقت لتكامل هذا الجيش بشكل قوة وطنية

---

(1) هذه مغالطة ومقارنة في غير مكانها ، فالاسلام منذ بدايته له الصفة العالمية ، فالنبي محمد ﷺ بعثه الله لهداية البشر أجمعين ، وحين خرج المسلمون من شبه الجزيرة خرجوا لتحرير بني البشر وليس لبناء امبراطورية.(س.ز) .

(2) توحي المصادر الصينية المعاصرة لجنكيز خان ، وخاصة كتاب ( التاريخ السري للمغول ) ، أنه ـ أي جنكيز خان ـ مارس دور الشامان بين قومه . (س.ز)

هائلة حتى بدأ جنكيز خان بتنفيذ هذا الواجب دون إبطاء أو تلكؤ ، وقد قسّم الجيش المغولي بكامله إلى وحدات علـى أساس النظام العشري ، فأصبح كل عشرة يؤلفون فئة يقودهم قائدهم وألفت كـل عشر فئات من هذا النوع جماعة أو « قرن » ، وكل عشرة من هؤلاء صاروا يؤلفون كتيبة أو « شاياد » وقاد الجماعة المؤلفة من عشرة آلاف رجـل « جنرال » وكونت تشكيلاً تكتيكياً مستقلاً ، وألحق كل جندي بقطعة معينة بشكل دائم ، ورتبت هذه الوحدات الأخيرة على شكل جماعات عالية التنظيم وزعت إلى : ميمنة ، وميسرة ، وقلب ، وكان هذا كما هو معلوم مظهر من المظاهر الدائمة للجيش ، ولم يبدع ابداعاً خاصاً أو نشأ عرضياً أثناء المعركة ، فقد تشربت روح الجيش الجديد بالنظام الصارم ، وكان أي خرق للنظام ، أو تهاون في تنفيذ الواجب، أو أي عمل جبان يعاقب دونما شفقة أو رحمة ، بعقوبة الموت ، وثقة جنكيز خان التي وضعها برفاق شبابه الذين اصبحوا الآن يتقلدون أرفع مناصب الجيش ، وضعت تحت تصرفه عدداً من الرجال المساعدين المدربين المتازين ، الذين يستطيع أن يثق بهـم ويعهد اليهم بتنفيذ جميـع خططه وأوامره ، وبينما كانت العادة اتباع النماذج الصينية التي ربما أثرت على نظام تشكيلات الجيش ، إلاّ أن عبقرية جنكيز خان الفريدة أضافت وأثرت على هذا النظام والتشكيلات بشكل واضح .

إن صفات جنكيز خان الفائقة وشخصيته الفذّة لا تظهر في انتصاراته العسكرية فحسب ، بل في ميادين أخرى ليست أقل أهمية إذ لا يسعنا إلاّ ان ننظر بإكبار واعجاب إلى منجزاته كمشرّع قانوني ومنظم للأمة المغولية ، فقد جمع ورتّب ووسّع الفقرات القانونية التي كانت سـائدة بين مواطنيه واتنج « الياسا » ، أو القانون الأساسي للدولة ، ونظم هذا القانون الحياة العامة المغولية لمدة طويلة بعد موته[1] .

---

(١) معلوماتنا عن نصوص الياسا قليلة ، وأوسع الفقرات التي وصلتنا من هذا القانون حفظها لنا مؤرخ مصر الاسلامية ـ المقريزي ـ انظر كتاب :
Fundamental Principles of Mongol Law, by Valentin. A. Riasanovsky, Indiana University, 1965 . (س.ز)

وبالاضافة إلى التنظيمات العسكرية ، فقد احتوى الياسا على مواد تنظيم الحياة المدنية ، وشدد هذا التشريع على مبدأ الملكية الشخصية ، وهكذا عاقب السرقة ، وقطع الطرق بصرامة وشدة متناهية ، بحيث أصبحت عقوبة الموت توضع على الذنوب الصغيرة جداً ، كما نظمت الحياة العائلية أيضاً ، فأصبحت المرأة تتمتع باستقلال واسع واحترام عظيم ، ويظهر هذا لنا التباين الشاسع بين مركز المرأة هنا ، ومركزها عند الشعوب الأخرى ، وقد تميزت المرأة أيضاً بانخراطها كرديف للجيوش أثناء الحملات العسكرية ، فلم تكن المرأة تهتم بإدارة شؤون المنزل وتربية الأطفال فحسب ، بل كانت ترافق الجيش في حملاته ، وتهتم بشؤون الرجال المحاربين وحاجاتهم ، وفي أثناء المعارك كانت النساء تحفظ في عربات خاصة في المعسكرات ، ولكن في حالة الطوارىء ، ووقت الخطر الشديد كنّ يشتركن بالقتال ، وإن هذا الوضع المتقدم الراقي للمرأة يفسر لنا سبب ظهور صور المرأة في الفن الشرقي للمرة الأولى في الفترة المغولية[1] ، ولتأمين نفقات الدولة والادارة نُصّ على إقامة نظام ضرائب مزدوج مع ضريبة العرصات والأراضي التي تتدرج طبقاً لقيمة التربة والمحاصيل ، وضريبة على رأسمال التجار ، كما أنشأ جنكيز خان خدمات بريدية رسمية تولت نقل معلومات المخابرات مع الأوامر والتعليمات من أدنى الدولة إلى أقصاها بسرعة مدهشة ، وهذه أيضاً ربما استعيرت من اساليب كانت متبعة لدى حضارات أقدم .

وانتشرت سمعة جنكيز خان وسادت أنظمته وتعاليمه في طول البلاد وعرضها ، خلال جميع اصقاع منغوليا ، وشعر أفراد الشعب المغولي بأنهم أصبحوا أصحاب رسالة عالية ، وأنهم جبلوا في طاقة عظمى ، فأصبحوا جسماً واحداً طاغياً ، سرعان ما برهن بأنه قوة متفوقة على جميع الامبراطوريات

---

(١) في هذه المقولة شيء كبير من المغالاة ، تنفيها الدراسات الحديثة لحضارة وفنون الشرق ، وخاصة الاسلامي منه ، فجدران قصر الحير حوت عدة صور نسائية ، وكثير غير جدران الحير من الاماكن حوى نفس الشيء . ( س.ز ) .

المجاورة، ولم يحتج تيموجين أكثر من بضعة سنوات لإتمام التنظيمات الداخلية لدولته ، وللحصول على الاسلحة والتجهيزات عن طريق فتح علاقات تجارية جديدة ، ثم بدأ بتسيير الحملات الحربية التي أثمرت في ارساء دعائم الامبراطورية المغولية العالمية ، وتوجه شرقاً في أول الأمر ضد الصين ، تلك البلاد التي كانت دائماً تدغدغ آمال المغول، بسبب العلاقات الثقافية والتجارية منذ القدم ، وتوغلت قواته فيها ، حتى أصبحت أمام عاصمة أسرة كين بعد حملتين متواليتين عام ١٢١٥ م واستسلمت له تلك العاصمة أخيراً ، ثم انهارت الامبراطورية الصينية الشمالية ، وبدأ المغول يوطدون سلطتهم في النصف الشمالي للمتلكات الصينية الهائلة ، أما الامبراطورية الجنوبية فقد بقيت دون أن تمس ، إنما مؤقتاً فقط .

ان سرعة الانتصارات في الشرق قد عنت الكثير بالنسبة للمغول ، فقد زادت مواردهم وملكوا الفرصة وتشجعوا بمغامرات جديدة ، وفوق كل شيء بثت روح الثقة بالنفس بهم وبقوتهم ، فامبراطورية الصين الشمالية مهما كانت ضعيفة ،بدت قوية وعظيمة في أعين ساكني السهوب ، وإذا كانوا قد نجحوا في كسر هذه الامبراطورية بسرعة فائقة ، فلم يكن ذلك إلاّ اشارة إلهية بأن السماء قامت بإسناد حكم العالم للمغول .

وكان موقف الصينيين بالنسبة للغزو المغولي على العموم هو نفس الموقف الذي وقفه الصينيون دائماً خلال تاريخ بلادهم الطويل ، فقد خضعوا لسلطة الحكم الاجنبي ، ولكنهم اغرقوا هذا الحكم بقوة حضارتهم الهائلة، التي سرعان ما استسلم لها ذلك الحكم استسلاماً تاماً ، ولكن الصينيون لم ينسوا أبداً ان هؤلاء الغزاة كانوا أجانب ، وأن حكمهم لا يتفق مع مبدأ السيادة الصينية في المملكة المتوسطة ، إنما مع ذلك فقد التحق الصينيون بخدمة المغول ، وبصورة خاصة في العاصمة قراقورم التي ظهرت خلال تلك الفترة على الأرخون الأعلى ، وأصبح أحد أبناء أسرة الخطا المهزومة وهو ( يي ــ لو ــ تشو ــ تساي ) وزيراً للخانات ، وأنجز أعمالاً هامة في بناء

الامبراطورية المغولية ، ومن المؤكد أنه لم يكن وحيداً في عمله ، بل كان معه عدداً كبيراً من الصينيين الذين كانوا يساعدونه كزملاء أو مرؤوسين في الادارة ، أو عاملين كحملة لرسالة الحضارة الصينية والتجارة ، وكان لتسرب الثقافة الصينية أثره المثمر على المغول ، فقد وجدت الأفكار الصينية طريقها ، إلى الياسا أي إلى لب الحياة المغولية ، وأصبح المغول يستعملون المفاهيم الصينية في فنون الحرب ، كما أنهم استعملوا الأسلحة الصينية ـ بما في ذلك البارود ـ في حملاتهم الحربية التالية .

ان النجاح في الصين كان مؤشراً ونقطة انطلاق لانتصارات تالية مستمرة للمغول ، فبعد سنتين فقط من انتهاء الحملة الصينية وجه جنكيز خان إهتمامه إلى الغرب حيث كان في تلك المنطقة دولة خوارزم شاه ، وكان يحكمها محمد الثاني الذي وصل آنذاك إلى قمة مجده[1] ، لكن ما أن خضع الغوريون طواعية لحكم جنكيز خان سنة ١٢٠٧ ، حتى ظهرت دولة خوارزم شاه بمظهر الخصم المرعب للمغول كما كانت صورة الصين الشمالية ، وكانت العلاقات المغولية الخوارزمشاهية غير واضحة المعالم ،وقد ذكرت المصادر الشرقية المتأخرة أن خليفة بغداد النشيط الناصر لدين الله ( ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م ) اتصل عندما تأزمت الأمور بينه وبين محمد الثاني ، بالحاكم المغولي ، وحرضه على الهجوم على خوارزم شاه من المؤخرة ، وتدل هذه الرواية على أن الخليفة نفسه الذي كان لا يزال ـ إسمياً على الأقل ـ هو الرئيس الأعلى للمسلمين ، هو الذي جلب عليهم أعظم كارثة حلت بهم في التاريخ[2] .

(١) أفضل مصادر تاريخ دولة خوارزم شاه هو كتاب « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » تأليف محمد بن أحمد النسوي . ط . القاهرة ١٩٥٣ . ( س.ز ) .

(٢) تذهب بعض الآراء الى أن جنكيز خان وقومه كانوا لا يعرفون بوجود عراق ولا خلافة عباسية ولا بلدان للعالم الاسلامي في الشام وسواه ، وأن رسالة الناصر إلى جنكيز خان هي التي حملت إليه هذه المعلومات لاول مرة ، وجعلته يخطط لفتوحات أوسع؛ قد يكون هذا صحيحاً ، وقد يكون أصح منه أن رغبة المغول في فتح أراضي خوارزم شاه أسبق من رسالة الناصر المزعومة ، وأن فتح أراضي خوارزم شاه وسع رقعة دولة المغول وجعلها تجاور أراضي اسلامية جديدة ، لذلك قامت الرغبة مجدداً على فتحها وهكذا ... ( س.ز ) .

وهنالك رواية معاكسة تقول أن محمد الثاني كان يبدي قلقاً بالغاً حول جيرانه في الشمال الشرقي وكان دائم الاهتمام للحصول على المعلومات حول قوتهم العسكرية وأحوالهم الداخلية بواسطة الجواسيس ، وفي المقابل كان التجار الذين أرسلهم جنكيز خان ليسوا مجرد تجار بل كانوا جواسيس أيضاً ، وعلى كل حال فقد كان محمد الثاني ينظر إليهم بهذا المنظار ، وكان يعدمهم بالجملة ما عدا القليل منهم .

وبسبب سوء المعاملة التي لقيها ممثلو الحاكم المغولي ، لجأ رد الفعل المغولي إلى أسلوب وطريق لا مناص عنه، وهو الاعلان السريع للحرب ، ولربما كان محمد الثاني غير عالم بذلك ، لأن ذلك الاسلوب لم يكن معروفاً في غربي آسية حتى ذلك العهد ، ولكن اتضح في عدة مناسبات تالية ، للعالم الاسلامي ، أن ذلك كان نتيجة الغدر بسفراء ومبعوثي المغول .

فبعد أن رد جنكيز خان هجوماً قام به شاه خوارزم على نهر جيحون ، اندفعت جحافله إلى الأمام باتجـاه خراسان ، وساقت جيش محمد أمامها بشكل مذهل ، ترك انطباعاً شديداً على المنطقة بأجمعها ، فحتى ذلك الوقت كان حكام خوارزم في ايران يعتبرون بأنهم لا يُغلبون ولا يُقهرون ، ولكن الآية انعكست الآن ، وأصبحت قدرتهم وجبروتهم تتراجع وتنهار باستمرار أمام فيالق جنكيز خان ، والحقيقة أن أساليب الهجوم المفاجئة التي اتبعتها خيّالة المغول لم تكن السبب الرئيسي في هذا الانهيار للاعداء ، لأن جيش محمد كان يحتوي على أعداد كبيرة من الاتراك الذين اعتادوا على مثل هذه الاساليب ، ولكن من المحتمل ان الجيش الخوارزمي قد دخل الرعب في قلوب جنده من جراء آلات الحصار الجديدة التي استعملها المغول وهـي ذات أصل صيني ، كما أنه ليس من الخطأ أن نعزو انكسار محمد الثاني إلى عدم فعالية جيشه المتعدد الجنسيات ، ثم إنه كان كلما توغل الجيش المغولي غرباً ، كلما زاد عدد الاتراك الذين انضموا إليه طوعاً أو كرهاً ، ففي أيام الزحف على خراسان كان جيش جنكيز خان يتألف من الاتراك بصورة رئيسية شبه

عامة ، وكان جنكيز خان يعمد دائماً إلى إغراء الأتراك الذين كانوا يخدمون في جيوش الأعداء بأن يهجروا تلك الجيوش وينضموا إلى جيشه مذكراً إياهم بالحماقة التي يرتكبونها اذا استمروا بممارسة النزاع الأخوي ، ولقد عانى محمد الثاني مشاكل من هذا النوع مع رجاله في ابتداء تلك الحملة مباشرة ، بينما أثرت بعض الانتفاضات التي حدثت في مؤخرة جيشه على موقفه وسببت خسرانه لرباطة الجأش اللازمة لكسب أي معركة .

وجعل التراجع والهرب المستمر لمحمد الثاني ، من المستحيل على مراكز المدن العظيمة في خراسان [ وما وراء النهر ] مثل : مرو وبخارى وسمرقند ، أن تبقى في وضع يمكنها من المقاومة الايجابية مدة طويلة ، فلم يعد لدى هذه المدن أي أمل بالمساعدة والغوث، ما دام الجيش الخوارزمي يتراجع ويتراجع، فبعد أن رفضوا النداءات الأولية للاستسلام ( وهذه كانت العادة المتبعة لدى المغول في حروبهم ) شدد الحصار ، وبمساعدة الأساليب الحديثة ـــ من أسلحة الاقتحام مثل الكبش والمجانيق والنيران الحارقة ، والتدخين ـــ هزمت هذه المدن وأخذت عنوة ، وكان مصيرها رهيباً ، فقد ذبح قسم عظيم من السكان دونما شفقة أو رحمة[1] ، وأدت هذه الكارثة إلى تحطيم الازدهار الاقتصادي والثقافي في آسية الوسطى ، فلم تستطع تلك المدن ، منذ تلك الكارثة ان تستعيد مكانتها السابقة كمراكز حيوية في صرح الحضارة الاسلامية ، وكان من سياسة المغول أن لا يعتدوا على العلماء والفنانين والحرفيين الذين يمكن ان يستفيدوا منهم ومن خدماتهم ، وكذلك النساء والأطفال كيما يستخدمونهم عبيداً ، ولقد تركوا بعض الرجال في سن الجندية

---

(١) أتت المصادر العربية والاسلامية على وصف ما قامت به جيوش المغول ، مثل : سيرة جلال الدين منكبرتي ، والكامل بالتاريخ ، وجامع التواريخ ، وتاريخ الجويني ، كما أن يوميات الراهب التاوستي شانق شن الذي استقدمه جنكيز خان ليعلم قومه أبجدية ، قدمت وصفاً وثائقياً لحالات الدمار في خراسان وما وراء النهر ، ونقوم الآن بتعريب هذه اليوميات لنشرها . ( س.ز ) .

أحياء أيضاً لكي يستخدموهم كبش فداء في حصار تال ، أو أي هجوم ، حيث كان يقذف بهم أمام الجنود المغول ، ويجبرون على صدام بني جلدتهم ، ولم يكن هنالك أي مهرب أو منجى لهم من تلك الورطة فإما أن يهاجموا أسوار بلدانهم أو يحصدوا حصداً دونما شفقة أو رحمة .

إن هذه الأساليب المخيفة وانسحابات محمد الثاني المستمرة فتحت الطريق خلال بلاد العجم الشمالية أمام قائدي جنكيز خان : وهما سوبوتاي ، وجبه ( أو شبه ) وفي مدى عامين اندفعا حتى وصلا إلى هضبة أذربيجان حيث لم يصادفا أي مقاومة تذكر ، إلاّ في تلك الهضبة ، ومع أن هذه المقاومة لم تكن منظمة ، إلاّ أنها استمرت لعدة سنوات بقيادة جلال الدين منكبرتي[1] وهو أحد أبناء محمد الثاني ( الذي كان قد توفي في أثناء تلك الحروب ) وكان جلال الدين هذا مغامراً شجاعاً ،وقد تنقل في ايران من القوقاز إلى نهر السند ثم رجع إلى شمال الهند ، قبل أن يباغته المغول بالالتفاف عليه ، ثم ظهر في العراق ثانية ، وبعدها في جورجيا ، وكان يشتبك دوماً مع سرايا المغول ، ولكنه قتل أخيراً في عام ١٢٣١ م على يد أحد رجال العصابات الاكراد .

وفي هذه الأثناء كان المغول قد اندفعوا عام ١٢٢٣ حول الطرف الشرقي للقوقاز ودخلوا روسيا الجنوبية ، وفي معركة نهر كلكا ، قضوا قضاءً مبرماً على جيش بقيادة بعض الأمراء الروس ، الذين استعدوا بسرعة للقاء المغول ، وبعد هذا عمد المغول إلى نهب بعض المدن في ( القرم ) ، ولكن بناءً على أوامر من جنكيز خان عادوا إلى الإتجاه شرقاً ، وهكذا كانت المناطق التي هاجمها المغول من آسية الغربية وأوروبا الشرقية هي مناطق محدودة ، ولم تضم هذه المناطق إلى الامبراطورية المغولية ، أما بلاد العجم الشمالية ،

---

(١) هو ابن خوارزم شاه وخليفته دوّن أخباره بشكل مفصل ، معاصره محمد بن أحمد النسوي بالعربية بكتاب اسمه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٥٣ .

وخصوصاً بلاد خراسان فقد مكثت تحت حكم المغول ،في حين بقيت حملة عام ١٢٢٣ على القوقاز وروسيا مجرد قصة استطرادية ، تقف على قدم المساواة مع الغارات التي كان يقوم بها الاتراك الرحّل ، والتي كان الأمراء الروس قد عانوا منها في تلك الأيام ، ولكن دون أن يكون لها أي انعكاس على البنية السياسية في شرقي أوروبة •

وكان جنكيز خان يخطط للقيام بهجوم جديد على الأقاليم الشرقية، لكن في حوالي ١٨ آب عام ١٢٢٧ وافاه الأجل المحتوم، فتعطلت خططه مؤقتاً ، ولكن الامبراطورية التي اسسها بقيت ، ففي الأزمة التي تبعت موته لم يتجرأ أي عدو من أعدائه على رفع النير المغولي ، والتخلص من تحكمه ، ولكن وحدة الامبراطورية لم يحتفظ بها تماماً ،فقد كان قرار جنكيز خان ووصيته أن تقسم الامبراطورية بين أبناء زوجته الرئيسية الأربعة ، الذين كانوا قد اشتركوا اشتراكاً فعلياً في الحكم أثناء حياته ، وطبقاً للتقاليد المغولية القديمة كان الابن الأصغر هو الوارث الرئيسي والوصي على أملاك والده ، وأخذا بهذا المبدأ فقد أصبحت الأراضي المغولية الأساسية من نصيب الابن الأصغر . الذي كان يدعى تولوي ، وأما الأبناء الثلاثة الباقون فقد كان توزيع المملكة بينهم كما يلي : أخذ جغتاي الأراضي الواقعة شمال وشمال شرق نهر جيحون والتي يدعوها السكان في الغرب منطقة ما وراء النهر ، وأخذ أوكتاي الأراضي الواقعة في أقصى الشرق ، وأما الأكبر جوجي فقد نال الأراضي الواقعة في الغرب ، أي روسيا ولم يكن هذا التقسيم دقيقاً تماماً لأن الامبراطورية لم تكن قد وصلت إلى الاتساع الذي كان يتصوره جنكيز خان ، فقد كان يطمح بالتقدم نحو البحر الغربي مع أن معلوماته عن جغرافية الغرب ، كان يشوبها الغموض ، وفوق ذلك فقد توفي الابن الأكبر جوجي قبل موت والده بستة أشهر ، وهكذا أصبح أبناؤه الورثة المباشرون لجدهم •

لم يترك جنكيز خان قبل وفاته أية تعليمات بالنسبة لوحدة الامبراطورية، فهو لم يكن يقصد أن تتمزق الامبراطورية بعد وفاته ، بل كان

يرغب أن يمارس أحد أبنائه السيادة على أخوته كحاكم أعظم أو « خـان أعظم »، وكان من الواجب أن يملأ هذا المركز طبقاً لرغبة الامبراطور المتوفى، ولكن بما أن المؤسس الخالد الذكر لم يخصص أحداً باسمه ، اتفق على أن يجري الاختيار عن طريق الانتخاب ، وهكذا فبعدما تم عقد الجمعية الوطنية العامة « القوريلتاي » عـام ١٢٢٩ اتفق الأخوة دونما أية صعوبات علـى تنصيب أوكتاي ، ولكن هذا لم يرث أياً من مواهب والـده الحربية ، وفي الروايات التاريخية التي وصلتنا يوصف بأنه كان هادئاً ، ولا يميل لاستعمال القوة وكان ذا ضمير حي ، وداهية ثاقب النظر ، وسع عاصمة ملكه قره قورم وزينها بالمباني والصروح الفخمة ، وعمل على استحداث زراعة الخضروات والفواكه في ضواحيها ، ونظم استيراد المؤن من الصين إلى منغوليا ، وأقام علاقات تجارية بين بلاده وبلاد الهنـد وغربي آسية ، وكـان مهتماً بتوسيع أراضي امبراطوريته طبقاً لتخطيط والده ، ولهذا فقد سمح لأخوته بامتلاك حصصهم من الأملاك المقطعة لهم ، كما تابع تدريبات جيوشه بصورة عملية ، وذلك باخضاع الأجزاء الصينية الشمالية الباقية ، وكذلك بالمطاردات التي كانت مستمرة ومنظمة ، حتى أصبحت جزء من التدريبات العسكرية اللازمة للجيش .

وفي حوالي عـام ١٢٣٦ بدأت جيوش كبيرة ، جديدة تتحرك نحـو الغرب ، وكان هدفها الرئيسي الآن اخضاع أراضي أوروبة الشرقية علمـاً بأن التقدم إلى المناطق الغربية البعيدة كان مشمولاً بالخطة العامة ، وهكذا فكان على أبناء جوجي ـ ونخص منهم بالذكـر باتو الابن الثـاني ـ أن يستولوا بحد السيف على مناطق الإرث التي حددها لهم جنكيز خـان ، وهكذا انقضّت الجيوش المغولية ـ التركية على الأراضي الواقعة في شمال جبال أورال وبحر الخزر ، وبدأت بالاستيلاء على مملكة بلغار الفولجا حول مدينة بلغار ( في اللغة الروسية بلغاري ) الواقعة في وسط حوض الفولجا إلى الجنوب قليلا من مدينة قازان الحالية ، وكانت هذه الدولة تشغل دوراً

تجارياً وسياسياً هاماً ، كسوق للبضائع المحمولة من : أواسط آسية ومن أوروبة الشرقية والشمالية ومع هذا سقطت عند أول ضربة .

وهكذا فتحت الطريق إلى روسيا . ففي السنة التالية اجتاحت الجيوش المغولية « دول المدينة » في موسكو وموروم وياروسلاف وغيرها من الامارات الصغيرة في أعالي منطقة الفولجا ، وقد سقطت بعض هذه المدن بعد دفاع مستميت ، ولم يبد بعضها الآخر أية مقاومة للفاتحين الذين تجلت قوة فرسانهم في هذا المضمار ، وقد كان تفوق المغول العسكري الساحق سبباً في إصابة الروس بالذهول وعدم القدرة على الاحتفاظ بمراكزهم ، ومن ثم الخضوع ، ولم تصمد إلا قوى الطبيعية فهي وحدها قد برهنت على قدرتها على ايقاف تقدم المغول ، فبينما كانوا يتقدمون ضد مدينة نوفجورود على بحيرة إلمين ، التي كانت مفتاح أبواب منطقة البلطيق ، حدث ذوبان مبكر للثلوج خصوصاً وأن الغزاة قد تأخروا قليلاً ، بسبب مقاومة مدينة طورزوق الصغيرة ، وهكذا لم يعودوا يستطيعون عبور مستنقعات ( نوفجورد ) بسبب الوحول والطين الذي أعاق تقدم الخيالة ، ولهذا قرروا تحويل الهجوم جنوباً ، فبعد أن اخترقوا أراضي روسيا غربي موسكو وصلوا إلى مدينة كوزلسك وهي مدينة محصنة احتاجت وقتاً واستعداداً لاجتياحها أكثر من المتوقع ، ولكن بعد سقوطها حاصر المغول مدينة كييف ، وهي مركز الأمير الأعظم ورئيس ( مطران ) أساقفة روسيا القديمة ، وقلب دولة ( روس ) القديمة ، وكان أمد الحصار قصيراً ، ففي ٦ كانون الأول عام ١٢٤٠ سقطت المدينة بعد أن هرب منها الأمير الأعظم ميخائيل شرنقوف ، وفي أثناء السلب والنهب اللذان تليا فتح المدينة ، تحطم الكثير من الآثار الفنية والنصب التذكارية الثمينة، وهكذا انتهت الفترة الروسية الأولى في التاريخ ( أو الفترة الاوكرانية حسب وجهة النظر الاوكرانية ) وانتقل مركز الثقل في شرقي أوروبة من هناك إلى إقليم بعيد شمالاً .

أما بالنسبة للمغول فلم تكن هذه الفتوحات إلاّ مقدمة لطموحاتهم العسكرية، التي لم تكن مقصورة على روسيا فقط ، وهكذا تابعوا زحفهم خلال بودوليا وفولهينيا في اقليم غاليشيا ، وفي منتصف الشتاء أخمدوا مقاومة دولة هالزك ، وهنالك انقسم الجيش المغولي إلى عدة مجموعات كان هدفها مهاجمة الدول التي كانت على حدود أواسط أوروبا ، كل على حدة ، وبنفس الوقت من اتجاهات وقد استنتج من سير هذه الحملات ـ مع ترك بعض الفسحة لعدم وضوح المعلومات الجغرافية لدى الغزاة ـ أن المغول كانوا يمتلكون خططاً حربية رفيعة المستوى للاحاطة بأعدائهم وسحقهم في أماكن يستدرجونهم إليها ، ولكن البحث المستفيض مع عدم وجود سجلات يعتمد عليها أثبت أن هذه الفكرة هي محض تخمين ، مع أن الدقة في التحركات على مقياس واسع ، وهي السمة التي امتازت بها تلك الجيوش الآسيوية الجرارة توحي بوجود تخطيط عام متقن •

اندفع جزء من الجيش المغولي خلال غاليشيا ، وهزم البولنديين في تشملنك واستولى على كراكوف وساروا بمحاذاة نهر الأدور إلى المستوطنة التي أسسها الألمان آنذاك وسموها براسلاف ، فدمرها ، ومن الممكن القول ـ مع أنه ليس هنالك دليل مادي على صحة ما نقول ـ أن وحدات مغولية تحركت بنفس الوقت خلال أواسط بولندة ومورافيا حتى وصلت إلى الموقع الذي حدثت به المعركة الفاصلة في سهل فالستات قرب ليكنتز في ٩ نيسان عام ١٢٤١ ومهما يكن الحال هزم في هذه المعركة الفاصلة الدوق هنري الثاني حاكم سليسيا مع فرقه الألمانية البولندية هزيمة نكراء ، وقتل نفسه ، والحقيقة أنه بعد هذه المعركة لم يستمر تقدم المغول إلى الغرب ، بل بدأوا بالانسحاب في إتجاه جنوبي غربي خلال تلال سيليسيا وممرات مورافيا حيث حاصروا مدينة أولموتز ولا يمكننا تفسير سبب هذا التوقف والانسحاب إلاّ بكون المغول أصبحوا يهدفون إلى جمع شمل المناطق التي

احتلوها ، وذلك على ضوء سلوكهم في أماكن أخرى ، ولهذا فلا نستطيع أن نؤيد النظرية التي تقول أنه بسبب مقاومة الدوق هنري الضارية في ليكنتز توقف تقدم المغول وأعيق غزو ألمانيا الوسطى ، ومن المحتمل أن يكون المغول قد عمدوا في هذا الوقت لاستخدام المعلومات الجغرافية التي كان يزودهم بها أسرى الحرب ، وذلك طبقاً لسياستهم العامة القائمة على إغراء العلماء والفنانين بالتعاون معهم وخدمتهم .

وفي أثناء ذلك كانت بعض مجموعات من الجيش المغولي تتقدم وتجتاح من طريقين خلال جبال الكاربات الجنوبية والوسطى ـ عبر ترانسلفانيا إلى هنغاريا ، وهنا باغتوا الملك بيلا الرابع وأخذوه على حين غرّة ، وفي ١١ نيسان عام ١٢٤١ هزموه هزيمة منكرة في سهل موهي ، أما الجيش الشمالي فاستمر بالتقدم من خلال مورافيا واتصل بالمجموعة التي كانت في هنغاريا الآن ، وهكذا فقد شهدت الأراضي الأمامية لتخوم ألمانيا الغزاة المظفرين وهم يمرون أمامهم ، وقد كان سلوك المغول في هذه الغزوات غير ثابت المعالم ، ففي سيليسيا ومورافيا فيما عدا إبادتهم للقوى المحلية المعادية في معركة ليكنتز والاستيلاء على مدينة أولموتز كانوا ينهبون ويسلبون ثم يغادرون المنطقة إلى غيرها ، ولكن من جهة أخرى نجد أنهم بدأوا يستقرون في هنغاريا ، وقد ضربوا في تلك البلاد العملة الوحيدة التي وجدت في تلك الفترة من الزمن ، ويظهر من سلوكهم هذا انهم قد اختاروا السهل الواقع بين الدانوب وتسزا مع سهوب نهر الفولجا العليا والوسطى لتكون مقراً لسكناهم في المستقبل ، وأرضاً يرعون بها ماشيتهم .

وفي يوم ١١ كانون الأول عام ١٢٤١ توفي الخان الأعظم في قرهقورم وبفضل نظام البريد العالي الفعالية والتنظيم ، انتشر الخبر بسرعة ، وهذا هو السبب الذي جعل باتو وقواده يتقهقرون شرقاً مع جملة جنودهم ، وزحف أحد الفيالق على محاذاة نهر الدانوب ، وانقض فيلق آخر خلال كرواتيا

وسلوفانيا ، ثم شقوا طريقهم خلال أجزاء بلغاريا التي تقع حول نهر الدانوب ، ورجعوا إلى المنطقة المفتوحة شمالي البحر الأسود على طول نهر الفولجا حيث توقف ( باتو ) انتظاراً لما سوف تتمخض عنه الأحداث حول خلافة الخان العظيم المتوفى وهكذا أفلتت من قبضته جميع الفتوحات التي أحرزها في هنغاريا ، على أنه نتيجة لمرور المغول خلال بلغاريا تم خضوع ملك تلك البلاد لسيادة الخانات على نهر الفولجا .

وفي هذا الوقت كانت الخصائص الثقافية للقبائل المتنقلة التابعة ( لباتو ) تلك القبائل البدوية ، التي تدعى بالقبائل الذهبية ، ربما نسبة لخيمة الخان المذهبة ، كانت هذه الخصائص لا تزال بدوية صرفة ، ولهذا لاعجب اذا رأينا ( باتو ) يختار الأجزاء ذات الصفات السهوبية من أراضي الفولجا الوسطى والعليا ومنطقة شمال شرقي البحر الاسود لتكون مركزاً لاستقرار واستيطان المغول في شرق أوروبا ، وهنا وجدت المراعي المناسبة لخيول الجيش الظافر والفضاء الواسع الرحب لمربي القطعان من المغول الذين كان يحلو لهم ممارسة العادات البدوية على طول مجرى نهر الفولجا ، وقد اختيرت أول عاصمة بنيت للمغول في جوار قرية سلترينوي الحالية ، وهي في منتصف الطريق ما بين مدينتي ستالينغراد الحديثة واستراخان ، وكانت هذه العاصمة تدعى ( ساراي القديمة ) ، وقد اكتسبت مظهر المدينة كما حدث مع ( قره قورم ) ، وهنا كان باتو يقضي أشهر الشتاء على الأقل ، وهكذا بنى القصور لنفسه ولرجاله المقربين ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت هذه المدينة مشهداً لأول تقارب حميم بين مغول روسيا والحضارة الاسلامية في غربي آسيا ، وذلك كما صوره مبعوث البابا المبشر ( جيوفاني دي بلانو كاربيني ) الذي مرّ خلال أراضي الامبراطورية المغولية على الفولغا بين عامي ١٢٤٥ و ١٢٤٦ فقد بدا لهذا المبشر ( كاربيني ) أن الوجود الجغرافي للتتار في هذه المنطقة هو أمر محقق للذاتية ، وأن هذه الامبراطورية التي أسسها ( باتو ) بحملاته يجب أن يحكمها ( باتو ) وخلفاؤه وذلك طبقاً لرغبات جده جنكيز خان ،

وكانت حدودها الجنوبية هي جبال القفقاس ذلك أن المملكة الرئيسية في تلك الجبال ، وهي مملكة جورجيا ، كانت قدأجبرت على قبـول التبعية للمغول .

ولم يعد من السلامة في شيء بالنسبة ( لباتو ) أن يسعى لزيادة رقعة أملاكه فالخصومات حول تولي العرش ، أي عرش جميع المغول استمرت طيلة العشر سنوات التالية وهذا ما اضطره إلى تركيز جميع جهوده على شؤون آسية الوسطى ، وبما أنه لم تكن هنالك ترتيبات لوراثة العرش فقد عيَّن كبراء الدولة وأعيانها ( توراكينا أرملة أوكتاي[1] ) وصيةً على العرش وهذه دلالة أخرى على المركز الفريد الذي كانت تحتله المرأة في المجتمع المغولي . وقـد ناضلت توراكينا بكل قواها لتؤمن لابنهـا كيوك استرداد ميراثه من أبيه ، وقد قاومها باتو وذلك لأنه كان يطمح بالوصول إلى العرش ، كونه من أولاد أكبر أبناء ، جنكيز خان ، وربما أيضاً لأنه كان لا يرضى القبول بزعامة كيوك لاسباب دينيـة وثقافية فقد كان باتو مثله مثـل جنكيز خان وجوجي من قبل ينظر نظرة استخفاف ولا مبالاة إلى جميع الأديان السماوية وشبه السماوية في الأقاليم المغولية ، فقد بقي مخلصاً للايمان الشاماني لآبائه وأجداده الذين كانوا يؤمنون بإله واحد ، ولكنهم اعتبروا الشمس والقمر والأرض والحيـاة كائنات عليا قدموا لهـا الصلوات والأضحيات ، وإن المناظرات الدينية التي كانت تعقد أمام هؤلاء الحكام لم يكن لها أي أثر في تغيير أو اضعاف وجهة نظرهم ، هذا وقد كان كيوك ينتمي إلى جيل من الشباب يشل ميولاً مختلفة جديدة بدت آنذاك بأنها سوف تنتصر في النهاية ، وتسود بين أمة المغول . فقد عُرفت المسيحية على المذهب النسطوري بين المغول

---

(١) بايع أوكتاي ابنه الثالث كوجو بولاية العهد لأنه كان يؤثره بحبه، لكنه توفي قبل أبيه ، فاختار أوكتاي حفيده شيرامون بن كوجو ليكون ولياً لعهده ، وكان ما يزال طفلا صغيراً ، واستدعى إليه كيوك ، وكان في روسيا ، ولفظ أوكتاي أنفاسه سنة ٦٣٩هـ قبل وصول كيوك، فتسلمت الوصاية على العرش أم كيوك، وكانت عاقلة مدبرة تمكنت من ضمان العرش لابنها ببراعتها . س.ز .

(كما ذكرنا سابقاً) منذ عدة قرون ، ومع توغل الجيوش الفاتحة اكتسب الدين المسيحي قوة داخلية جديدة وحماساً تبشيرياً ، وقد تركت هذه الديانة انطباعاً عميقاً على عقلية كيوك وحتى ولو لم يكن هو نسطورياً بشخصه إلا أنه كان يُظهر محاباة عظيمة للمسيحيين مدى حياته ، وكان اختيار كيوك لا شك أنه يعني انتصاراً للمسيحيين وانتكاسة للأفكار والعقائد والتقاليد القديمة ، ولكن باتو لم يستطع أن يمنع حدوث ذلك الانتخاب عام ١٢٤٦ ، ولقد وصف هذا الانتخاب بالتفصيل المبشر جيوفاني دي بلانو كاربيني الذي كان حاضراً شخصياً ، ففي وسط السهل حيث جرى الانتخاب نصبت خيمة هائلة للانتخاب حيث تجمع النبلاء والأعيان ، وتجمع حول هذه الخيمة وعلى مدى البصر قبائل الأمة المغولية التي كانت تتوق للمشاركة بكل حب استطلاع واهتمام، بمشاهدة مثل هذه المناظر مع الانتخاب الحقيقي ومواكب السفارات الأجنبية التي كانت تحضر في مثل هذه المناسبات ، والتي كانت دليلاً في نظرهم على تفوق الأمة المغولية ، وهذا أيضاً كان انطباع كيوك وتفسيره لحضور المبشر كاربيني ، فقد اعتقد أن البابا والملك لويس التاسع ملك فرنسا ، كانا يتوقان لوضع نفسيهما تحت حمايته وسلطته ،ويظهر هذا الاعتقاد بوضوح في الجواب الذي سلمه كيوك إلى بعثة البابا[1] .

وكان اختيار كيوك مؤشراً لاندلاع العداوات والخصومات مع باتو ، وكان كلا الفريقين يُعدان أنفسهما للصدام المسلح الواحد ضد الآخر عندما مات كيوك في نيسان عام ١٢٤٨ ، وقد انتهت بموته كل نزعات الخصام ، وانتهت تلك الآمال المشرقة التي دغدغت أحلام المسيحية بشكلها النسطوري ، وتمتعت بها أثناء حكمه ، كما أن التحول العظيم في حياة المغول الذي كان على وشك الوقوع أصابه بعض الفتور والتأخر مدة من الزمن، وعندما حدث هذا التحول أخيراً ، حدث بسبب التأثيرات الحضارية العالية

---

(١) إن رسالة كيوك الى البابا محفوظة في أرشيف الفاتيكان .

التي أقحم الفاتحون أنفسهم فيها ، وجاء على شكل يختلف عما كان متوقعاً عندما انتخب كيوك لتولي العرش .

وعهد بالوصاية ثانية إلى أرملة الخان الأعظم ، وأسمها أوغول جايميش عندها فكر باتو أنه من الخير له أن يبقى في أواسط آسيا قريباً من مشهد الأحداث ، وفي هذه المرة وجد المنتخبون أن لهم الحق في تخطي حق سلالة أوكتاي ،واعترفوا بحق سلالة الابن الأكبر ، أي نسل ( جوجي ) ، وبما أن ( باتو ) كان معترفاً به بأنه هو رأس هذه السلالة ، ( رغماً عن أن أخاه الأكبر أوردا[1] كان لا يزال على قيد الحياة ) فقد كان له أمل عظيم بأن يصبح الخان الأعظم ، ورفض انتخابه ، ربما بسبب سنه وقدم للانتخاب أحد أولاد تولوي الابن الأصغر لجنكيز خان ، الذي ظل حتى الآن قابعاً في الظل ، وهكذا تقرر أخيراً في العام ١٢٥١ اختيار منكو[2]، وهو أمير نشيط شجاع ، كان مؤيداً لباتو على الدوام ، واشترك في حملاته في روسيا ، وفي تلك الاثناء قام أحد الأمراء بحبك مؤامرة ليؤثر على اختيار الناخبين ، ولكن هذه المؤامرة أخمدت في مهدها ، واستطاع ( باتو ) أن يرجع إلى ( الفولجا ) وهو راضٍ عن نتيجة الانتخابات .

وبفضل والدته الفاضلة استفاد مونكو من تربيته القويمة ، ومع أنه لم يكن مسيحياً كوالدته ، إلا أنه كان متسامحاً جداً ، حتى أن جميع الاديان استطاعت أن تعيش وتتعامل بحرية جنباً إلى جنب أثناء حكمه ، واستطاعت المسيحية النسطورية أن تشق طريقها بنجاح في هذا المضمار ، وبنفس الوقت استطاع المسلمون والبوذيون أن يرسلوا دعاتهم للتبشير بدياناتهم في منغوليا،

---

(١) انظر شجرة النسب في آخر الكتاب .

(٢) تختلف المصادر حول رسم اسم هذا الخان فبعضها يكتبه منكو ، والبعض الآخر مونكا ، ومانجو ، ويعود أمر اختياره الى أنه عندما توفي كيوك خان كانت سرقويتي أم منكو أعظم أميرة مغولية ، تمتعت بالكفاءة والحزم النادر مع عقل راجح، وكانت تفقه قوانين جنكيز خان أحسن من سواها،وقد استطاعت أن تقنع غالبية الامراء المغول باختيار ابنها . س.ز .

وهكذا أصبح المتعصبون للديانة القديمة أقل عدداً ، وأدنى نفوذاً ، وفي العاصمة ( قره قورم ) التي كبرت وزادت فخامة وجمالاً وزينة ، ارتفعت الكنائس والمساجد والمعابد البوذية في منافسات لا تخلو من الغيرة والحسد ، ولقد ترك لنا أحد مبعوثي البابا وهو ولهلم فون روبروك الفرنسيسكاني وصفاً شيقاً للنشاط التجاري الشديد والمنافسة بين الأديان المختلفة ، واهتمام الخان الأعظم بهذه الأديان والمذاهب ، وذلك أثناء رحلته عبر ساراي على الفولجا إلى العاصمة ( قره قورم ) ،وكان ولهلم هذا رجلاً ذا بصيرة عظيمة نفاذة ، وقد أدرك أن اهتمام ( الخان ) برجال الدين من كل مذهب وديانة هو دليل على عدم مبالاته ، وان اشتراكه أحياناً باحتفالات المسيحيين لا يدل على أنه قد التصق بالديانة المسيحية ، ولكن ولهلم أساء الحكم عند اتهام كهنة النسطوريين بممارسة ما كان يعتبره أعمالاً خرافية ، أو على الأقل تساهلهم في مثل هذه القضايا ، وذلك لأن المقاييس الغربية لا يمكن أن تطبق على الأحوال في آسية الوسطى بينما لم يكن الغرب يخلو من خرافات قديمة ازدهرت ونمت هناك .

ويعتقد ولهلم فون روبروك أن حضارة المغول كانت حضارة بدائية ، فالعائلة كانت تخضع للنظام الأبوي ، والأزياء بسيطة ، والأمانة والصراحة وإكرام الضيف كانت هي السمات الغالبة ، وأما المرأة المغولية فكانت تتمتع بالحرية التامة فهي تستطيع أن تمتلك أملاكاً خاصة بها ، وحتى حق لها أن تمارس التقاضي أمام المحاكم ، وكانت هي سيدة البيت ، ومربية الأطفال ، وكان القانون يعاقب زنا الرجل أو زنا المرأة بالموت ، وكان للأميرات من الأسر النبيلة نفوذ عظيم ، وقد حدث أن شغلت أرملة الخان مرتين وظيفة الوصية على العرش ، عند موت الخان الأعظم ، وفي نفس الوقت ازدهرت التجارة ، وبُني نظام محكم مدروس للمواصلات في طول البلاد وعرضها ، وقد ساعد العدد العظيم من الأسرى الذين جلبوا من البلاد المقهورة على رفع مستوى الاقتصاد في البلاد ، وقد قابل ولهلم عدداً كبيراً من الألمان

والهنغاريين والفرنسيين ، فضلاً عن السوريين والروس ، وقد احتل الهنغار والفرنسيون مركزاً مرموقاً كحرفيين وعمال فنيين مهرة ، وكنت تجد المبعوثين والوفود من جميع البلدان في العاصمة ( قره قورم ) ، وقد اتبع نظام بروتوكول صارم لتنظيم وصولهم ودخولهم إلى حضرة الخان الأعظم وذلك بالإضافة إلى سكناهم وتغذيتهم ، وقد سمح لهم بالحرية التامة وباختلاط بعضهم ببعض ، وببقية أفراد السكان ، وهكذا سنحت لهم الفرصة لتوسيع معلوماتهم عن الحضارة الجديدة التي بدأت تبزغ في ذلك البلد الذي كان متأخراً ، وأصبح متقدماً بسبب تأثير الشعوب المجاورة التي ساهمت في نمو الحضارة الجديدة ، هذا وقد أمَّنت الخدمات البريدية والمواصلات ليس انتشار الأخبار ووصولها بالسرعة الكلية فحسب ، بل الراحة للمسافرين لدرجة عظيمة ومعقولة ، وأصبحت ( قره قورم ) المركز الذي التقت به كل حضارات آسيا وتفاعلت ، ولأول مرة في التاريخ ارتبطت بلدان شرقي آسيا مع بلدان غربي أوربة بطرق تكتظ بحركة السير المستمرة التي لا ينقطع سيلها ، وهكذا تعرَّف الغرب على الصين التي بقيت محجوبة عن انظار أوروبة منذ اقفال الطريق القديمة ، التي كانت تمر عبر بلاد العجم لتجلب الحرير إلى الغرب ، وهكذا وصلت تقارير وأخبار غير واضحة عن اليابان لأول مرة إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط وعلى هذا الأساس فإن تأسيس الامبراطورية المغولية ، وإن سبب الكثير من الخراب ، خصوصاً أثناء حروب جنكيز خان ، لم يخلُ من نتائج إيجابية في تقريب الأمم بعضها لبعض ، وتقديم محرض مؤثر للحضارة الأوروبية فيما بعد .

اعتبر مونكو أن أولى واجباته السياسية هي إتمام تنفيذ وصية جنكيز خان التي نفذ أوكتاي جزءاً منها ، ولذلك بدأ بإعداد الحملات إلى الصين وآسيا الغربية ، ففي الصين كانت المشكلة تتمثل في توحيد ودمج الفتوحات التي تمت ، ولهذا عمد الخان الأعظم إلى الاحتفاظ بهذه المهمة لنفسه وهكذا انشغل مع أخيه ( قوبيلاي ) في سلسلة من المعارك الطويلة

الأمد والتي لم تكن قد انتهت عندما مات مونكو في ٦ ايلول عام ١٢٥٩ أثناء حصار أحد الحصون الصينية •

أما الحملة إلى غربي آسيا فقد أوكل أمرها إلى أخ آخر من اخوان الخان الأعظم وهو هولاكو ، وقد خصص عدد كبير من الفرق لهذا الهدف تحت قيادة هولاكو ، وبالإضافة إلى ذلك طُلب من جميع قـواد الجيش الآخرين أن يخصصوا جزءاً من جنودهم الصالحين للخدمة والمجهزين للخدمة الفعلية وذلك للالتحاق بجيش هولاكو ، ونتيجـة لذلك وصل الجيش الذي حُشد وعبىء لاخضاع آسيا الغربية إلى ذروة القوة التي يمكن أن يصل اليها أي جيش في تلك الفترة ، وقد قدر المستشرق الروسي ولهلهم بارثولد عدد ذلك الجيش بـ ١٢٩٫٠٠٠ رجل ، وهذا العدد أصغر بكثير من العدد الذي ذكره كثير من الكتاب المعاصرين الذين لا يقلون مبالغة عن المؤلفين الخياليين في الأزمنة القديمة •

كانت الحالة في بلاد العجم منذ غزوة جنكيز خان لا تزال مشوشة ، والاقليم الوحيد الذي وطد به الفاتحون سلطتهم على أسس ثابتة تقريباً هو اقليم خراسان في الشمال الشرقي ، أما في الاقاليم الأخرى فقد احتفظت بعض الأسر الصغيرة باستقلالها عن المغول وكان ممثلو السلطات المغولية في حالة خصام وخلاف بعضهم مع بعض ، وفي كثير من الحالات ظهرت الخصومات بينهم مما سبب استدعاء كثير من الحكام ولم يكن هذا في صالح هيبة الدولة المغولية ، أما في القوقاز فقـد كان الاستخفاف ظاهراً بالسلطات المغوليـة بالنسبة لسكان ( ساراي ) هناك وهذا سببه ولا شك وعورة تلك البلاد الجبلية وصعوبة وصول الجيوش المغولية إلى تلك المناطق •

وفي مثـل هذه الظروف لم يكن الطريق ، أمام ( هولاكو ) سهـلاً ممهداً عندما بدأ بغزو تلك البلاد عام ١٢٥٥ ، ولم يلاق المغول أية مقاومة تذكر، أو أية مقاومة منظمة إلا بعد أن وصلوا المنطقة الجبلية جنوبي بحر الخزر التي كانت تحيط بمركز طائفة الحشيشية المرهوبة الجانب في تاريخها الماضي،

والتي كانت لا تزال مخيفة ، وقد أبدت قلعة ( ألموت ) وهي مركز الحشيشية مقاومة باسلة ويائسة للهجوم والانقضاض الضاري الذي قامت به حشود المغول ، ولم تستسلم هذه القلعة إلا بعد حصار طويل الأمد ، وكان رئيس الطائفة يدعى ( شيخ الجبل )[1] وقد أعدم فوراً ، وقد أطلق المغول سراح أحد كبار علماء فرقة الاثني عشرية الشيعية والمدعو ( نصير الدين الطوسي ) ( توفي عام ١٢٧٤ ) وأصبح لهذا العالم حظوة ومنزلة رفيعة لدى المغول ، وهو في خدمتهم ، وقد استأنف هذا العالم نشاطاته العلمية واستطاع أن يشيد مرصداً فلكياً في مدينة مراغة شمال بلاد العجم ،هذا وقد رحب المسلمون بسقوط قلعة ألموت لأنهم اعتبروا ذلك خلاصاً لهم ، إذ أنهم كانوا يعتبرون أن الحشيشية لا يقلون في شرورهم وبغضائهم عن الصليبيين .

ولم يمض وقت طويل حتى تحقق المسلمون أن هولاكو لم يأت إلى بلادهم كصديق ، فبعد أن أحتل قلعة ألموت ، وأخضع الامراء الصغار في الشمال الغربي من بلاد العجم وأمراء اللور الأكراد المستقلين في جبال زاغروس ، بدأ بالزحف رأساً إلى بغداد ، وكان خليفة بغداد قد جلب على نفسه غضب هولاكو بسبب بعض التصرفات السياسية الخرقاء ، فبينما كانت بغداد عاصمة الخلافة تتعرض لأقسى ظروف الفوضى ، لم تكن موارد الدولة وخصوصاً القوة العسكرية والطاقة البشرية ، كافية لتحمل مقاومة فعالة لأن القوى غير متكافئة ، ومع ذلك فقد قرر الخليفة وبجسارة فائقة أن يقاوم ، وقد ظهر واضحاً للعيان المصير المؤلم الذي سوف يتعرض له أمير المؤمنين ، خصوصاً وأن بعض المجموعات في المدينة بدأت تتفاوض مع المغول وبينهم أفراد الحامية التركية الذين اتصلوا باخوانهم الاتراك في جيش هولاكو وقرروا عدم قتالهم ، فضلاً عن أن وزير الخليفة كان عالماً بعدم

---

(١) لم يحمل أي من زعماء ألموت لقب شيخ الجبل ، فقد اعتبرهم أتباعهم منذ أمد أئمة ، وكان لقب شيخ الجبل وقفاً على مقدم الحشيشية في بلاد الشام . س . ز .

جدوى القتال ، إلا أن الأمير العباسي العنيد لم يعر أذناً صاغية لأي اقتراح بعمل تسوية ، وكان مستعداً لتحمل مسؤولية الهجوم المتوقع عليه ، ولم يكن هنالك أي أمل في تجنب الكارثة ، ففي ١٠ شباط عام ١٢٥٨ هاجم المغول المدينـة ، واحتلوا دار الخلافة ، وأسروا الخليفـة وأجبروه أن يبوح لهم بمواضع الذخيرة أو الدفائن السرية ، وبعد ذلك أعدموه بخنقه بين الزرابي ، وذلك لأن المغول كان لديهم خوف موروث مصدره خرافي من إراقة الدماء الملكيـة •

ان سقوط بغداد وما صحبه من زوال الخلافة العباسية التـي كانت لا تزال لها بعض الهيبة والنفوذ الروحي ، أنتج كثيراً من الهيجان والثورات في بلاد ما بين النهرين، فقد ثارت ثائرةالمسيحيين ــ النساطرة منهمواليعاقبة ــ الذين كانوا لا يزالون كثيري العدد وخصوصاً في شمال البلاد ، وكذلك في بغداد وكذلك الشيعة الذين كانوا يعيشون بصورة رئيسية في الجنوب ، وقد أطلق ( هولاكو ) لجنوده وسواهم حرية التصرف ضد جميع أهل السنة من المسلمين ، فقد كان هولاكو نفسه متأثراً بالمسيحية ومتعاطفاً مع المسيحيين ضد المسلمين بواسطة تأثير زوجته الموهوبة دوقوز خاتون ، ففي أثناء نهب بغداد لم يتعرض المغول لكل من المسيحيين والشيعة الذين كان نصير الدين الطوسي يتكلم باسمهم ويدافع عنهم •

وهكذا استطاع المسيحيون أن يعيدوا بناء كنائسهم والشيعة مساجدهم وأن يعقدوا احتفالاتهم ومواكبهم الدينية العامة ، وقد اختار الشيعة نقيب الاشراف ليكون ممثلا لهم ولمصالحهم أمام السلطات •

ان هذا الموقف لهولاكو أصبح له صدى عميق في جميع أنحاء آسيا الغربية ، فأصبح المسيحيون في سوريا وفلسطين وآسية الصغرى ينتظرون مجيئـه بفارغ الصبر ، حتى يتحقق أملهم بتحسين أحوالهم ، وقد أسهموا بالسقوط السريع لكثير من المعاقل في شمال بلاد ما بين النهرين في يد المغول ، ولم تظهر أي مقاومة إلا من قلعة ( ميافارقين ) التي أبدت مقاومة ضارية مدة

سنتين كاملتين • ولم يأت عام ١٢٥٩ إلا" وأصبح الزحف نحو البحر المتوسط وشيكاً ، وقد رحب المسيحيون في دمشق بدخول هولاكو إلى تلك المدينة ، وأصبحوا يعاملون المسلمين من أهالي دمشق بكثير من الغلظة والغطرسة ، وكانت مدينة حلب قد أخذت عنوة ، وهكذا أصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً أمام هولاكو •

وبعد ذلك وفي أثناء غياب هولاكو تقدم قواده نحو جيش المماليك ، وقد حدثت المعركة الحاسمة في ٣ إيلول عام ١٢٦٠ في ( عين جالوت ) في فلسطين ، وانتهت بانهزام جموع المغول الغزاة ، ففي ذلك القتال المرير حارب المماليك تحت قيادة قطز ، وكان المماليك أيضاً من سكان سهوب أواسط آسيا ، وكان المماليك متمرسين بأساليب القتال والفروسية فهزموا القوة المغولية وأسروا قائدها المغولي •

لقد كانت هزيمة المغول نقطة تحول في التاريخ إذ أنها أوقفت المد المغولي وأكدت استمرار استقلال مصر ، وبعد معركة عين جالوت مباشرة قام القائد بيبرس بقتل ( قطز ) ، وأصبح سلطاناً ودخل إلى القاهرة على رأس جيشه المظفر وهكذا أصبحت دولة المماليك قوة مقابلة وموازية للمغول ، وحصناً واقياً للاسلام ، ولكي يدعم بيبرس سلطته استقبل في بلاطه أحد أفراد الأسرة العباسية ، وقد اضطر هذا الأمير الذي تحوم بعض الشكوك حول صحة نسبه ، بعد محاولة موفّقة لاسترجاع بغداد من المغول ان يلجأ إلى القاهرة وهناك شغل دور المتسلط ، أو السيد الديني وهذا كان موافقاً لمصلحة بيبرس تماماً ، ومع أن ادعاء العباسيين في القاهرة للخلافة حصل على الموافقة الفورية من قبل بعض الامراء في شمالي الهند وفاز لبعض الوقت باعتراف عدد من خانات مملكة القبائل الذهبية المغولية ، إلا" أنه كان المؤيد والداعم الدائم لسلطة المماليك حتى سقوطهم عام ١٥١٧ ، وقد استمرت مصر حتى هذا التاريخ مسيطرة على مقدرات سورية وفلسطين، إذ كانت تعتبر ان هذه المنطقة هي خندقها الأمامي •

وإن السبب في عدم وجود هولاكو على رأس جيشه في معركة ( عين جالوت ) انشغالـه بالظروف القـاهرة التـي تلت وفـاة أخيـه الخـان الأعظم ، فقد سبب موت مونكو حدوث خلافات عميقة خطرة على وحـدة الامبراطورية المغولية ، ولا شك أن الخان الأعظم كان ينوي أن ينصب أخاه أريق بوقا خليفة لـه ، ولكن أخاه الآخر ( قوبيلاي ) الـذي كان يقاتل في الصين ويعتبر نفسه امبراطوراً منصباً لتلك البلاد ، اعترض على هذا الترتيب واستعد للدفـاع عن ادعائه بالسيف ، فبعد أن نصّب نفسه امبراطـوراً في الصين وضع أحد قواده الذين يثق بهم على رأس جيوشه هناك ، ثم تقدم بشخصه الى منغوليا وكان ( بوقا ) قد رتب شؤونه في ( قره قورم ) ، وتبع ذلك حرب أهلية كانت نتيجتها انقطاع منغوليا عن العالم الخارجي وتعرضها لهزات اقتصادية عنيفة ، أما هولاكو فقـد دعم ادعاءات صديقه وأخيـه قوبيلاي ، وهكذا انتهى النزاع لصالح هذا الأخـير ( قوبيلاي ) ، واضطر ( بوقا ) للخضوع واختفى من الميدان السياسي نهائياً ، ثم مات عام ١٢٦٦ .

وتيجة لهذه التحولات في الحوادث أصبحت منغوليا دولة خارج حدود الصين ولا تتدخل بشؤون الصين بل بالعكس أصبحت مصدر قوة وتأييد للأسرة المغولية الحاكمـة في الصـين وهي أسرة يونـان ، ولكن منغوليـا لم يعد لها أية أهمية بارزة في تاريخ العالم ، ( ومثل هذا ما حدث للجزيرة العربية وهي مهد الاسلام بعـد تأسيس الخلافة الأموية ) ، لهـذا أصبحت السفارات الأجنبية من أجزاء آسيا الأخرى بما فيه بعض الممتلكات المغولية السابقة، تذهب إلى بكين مباشرة،وأصبحت أساليب حياة (الخان العظيم) وبلاطه صينية ، والسيدات في البيت الملكي كن في كل شيء ما عدا الاسم أميرات صينيات ، وكانت مصالح الأمة المغولية يصرّفها ( قوبيلاي ) حسب وجهـة نظر الامبراطورية فقط ، ولكن عمليـاً كانت هذه المصالح تخضع للتقاليد الصينيـة ، وبأمر مـن ( قوبيلاي ) اخترعت أشكـال جديـدة للحروف

الهجائية [ الأبجدية ] المغولية على يد أحد الرهبان من ( التبت ) بدلا من الحروف التي كانت تدعى ( الغورية ) وهي الحروف التي استعملها المغول وتعلموها من أراضي الغور في بداية القرن الثالث عشر ، والتي كانت مشتقة من حروف سامية قديمة ، ولكن رغم بساطة استعمال هذه الحروف ، إلاّ أن هذا الطراز الجديد للكتابة الذي يدعى ( الخط التربيعي ) لم ينل موافقة أو استحساناً لدى الجمهور ، فمن جهة واحدة كانت الاستعمالات القديمة قوية جداً ، ومن جهة أخرى ظهرت أنها أبسط مما لو دعت الحاجة لترجمة اللغة المغولية إلى الأحرف الصينية ، وكنتيجة لهذا استطاع الرسل والسعاة الصينيون أن يقرأوا الكتابات والوثائق المغولية بصورة لا بأس بها ، ولكن دون فهم لمعناها تماماً ، إنما نجد أن الأحرف المغولية الحقيقية استمرت لتكون الاحرف الغورية وهي لا تزال مستعملة حتى اليوم .

لقد سببت الحرب الأهلية لعام ١٢٥٩ تأثيرات سريعة على الأجزاء الغربية من الامبراطورية المغولية العتيدة ، فالنزاع بين الأخوين قوبيلاي ( وبوقا ) كان له نظير في النزاع بين هولاكو وخان القبائل المغولية الذهبية بركا ، ذلك أنه بعد موت ( باتو ) عام ١٢٥٦ ، وانقضاء فترة انتقال قصيرة أصبح ( بركا ) عاهلاً للامبراطورية التتارية في جنوب روسيا ، وكان أول حاكم مغولي يعتنق الاسلام ربما قبل اعتلائه العرش ، ولهذا السبب لم يوافق على الحملة ضد الخليفة في بغداد، وحاول أن يتوسط في الأمر، ولكنه لم يستطع أن يمنع الفرقة التي أرسلها من جيشه من الاشتراك مع الفرق الأخرى التي أرسلت من الجيوش الأخرى للاستيلاء على بغداد ونهبها ، وكان كل هذا يشعره بالمرارة والحقد لأن ( مونكو ) قد جعل بلاد القوقاز وما جاورها ، وهي أصلاً تابعة لقبائل المغول الذهبية ، من نصيب هولاكو ، وهكذا بدأ

(١) كان خليفه باتو المباشر هو ابنه سارتاق الذي يقال أنه كان يميل للدين المسيحي .

( بركا ) بتعميق الحقد والكراهية ضد جاره الجنوبي ، وتتيجة لذلك وقف إلى جانب ( بوقا ) بينما دعم هولاكو ( قوبيلاي ) كما رأينا سابقاً •

وعندما انتصر ( قوبيلاي ) وأصبح الخان الأعظم ، وقع ( بركا ) في عزلة سياسية تامة ، وهكذا قطع جميع علاقاته مع عاصمة الخان الأعظم وهي بكين ، ولكن هولاكو وطد علاقاته مع الخان الأعظم ، وهكذا عمل الحاكمان المغوليان اللذان حكما الصين القديمة وبلاد العجم على التعاون فيما بينهما ، بينما تم إهمال أبطال التقاليد المغولية ونبذوا نبذ النواة، وقد بقيت العلاقات بين المغول في بلاد العجم وقبلاي خان علاقات ودية ، هذا وقد كان قبول هولاكو حاكماً لبلاد العجم ولقب ( إلك خان ) (نائب الملك) بمثابة تثبيت لخضوعه التام لسلطة الخان الأعظم المركزية ، وأما من الوجهة الثقافية فقد كان للعلاقات الوطيدة الجيدة بين البلدين تأثير ونتائج مفيدة لكليهما •

لقد تفجرت العلاقات المتوترة أخيراً بين القبائل الذهبية ( والإلك خان ) ( نائب الملك ) بحيث تحولت إلى معارك ضارية عندما نشبت الحرب الأهلية بين ( قوبيلاي ) وبوقا ، وانتهز ( بركا ) هذه الفرصة ، وكان رجلاً نشيطاً ، فلم يقبل أن يرغم على ترك معقله الجنوبي دون نضال ، وهكذا بدأ في عام ١٢٦١ بالهجوم على القوقاز ، وكانت هذه بداية حرب غير حاسمة ، فاز ( بركا ) فيها بمعركة هامة على نهر ترك في ١٣ كانون الثاني عام ١٢٦٣ ، ولكنه لم ينجح في طرد هولاكو من القوقاز •

لم تكن هذه الخطوة خطيرة ، وبقي الوضع عادياً ، لو لم يعمل ( بركا ) على اتخاذ موقف لم يسبق له مثيل في تاريخ العلاقات المتبادلة بين الشعب المغولي ، وهذا الموقف تجلى بأن أمر ( بركا ) رجال جيشه الذي اشترك مع هولاكو في فتح بغداد ، أمرهم أن يتركوا هولاكو ويتوجهوا إلى مصر لدعم المماليك ، وهكذا فان خان القبائل الذهبية ( بركا ) اتحد لأول مرة مع قوة أجنبية ضد إخوانه المغول ، مما سهل انتصار المماليك في معركة عين جالوت

التي كانت نقطة تحول فاصلة بالنسبة لنظام المماليك ، الذي لم يمض وقت طويل على تأسيسه ( عام ١٢٥٩ ) وتسنم المماليك السلطة ، وتوطدت سلطتهم ونفوذهم منذ تلك المعركة .

لقد كان لهذا الحلف بين القبائل الذهبية المغولية ومصر اعتبارات وأسباب سياسية ، ولكن كان هنالك عامل هام أيضاً وهو التجارة ، ففي التركيبة الاجتماعية كانت الدولتان متشابهتان ، كلاهما على النيل وعلى الفولجا ـ تتألف الطبقة الحاكمة في كل منهما من أفراد يتمتعون بالخصائص التركية ، ويحكمون شعباً ذا طبيعة مختلفة تماماً ، وفي كلتا الدولتين اعتنق حكامها الاسلام ، وكان للعامل الديني أثره ، إذ أن العامل الديني كان له وزنه في العلاقات بين شعوب الشرق الأدنى ، وهكذا فقد استقبلت الدولتان نبأ التحالف الرسمي الذي عقد عام ١٢٦١ بكثير من الارتياح ، وكما هي العادة في كثير من الحوادث التاريخية يحدث أن تقطع أواصر الرحم والروابط الدموية بين الأخوة الذين تحولوا إلى أعداء ( أي المغول ) ، وأما من وجهة تجارية ، فقد كانت شواطىء البحر الأسود التي أصبحت تحت قبضة القبائل الذهبية مصدر تصدير عدد لايحصى من العبيد ، كانوا يصدّرون سنوياً إلى مصر ، أولئك العبيد الذين ارتفع مقامهم إلى القمة وأصبحوا سادة البلاد في مصر تحت اسم « المماليك » ، وكانت هذه التجارة تسير بشكل طبيعي ما دام الخان في ساراي وامبراطور القسطنطينية لا يبديان أية معارضة ، وكان امبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن باليولوجوس قد انتصر توا وأصبح سيد القسطنطينية بعد سقوط النظام اللاتيني الغريب[1] ، فهذا النظام لم يُبد أي اهتمام تجاه هذه العلاقات التجارية الوثنية ، ولم يكن بوسعه

---

(١) معروف أن الحملة الصليبية الرابعة حرفت عن هدفها ووجهت نحو القسطنطينية حيث احتلتها ، وأقامت حكم أسرة لاتينية استمرت حتى تم اسقاطها كما أشير أعلاه . س.ز .

التدخل في أية مفاوضات تجري بين الدول الاسلامية ، ولكن اهتمام ( بركا ) بهذه القضية كان على مستوى أعظم بكثير ، فعندما بدأ بالتعاون السياسي مع مصر، وبدعمه الحلف الذي قام عام ١٢٦١، وابرامه معاهدة تجارية وافق عليها البيزنطيون ، أصبح استمرار تصدير العبيد إلى مصر أكيداً ، وبالتالي استمر امداد المماليك بالدماء الفتية التي مكنتهم من السيطرة التامة على أراضي النيل ، وبنفس الوقت لم يستطع هولاكو أن يتدخل في هذه الأمور نظراً للقتال الدائر في القوقاز بينه وبين ( بركا ) ، ولهذا لم يستطع أن يبقى سوى بضعة اسابيع في سورية ،وعلى هذا فإن كثيراً من العوامل ساهمت في جذب هاتين الدولتين بعضهما إلى بعض ، ونظراً لأن أصل المماليك كان من أواسط آسيا ، فلا عجب أن نجد كثيراً من العادات والتقاليد بما فيه النظام العسكري المعمول به على ضفاف الفولجا ، هذا النظام لا عجب أن نجده أيضاً على ضفاف النيل .

ولكن نجد من وجهة نظر أخرى أن حلف ( بركا ) مع السلطان المملوكي بيبرس الأول كان يمثل خرقاً للتقاليد المغولية السابقة ، فحتى ذلك الوقت لم تتفق أية دولة مغولية ولم تعمل حلفاً مع أية دولة غير مغولية ، ما عدا في حالة خضوع الدولة المتحالفة رسمياً ، أو بشكل غير رسمي للسلطة المغولية ، فحكام جورجيا أو أرمينيا مثلاً أو أمراء روسيا المختلفين عوملوا معاملة الأتباع الاقطاعيين ، وامبراطور بيزنطة وطرابزون كان يعامل مثل هذه المعاملة على الأقل من وجهة النظر المغولية ، أما في حالة مصر فلم يكن الوضع على هذا الشكل ، إذ أن ( بركا ) قد قبل أن يكون تابعاً للخليفة العباسي في القاهرة ، وهذه خطوة لها دلالتها الإيديولوجية ، مع أنها عملياً لا قيمة لها ، وعندما اتخذ ( بركا ) هذا القرار تخلى عن انتمائه للمجتمع المغولي الدولي ، ولو معنوياً ، هذا المجتمع الذي كان لا يزال يؤلف امبراطورية على رأسها الخان الأعظم ، وقد كان هذا الخرق نتيجة هامة للحرب التي تبعت موت ( مونكو ) فقد هزم ( قوبيلاي ) أخاه ( بوقا ) ونفاه عن المسرح السياسي ، ولكن

مجتمع العشائر الذهبية لا يمكن الاستخفاف به بهذ االشكل ، وإن إحدى السمات التي تميز هـذه الحالة الجديدة اختفاء اسم الخان الأعظم من على قطع العملة المسكوكة في منطقة العشائر المغولية الذهبية ، وقد بدأ هذا الأمر عام ١٢٦٠ ، وكان له أهميته بصورة خاصة لأن العملة في تلك الأيام شأنها شأن طوابع البريد في هذه الأيام ، كانت رمزاً لوجود السلطة الشرعية .

لقد كان الاتجاه الجديد للحوادث بعد عام ١٢٥٨ ليس وليد العوامل الجغرافية ، أو العوامل السياسية ، أو انتقال مراكز القوة أو الضغوط الدينية أو الثقافية ، بل كان يرافقه وبشكل موازٍ تغير شامل في بنية الأمة المغولية ككل ، وهذا كان يعكس الظواهر المذكورة أعلاه ، وهي التي أسهمت في تفسخ الامبراطورية المغولية ، وذلك لأن المغول عندما بدأوا بالفتوحات في خلال أواسط وشرقي آسية وغربيها واجهوا مناطق مختلفة جغرافياً تتمتع شعوبها بشعور ديني وثقافي مختلف تماماً بعضها عن بعض ، ولقد لاحظنا فيما ذكرنا سابقاً أنه خلال الحرب الأهلية عام ١٢٦٠ ، كان المغول يحتلون مناطق ذات حضارات عريقة قديمة ، أي حضارة الفرس والصين ، وكانت هذه الأقطار المتحضرة ، تعامل بشكل يختلف عن معاملة سكان السهوب ، مثل منطقة الفولجا ومنطقة ما وراء النهر ، وفوق ذلك فقد كانت هاتان المنطقتان مأهولتان بشعوب تركية أو شعوب ذات تعاطف مع الأتراك ، وهؤلاء هم بلغار الفولجا ، ( مع أن هنالك مجموعات أخرى غير هؤلاء ) وكانت ثقافة هذه الشعوب تشبه نسبياً الثقافة المغولية ، وهكذا حدث انصهار واندماج بين هذه الشعوب وبين المغول ، مما جعل كثيراً منهم يلتحقون بالجيوش المغولية المحاربة في آسية الوسطى وأوروبة الشرقية ، وقد حدث الاندماج بين القادمين الجدد والوطنيين بشكل جعل القبائل الذهبية،وشعوب ما وراء النهر يصبحون شعوباً متناسقة متفاهمة ، بينما كانت الحال في بلاد العجم والصين تختلف تماماً ، إذ استمر المغول هناك يمثلون دور الحاكم

المتسلط على المناطق التي يختلف سكانها عنهم في لغتهم ، وبالنسبة لبلاد العجم خلال العقود القليلة القادمة سيختلفون عنهم في الدين أيضاً .

كل هذه الظواهر كانت واضحة وملموسة أثناء انقسامات عام ١٢٦٠ ، وكانت نتائجها المباشرة ذات تأثير بالغ ، وقد وقفت منطقة ما وراء النهر كإسفين حاجز بين دولتي العجم والصين الصديقتين ، وهكذا أصبحت القبائل الذهبية معزولة تماماً وخارج المجتمعات المغولية ، ولما أصبحت الحالة بهذا الشكل ، صار من الضروري تتبع تاريخ مصير كل دولة لوحدها، ولكن وضع الصين يجعلها المحور الرئيسي لامبراطورية الخان الأعظم ، إنما تطورها وتقدمها المستمر جعلها تتلبس مظهراً صينياً بحتاً ، ولهذا فمن الواجب تتبعها من خلال دراسات تاريخ الصين المحض .



# الإيلخانيون في إيران

لم يتمتع هولاكو سيد بغداد بفسحة من العمر لينظم البلاد التي فتحها ، ولما كان حكم المغول في خراسان قد بدأ منذ عهد طويل ، لذلك أصبحت خراسان معقلاً للنفوذ المغولي ومركزاً له ، الأمر الذي دعمه وساعده تأسيس المستعمرات الاستيطانية المغولية والتركيـة هناك ، وهكذا ظهر مركز ثانٍ للنفوذ المغولي في أذربيجان ، التي كانت تسكنها قبائل من أصل تركي من قرون مضت ، وهذه القبائل تغلغلت وسط السكان الأعاجم،وقدمت ابتداء من القرن التاسع الميلادي الامدادات العسكريـة للخلفاء العباسيين في بغداد ، وكان أكثر من نصف جيش هولاكو يتألف مـن الأتراك ، الذين اجتذبتهم تلك المنطقة اجتذاباً كلياً ، وقد استقرت مجموعة كبيرة من الغزاة الأتراك في سهوب موغان التي تقـع شمال تبريز وتؤلف منطقة ممتازة صالحة للرعي ، وقد أصبحت مدينتـا تبريز ومراغـة ، حيث استقر الخـان ، عاصمتـي الاقليم الجديد ، ومن ثـم أصبحتا المركزين الرئيسيين للتجـارة والأعمال ، وبالرغم من عدم اهتمام الإلكخانات بالعلوم ، إلا أنهم كانوا بعيدي النظر بحيث استفادوا من العـلوم الفارسية والعربيـة لتنفيذ أغراضهم ، وذلك بتشجيع هذه العلوم ، أو على الأقل بعدم وضع العراقيل أمام انتشارها •

وكان موقع العاصمة يعني الكثير بالنسبة للسكان المسيحيين في شمال ما بين النهرين ،الذين شعروا الآن أن حاميهم أصبح قاب قوسين أو أدنى منهم ، وقد توقع النساطرة الحصول على مغانم خاصة ، وذلك لأن قسماً عظيماً من القادمين الجدد من آسية الوسطى كانوا يتعاطفون معهم ، سيَّما ، وأن زوجة الإلكخان قد اعتنقت الديانة المسيحيـة وهي ( دوقوز خاتون ) ،

هذا وكان الإلكخان غالباً ما يشترك في الأعياد المسيحية بنفسه ، ويحضر القداس ، وقد اجاز بناء كنيسة صغيرة في البلاط الملكي ، وأوقف الأوقاف لمصلحة الكنائس ، كما فضل المسيحيين على المسلمين في المعاملة ، وقد تمتعت الطوائف المسيحية الأخرى وهي السريان أو اليعاقبة والأرمن وإلى حدٍ ما الأرثوذكس في جورجيا بعطف الحاكم أيضاً ، فقد تضاعفت أحجام ابرشياتهم ، وزاد نفوذهم وتعاظم وأصبح لهم الحق في السير في مواكبهم علناً ، وأن يرمموا كنائسهم وأديرتهم ويوسعوها ، بينما لم يكن المسلمون يجاز لهم مثل هذه الأعمال ، ولكن هولاكو لم يعتنق العقيدة النسطورية ، بل كان يميل إلى مذهب مختلف ، وهذا المذهب كان قد أخفق في مدّ جذوره وتثبيتها في آسية الغربية ، لكنه أصبح مألوفاً للمغول في الصين ، وأعني به الدين البوذي ، ومع أنه ليس لدينا دلائل مادية تشير إلى أن الإلكخان ( هولاكو ) كان بوذياً رسمياً ، إلاّ أنه على أي حال كان يميل ميلاً ظاهراً لهذا المذهب ، فقد استقر في بلاطه عدد من الكهنة البوذيين الذين كان يدعون من قبل المغول بخشيس ، ولم يمض كبير زمن حتى فارق هولاكو الحياة ، إذ أنه كان مدمناً على تعاطي الكحول ، وقد تبعته زوجته التي توفيت بعد موته في الثامن من شباط عام ١٢٦٥ بقليل ، وقد أصبح ابنه ( أباقا ) الحاكم الجديد ، ومنذ البداية واجهت ( أباقا ) مشاكل خارجية خطيرة منعته من المغامرة في التوغل في اقتراف الأخطاء في السياسة الداخلية ، وقد بدأت الأخطار الخارجية بهجوم جديد قام به ( بركا ) في القوقاز ، وكانت فرق الإلكخان العسكرية قد حصنت مراكزها خلف عوائق خشبية على طول الضفة الجنوبية لنهر ( كر ) ولما لم يكن ( بركا ) يأمل أن يخترق هذه المراكز ، لذلك انتقل إلى أعلى النهر ، وبعد أن عبر النهر بنجاح ، سار غرباً فوق موقع تفليس قرب عاصمة جورجيا القديمة ، ثم بدأ بالتقدم جنوباً خلال جبال القوقاز ، وفي أثناء هذه الحملة مات بركا ( ربما في كانون الثاني عام ١٢٦٧ ) ، وهكذا انهارت مشاريعه التوسعية فاستطاع

( أباقا ) أن يلتقط أنفاسه بحرية ، لكن ما لبثت أخطار جديدةأن بدأت تتراكم أمام المملكة الايلكخانية من الشرق ومن الجنوب الغربي .

لقد بدأت العوامل الجغرافية التي كان لها أثرها في تطور بلاد العجم خلال الحقب التاريخية ، بدأت هذه العوامل تقوم بدورها من جديد، وكانت الأراضي الطبيعية للأمة الايرانية تحميها إلى حد كبير سلاسل من الجبال العالية ، جبال القوقاز من الجهة الجنوبية الغربية ، وجبال ( زاغروس ) في الغرب والجنوب الغربي،وهضبة بامير ،وجبال هندوكوش وامتداداتها في الشرق ، ولم يكن هنالك من منطقة مفتوحة إلاّ المنطقة الشمالية الشرقية في بلاد ما وراء النهر ، من هنا بدأت الأخطار الجديدة تظهر وتهدد ، وقد كانت العشائر الذهبية المغولية ، وملوك ما وراء النهر قد عقدوا حلفاً بقصد الهجوم الموحد ضد الإلكخان ، ولكن لحسن حظ (أباقا ) ( الالكخان الجديد ) لم يتحقق هذا الهجوم ، فقد توقف القتال في القوقاز في الوقت الذي بدأ به حاكم ما وراء النهر هجومه ضد خراسان عام ١٢٦٨ ، وكان الالكخان الجديد ( أباقا ) وهو الشاب ذي الهمة والنشاط قادراً على طرد الغزاة وتجنب الخطر من المنطقة الشمالية الشرقية قبل أن يلوح في الافق أي تهديد جديد .

وكان على رأس هموم حكام بلاد ايران منذ الأزمنة القديمة تأمين السيطرة ليس على منطقة ما بين النهرين فحسب ، بل على سورية وعلى الطريق المسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وللسيطرة على سورية كان من الواجب اخضاع مصر أيضاً ، وهكذا وضعت الخطط للقيام بحملات على طول مجرى نهر الفرات ، وقد أخفقت خطة هولاكو في الوصول إلى هذا الغرض في معركة عين جالوت ، والآن وكما كان في السابق فقد تمركز المماليك في سورية ، وبسبب سيطرتهم على حلب ودمشق أصبحوا يهددون المناطق الغربية التي يسيطر عليها الإلخان تهديداً مباشراً ، ولم يكن بيبرس بالرجل الذي يترك الفرصة تفوته لمصلحة مصر ، فقد قام بالهجوم تلو

الهجوم متجهاً من سورية إلى ما بين النهرين ، ولكنه لم يستطع ان يحرز على أكثر من الاحتفاظ بالقلق الدائم المزمن في مناطق الحدود بينه وبين الإلكخان ، هذا وقد تقدم ( بيبرس ) أيضاً في الهجوم ضد المملكة الأرمنية الصغيرة في كليكية ، التي كانت تساعد المغول وتقف إلى جانبهم منذ بدء هجومهم الكاسح من وسط آسية ، وقد ضرب تلك المملكة ضربات موجعة متلاحقة ، ولكن وبسبب الدعم الذي كانت تلقاه هذه المملكة على يد ( الإلكخان ) ، لم يستطع بيبرس أن ينهي وجودها السياسي ، هذا وقد اضطرت سلطنة سلاجقة الروم في آسية الصغرى إلى الخضوع للمغول في أوائل عام ١٢٤٣ م بعد انكسارها عسكرياً أمامهم ، وهكذا وجد المغول سبيلاً للوصول بصورة غير مباشرة إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن طوقت سورية من جميع الجهات ، وهكذا أصبح ( بيبرس ) ملزماً بهدف واحد وهو مقاومة النفوذ المغولي المتفوق في البلاد ، خصوصاً وأن المسلمين في آسية الصغرى قد قاسوا صنوف العذاب على يد الإلكخان عدو الاسلام والمسلمين ، ولقد سهلت الانقسامات الداخلية بين الإمارات التركية الصغيرة الغزوة التي قام بها السلطان المملوكي عام ١٢٧٧م، والتي توغل فيها حتى مدينة ملاطية ، وطرد الحاكم المغولي هناك ، وأنجد ودعم القوى الاسلامية التي كانت حليفه الطبيعي ، ثم هدم كثيراً من الكنائس ، ولكن نظراً للمقاومة الفعالة التي ابداها المسيحيون الارثوذكس والأرمن وللمساعدة التي أرسلها ( اباقا ) ، وأخيراً وليس آخراً بسبب موت بيبرس ، كل هذه العوامل ساعدت على منع النتيجة الحاسمة ، وهكذا عادت الحالة في الشرق الأدنى إلى ما كانت عليه ، والحقيقة أنه مهما كانت حال النظام المغولي القائم على حكم ايران من عدم التجانس مع الشعب في ذلك الوقت ، إلاّ أن العوامل الجغرافية أجبرت المغول على الدفاع عن تلك البلاد ضد المخاطر من القوقاز ، ومن منطقة نهر جيحون ومن مناطق نهر الفرات ، ومن آسية الصغرى ،

وهكذا ووجه الإلكخانيون بمسؤوليات ضخمة تشبه تلك المسؤوليات التي كانت تواجه كل أسرة فارسية حاكمة في الماضي .

إن تفاعل القوى التي تورطت بها حكومة ( أباقا ) تجاوز حدود آسية الغربية أو الشرق الأوسط ، ولقد ذكرنا سابقاً نبذة عن الائتلاف الذي شكله خان القبائل الذهبية المغولية مع حاكم ما وراء النهر ومع السلطان المملوكي للعمل معاً ضد عدوهم المشترك وهو ( الإلكخان ) ، وكانت إحدى نتائج تعاون ( ساراي ) مع القاهرة أن أصبحت القبائل الذهبية تتصل اتصالاً وثيقاً مع الدول الأخرى التي لها علاقات سياسية مع مصر ، وبين هؤلاء كانت مملكة ( الهوهانشتاوفن ) في صقلية ، وكذلك مملكة كاتالونيا التي كانت تربطها أواصر الصداقات العائلية مع صقلية ، وتبعاً لحالة دول إيطاليا سياساً آنذاك كانت عائلة هوهانشتاوفن معادية للبابا وللملك الفرنسي اللذين كانا يعملان بالتعاون بعضهما مع بعض في الشرق الأدنى ، وكانت الدولتان الصليبيتان اللتان بقيتا في فلسطين ، وعلى الساحل السوري وهما دولتا طرابلس وعكا تعتمدان اعتماداً كلياً على تأييد البابا والدولة الفرنسية ، وكانت هاتان الدولتان في طرابلس وعكا شوكة في جنب السلطان المملوكي ، وهكذا أصبح الصليبيون ومن ورائهم حُماتهم الفرنسيون الأصدقاء الطبيعيون ( للإلكخان ) ، وذلك لكونهم يتحدون جميعاً في عدائهم لمصر ، وقد بدأ رسل البابا والملك الفرنسي يظهرون تباعاً في أملاك ( الإلكخان ) خلال هذه الفترة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينجحوا في إنشاء حلف سياسي مباشر مع(الإلكخان)، هذا وقد أخفقت وأجهضت خطة قيام هجوم فرنجي ( إلكخاني ) على شمال سورية عام ١٢٦٩ ، فقد كان عامل المفاجأة الضروري لمثل هذا الهجوم مفقوداً بسبب الصلات التي كان يشوبها الغش والخلل بين الفرقاء المهاجمين ، ومع ذلك فقد خدمت هذه التحالفات على الأقل في توثيق عرى الصداقة والتماس بين مملكة ( الإلكخان ) وعاصمته تبريز مع أوروبة ، وزادت من تعرف الأوروبيين على دول الشرق الأدنى ، وقد انتهزت أوروبة هذه الفرصة

السانحة لإرسال المبشرين ، وزيادة نشاطهم ، وكانت تلك الارساليات التبشيرية لا تحصر نشاطها في المجتمعات المغولية ، بقدر ما كانت تنشط في المجتمعات المسيحية الهرطقية التي أصبح من الممكن الحاقها بروما مؤقتاً ، وقد ظهرت أديرة في منطقة ما بين النهرين والقوقاز في ذلك الوقت ، أما العلاقات مع الجمهوريتين الايطاليتين البحريتين : جنوا ، والبندقية ، فقد كانت علاقات فضفاضة غير متينة ، وذلك لأن هاتين الجمهوريتين كانتا تتجنبان الورطات السياسية بقدر الامكان ، وهكذا كانتا تتعاملان مع القاهرة وتبريز في نفس الوقت والمستوى ، وكذلك مع شبه جزيرة القرم التي كانت تابعة للقبائل المغولية الذهبية ، هذا ولم يخلُ الأمر من مصادمات حدثت بين الجمهوريتين الايطاليتين جنوا والبندقية ، وأكبر مثل على ذلك هو الحروب المتتالية في المضائق لأسباب تجارية للسيطرة على الشؤون التجارية واحتكار مصالحها في أقطار الشرق ، وقد أسقطت هذه الحروب من الحسبان أية امكانية للعمل المشترك بينهما ، وفي تبريز نجحت البندقية في الفوز بالقسط الأوفر من النفوذ ، وذلك بسبب الهدايا السخية التي اغدقتها البندقية من جهة ، ومن جهة أخرى لأن منافستها جنوا كانت قد نالت الحظوة والنفوذ في ( ساراي ) بعد أن أسست مستوطنات لها في بلاد القرم أولاً في كافا ، وبعدها في مناطق أخرى وهكذا أصبحت في صف واحد مع القبائل الذهبية المغولية ، وكانت العلاقات التجارية بين ايطاليا والشرق الأوسط مرتبطة إلى حد ما مع الأوضاع السياسية على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وكانت هذه التيارات المتضاربة ذات أهمية ، خاصة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية التي تمّ اعادة تشكيلها من جديد ، ففي آسية الصغرى كان ( الإلكخانية ) قد سيطروا على الموقف ، إذ فضلاً عن أنهم قد أتموا سيطرتهم على سلاجقة الروم فإنهم أجبروا امبراطور طرابزون على الخضوع التام ، ومن جهة أخرى أصبح الامبراطور ميخائيل الثامن في القسطنطينية مهتماً اهتماماً شديداً بالتجارة المصدرة من جنوب روسية إلى مصر وبالعكس ،

وذلك لاعتبارات اقتصادية ولسيطرته على مضيق الدردنيل ، ولهذا فمن الطبيعي أنه لم يستطع أن يتخذ أي موقف عدائي تجاه أي من تلك الدولتين ، وعندما كان ( الإلكخانية ) في أوج قوتهم شعر بالحاجة إلى التقرب إليهم ، وهكذا عمد إلى عرقلة التجارة وحركة المرور بين ( ساراي ) والقاهرة ، ولكن عندما شعر ( بركا ) بهذا الأمر قام بغزوة أجبرت الامبراطور على التخلي عن سياسته هذه ، وكان مركز ميخائيل الثامن المتوسط بين القوتين يبدو واضحاً عند ملاحظة تصرفاته باعطائه إحدى بناته الشرعيات ، زوجة لأباقا ، وابنة أخيه زوجة لسيد القبائل الذهبية نوخاي ، وهكذا أصبح مؤسس أسرة ( الباليولوجي ) ( وهو ميخائيل الثامن ) قادراً على التغلب على جميع الصعوبات التي واجهته ، وأدار دفة سفينته بسلام بين صخور القوى المتصارعة .

ولقد كانت السياسة الخارجية التي اتبعها ( أباقا ) تعكس حالة البُنية الداخلية للملكة ، فالدوافع التي كانت تحرك لويس التاسع ملك فرنسا ( القديس لويس ) ومعه البابا لإقامة تعاون وثيق مع الإلكخانات لم يكن لها أي علاقة بالتوترات السياسية في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، تلك التوترات التي لم يستطع حكام تبريز أن يحركوا ساكناً تجاهها ، ما داموا لا يملكون الأمر والنهي في سورية ، فالأبرشيات الرومانية كانت تعتبر الإلكخانات الأعداء العنيدين للمماليك ، وهؤلاء أي المماليك كانوا الأعداء الألداء للدويلات الصليبية في الشرق ، وكانت آمال العالم المسيحي باحتواء الهلال الخصيب تعتمد على المساعدة التي يمكن أن يقدمها الإلكخانات في هذا المضمار ، أي في النزاع ضد مصر ، وقد عبَّر عن هذه الفكرة بطلاقة عدة كتاب أوروبيون غربيون معاصرون وأيضاً في كتاب « تاريخ بلاد الشرق » وهو رواية معاصرة ، ووصف لتلك الأزمنة كتبها هيتوتوس وهو أحد أمراء أرمينية الصغرى ، وتظهر هذه المؤلفات بوضوح آراء الأبرشيات الرومانية المتطرفة والمضللة أيضاً ،وعلى هذا، وبناء على تقارير مضللةمن هذا النوع بدأ

البابوات يتبنون ولعدة سنوات الاعتقاد أن باستطاعتهم كسب الإلكخانات بتحويلهم الى الديانة المسيحية، وهكذا يحققون ذلك الحلم الذي كان يداعب خيالهم في العصور الوسطى بظهور « يوحنا الشرقي[1] » أي رجل الدين الذي يملك ثروات خيالية ، ومنذ وصول أول خبر عن قدوم المغول ، عمد البابا غريغوريوس التاسع والبابا إنسنت الرابع إلى فكرة الاعتماد على عساكر هذا الملك الخيالية ( أي ملك المغول ) في كسر شوكة الإسلام ، وجعلوا هذا هدفاً من أهدافهم التي يرجون تحقيقها ، ولكن بعد أن انحسر مد الفتوحات المغولية ، ظهر للعيان أن المغول ليسوا مسيحيين ، ولم يحققوا الأمل المعقود على وجودهم ، إلاّ أن المسيحيين في الغرب لم يفقدوا تلك الآمال نهائياً بل بالعكس كان التخطيط الأساسي أن يسعوا بكل قوتهم لتحويل الإلكخانات إلى « يوحنا الشرقي » ( وهو رجل الدين ، الطائل الثراء والغنى ) ، وهكذا بذلت الجهود المضنية لكسب الحكام المغول دون جدوى ٠

ومع أننا إذا نظرنا من وجهة نظر حديثة نجد أن هذه المساعي كانت إلى حد ما غير مأمونة العاقبة ، إلاّ أننا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ظروف ذلك العصر ، فالمغول كانوا بصورة عامة أمة مسيحية ، ( عدا أولئك الذين تمسكوا بالديانة الشامانية[2] ) ، حتى ولو لم تكن عقائدهم النسطورية التي

---

(١) ترتبط فكرة ظهوره بشخصية « المهدي المنتظر » في الأدب المسيحي الوسيط ، وتنبع من أسطورة رحلة بوذا من المشرق ، وسواها من الأساطير ، فعندما وصلت إلى أوربة أخبار ظهور جنكيز خان وحروبه ضد المسلمين راجت اشاعات قوية هناك بأنه « المسيح المنتظر » الذي سيأتي من المشرق ٠ س٠ز ٠

(٢) الديانة الشامانية ديانة بدائية ، أخذت بها عدة شعوب بدائية ، ودعيت حين صنفت الديانات حديثاً بهذا الاسم ، لأن رجل الدين فيها في سيبيريا يدعى « شامان » ، والشامان هو عماد العمل الديني مع العقيدة ، ويتم اختياره سماوياً أو من قبل شامان سابق ، ويخضع لتدريبات خاصة ، ويمارس مع وظيفة رجل الدولة ، وظائف الساحر الطبيب ، والمشرع الحاكم ، والسياسي أحياناً ٠ من أحسن الدراسات عن هذه الديانة كتاب الشامانية تأليف ميركيا ايليادي س٠ز٠

اعتنقوها لا تتفق تماماً مع عقائد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وعندما غزا الإلكخانات بلاد ما بين النهرين واحتلوها ، ثم غزوا سورية وأظهروا صداقتهم وودهم للمسيحيين مع خصومتهم وعدائهم للمسلمين ، بل كان اعترافهم بالمجتمعات والكنائس النسطورية واليعقوبية في أماكن تواجدها عاملاً في جعل الديانة المسيحية ذات حظوة ونفوذ في بلاط الإلكخان ، وفضلاً عن وجود ( دوقوزخاتون ) المسيحية زوجة لهولاكو ، كان هنالك عدة أميرات مسيحيات نسطوريات ، كما أن إحدى زوجات ( أباقا ) كانت أميرة بيزنطية احتفظت بعقيدتها الأرثوذكسية في تبريز ، وفوق ذلك فقد كان اثنان من الإلكخانات مسيحيين في شبابهما ، ولهذا فقد كان واضحاً أن المسيحية ولو بشكل نسطوري سوف تنتصر في النهاية ، وكان الأمل وطيداً في روما أن تقتنع الكنيسة النسطورية بالانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية العالمية .

ومما زاد تفاؤل الغرب من هذه الناحية هو أن الإلكخانات لم يكن لديهم أية رغبة باعتناق الدين الاسلامي ، ذلك الدين الذي كان معتنقاً من قبل معظم رعاياهم ، وكان المسلمون منقسمين على أنفسهم بشكل واضح في ايران ومنطقة ما بين النهرين ، الأمر الذي جرى للمسيحيين من قبل ، فالسنّة والشيعة وقفاً وجهاً لوجه في عداء سافر ، ولم يتورع الشيعة عن الاستفادة من نهب بغداد ، ومن المناسبات الأخرى وذلك لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبين أهل السنّة ، وهكذا بدأوا يبنون لأنفسهم تنظيمات خاصة وينشطون في نشر عقيدتهم بين أهل السنّة الذين كانوا يتفوقون عليهم عددياً ، وأما موقف الإلكخانات فلم يعد متشدداً في تأييدهم للعقيدة ( الشامانية ) أو اللامبالاة بالنسبة للاديان بصورة عامة ، كما كانت الحال أيام الخانات العظام الذين حكموا في قره قورم ، بل أصبح ميلهم الآن واضحاً تجاه تأييد الديانة البوذية كما رأينا ، وقد رأينا أن ( أباقا ) كان خلال حكمه بوذياً ، وكان يشجع انتشار هذا الدين بين أمراء بلاطه وبين شعبه بصورة عامة ، وقيل أنه شيد كثيراً من المعابد البوذية في عدد كبير جداً من المدن

الايرانية وحتى في بعض القرى ، وإن الأخبار الواردة عن هذه الإجراءات تأتي من مصادر مسيحية واسلامية على حد سواء ، وهي دون شك تشوّه الحقـائق ، وفي معظم الأحـوال تحـاول تلك المصـادر أن تسجل بعض الحوادث والقصص المؤذية السيئة حول البوذية دون أن تعطي أية صورة حقيقية عن الوضع الراهن آنذاك الذي لا يمكننا فهمه على حقيقته إلاّ بانتقاد هذه المصادر وتمحيصها ، وبذلك يمكن أن نستنتج الواقع قـدر الامكان ، وعلـى كل حال فقـد كان وضع الديانـة البوذية في اقـاليم ( الإلكخانات ) محاطاً بالعزلة التامة ، بحيث لم يكن هنالك أمل بفرضها على جماهير الشعب ، وقد كان ( أباقا ) بالحقيقة متمسكاً بمبدأ التسامح الديني والحرية الدينية التي كان يشجعها أجداده وخصوصاً جنكيز خان في الياسا وعلى العموم فقد تمتعت جميع الأديان بالحرية التامة وقد أعفي جميع رجال الدين من كافة الملل والنحل من الضرائب ماعدا (رجال الدين) اليهود الذين كانوا يدفعون الضرائب بصورة خاصة في جميع أجزاء آسية الوسطى والغربية ، وقد كان تسامح ( أباقا ) الديني صادراً عن روح المستبد المستنير ، فهو كان يرى على ضوء الوضع الراهن لدولته آنذاك بأن مثل هذا التسامح هو ذريعة ووسيلة ضرورية لادارة السياسة الداخلية في البلاد ، فمن وجهة نظر المسلمين كان البوذيون مؤمنون اشرار وعبدة أوثان ، وكانت خطط ( أباقـا ) السياسية تقابل بالمقاومة الشديدة من قبل المسلمين الذين كانوا يتوجسون خيفة من التشجيع الذي كان يظهره ( أباقا ) للبوذيين ، هذا التشجيع الذي كان يعني الشي الكثير بالنسبة إليهم ، وقد كان ( أباقا ) يرد التحية بمثلها أو بأحسن منها ، بزيادة مضايقة المسلمين حيث كان ذلك ممكناً ، وكان يفعـل ذلك بسهولة أكثر عند تأييده المجتمعات المسيحية الكثيرة العدد أيضاً ، وتأمين حريـة التبشير بدينهم ونشاطهم الدعوي ، وكانت هذه الفترة هـي العصر الذهبي الأخير بالنسبة لليعاقبة والنساطرة فقد تجددت كنائسهم وانتشرت

بعثاتهم التبشيرية ، وجنى الأدب السرياني أنضج ثماره التي مثلتها العلوم الموسوعة للأسقف اليعقوبي الشهير غريغوريوس ابن العبري الذي توفي عام ١٢٩٦م ٠ كما وأنتج النساطرة بعض الأدب القيم ، وكان تعاونهم مع الحكومة متيناً إلى حد أنه عندما توفي بطريركهم سنة ١٢٨١ ، انتخبوا خليفة له راهباً ايغوري الأصل كان عمره ٣٥ سنة ، وقد حمل لقب يابهالاها الثالث ، ومع أنه لم يكن بارعاً بالعلوم اللاهوتية السريانية ولا بالعربية الفصحى ، إلاّ أنه نال الحظوة في البلاط بسبب انتمائه للأمة السريانية وهكذا حصل على ثقة وعطف ( أباقا ) ، وقد استغل مركزه استغلالاً جيداً لمصلحة كنيسته التي وصلت في نفوذها وهيبتها إلى الأوج ٠

إن نظام الحكم هذا الذي ظهر أنه يؤيد المسيحية بجلاء تام قد أثار حماساً وآمالاً كبيرة في أوروبة الغربية ، وقد تتبعت القوى الأوروبية المختلفة هذا التطور باهتمام تام ، فازدهرت تجارتهم مع ايران وكانت الطرق التجارية تمر بمملكة أرمينيا الدنيا الصديقة ، وظهرت مؤسسات تجارية للايطاليين في تبريز تلك المدينة التي خدمت كسوق تجاري للبضائع القادمة من أواسط آسية والشرق الأقصى ، وكانت السفن الصينية تبحر قادمة إلى الخليج العربي وتجلب البضائع من أقطار الخان الأعظم ، بينما حافظت القوافل البرية على خط سيرها خلال أراضي المملكة المتوسطة إلى ما وراء النهر حسبما كانت تسمح به الأحوال السياسية ، وكلما كان ( الإلكخانات ) على وفاق تام مع الخان الأعظم « قوبيلاي » كلما ازداد ازدهار التجارة نظراً للاهتمام المتبادل بهذه الشؤون ، هذا وقد ازدهرت الفنون أيضاً بسبب الهدايا المتبادلة بين البلاطين، زد على ذلك ما كانت تتطلبه الرحلات الطويلة للأميرات الصينيات الفتيات عندما كنّ ينتقلن ليصبحن عرائس للامراء في البلاط الفارسي ، وما يرافقهن من الخدم والحشم[1] ، وكان الخان الأعظم يرسل باستمرار ممثلاً له إلى

---

(١) مثل الأميرة التي صحبها ماركو بولو وحرسها من بلاد الصين إلى بلاد العجم عن طريق هرمز عام ١٢٩٢ ــ ١٢٩٤ ٠

تبريز ، وهذا الممثل كانت له صفة استشارية ، ولكنه كان يشغل دوراً لا بأس به من وراء الكواليس وخصوصاً عند اعتلاء ( الإلكخان ) الجديد العرش حين يظهر وقتها لهذا المبعوث دور دستوري هام أيضاً ، هذا وهنالك بعض الروايات تشير إلى وجود علاقات تجارية مع الهند أيضاً .

وكان التسامح الديني وإتساع الأفق والتفكير لدى الإلكخانات في الشؤون التجارية الخارجية متماشياً مع السياسة الداخلية والادارية لديهم أيضاً ، إذ نرى اهتمامهم الشديد باتخاذ خطوات لتشجيع الصناعة والزراعة ، مع أنه ليس لدينا تفاصيل من المؤرخين المعاصرين عن هذا المضمار ، وكذلك فقد أنشأوا نظاماً إدارياً ممتازاً لأقاليمهم ، وكانت الظاهرة الرئيسية في هذه الأنظمة الإدارية هي المعاملة الخاصة التي منحت من قبل الفاتحين للولايات التي خضعت لهم دون مقاومة أو إراقة دماء ، وكانت عادة المغول أن يطلبوا استسلام حاكم الدولة قبل أن يعلنوا الحرب عليه ، فبينما نرى ملوك الشرق الأوسط في غالبيتهم يختارون القتال ثم يخضعون ، وجد حكام آخرون أقل شأناً ، وافقوا على الخيار الآخر وهو الخضوع الطوعي ، وهذا كان لمصلحتهم بالطبع ، ولأسباب مناخية نجد أن المغول لم تجتذبهم منطقة جنوبي ايران وهكذا بقيت عدة أسر ملكية فارسية تحتفظ باستقلالها وحكمها الذاتي في تلك المناطق ، ونخص بالذكر حكام منطقة فارس وكانت قاعدة حكمهم في شيراز ، حيث عاش الشاعر والأديب سعدي الشيرازي وكتب ونظم شعره وقد توفي عام ( ١٢٩١ م ) ومثلهم كان أحفاد براق الحاجب وهو الوزير الذي كان في خدمة قرا خطاي في كرمان ( ١٢٢٢ ــ ١٣٠٣م ) ، وكذلك جزر الخليج العربي وقاعدتها هرمز وقد خضعت هذه الدول ومعها عدد من الامارات الصغيرة في جبال ( زاغروس ) ومازندران وأصبحت هذه الأمارات مع أرمينية الصغيرة ، وإمارات جورجيا تدفع الجزية للمغول نقداً أو عيناً ، وقد كانت هذه الدويلات تعمل جاهدة لتبني نفس السياسة التي يتبعها المغول ، وكان عليهم أن يمدوا المغول بعدد من جنودهم في زمن

الحرب ، وقد اعتبر المغول الجيش الآتي من جورجيا جيشاً مثالياً محترماً ، كما أن المغول أظهروا ميلاً وولعاً بالجورجيين بسبب قدرتهم العسكرية ، ولكونهم الحراس الطبيعيون للحدود القوقازية ، ومقابل ذلك فقد سمح لهذه الدويلات بالتمتع بقسط وافر من الاستقلال في شؤونهم الداخلية والمالية ، وكان باستطاعتهم تقرير شؤونهم العسكرية دون تدخل المغول ، وقد حدث مرة أن أميرة فارسية تزوجت أميراً مغولياً عام ١٢٨٤ ، وبذلك أصبح لهذا الأمير الحق في وراثة العرش ، وهكذا تولى المغول مقاليد السلطة المباشرة في تلك المنطقة ، والأسرة الوحيدة التي ناضلت ضد النير المغولي وضد الإلكخان هي أسرة الكورت وهم أمراء هراة الذين كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي عريض وشهرة حربية قتالية رائعة ، وقد تحسن وضعهم لقربهم من حكام منطقة ( ما وراء النهر ) الذين كانوا حلفاءهم الطبيعيين ضد ( تبريز ) ، وقد كلف اخضاع هذه المناطق المغول جهداً عظيماً وحملات كثيرة مني قسم منها بالاخفاق فالرطوبة والحرارة التي تمتاز بها منطقة شواطىء بحر الخزر الجنوبية ، جعلت تقدم الفرق المغولية أمراً صعباً للغاية ، الأمر الذي واجهه الخلفاء العباسيون في العصور الماضية •

وبالنظر للظروف الخارجية التي احاطت ( بأباقا ) عندما سعى لإبقاء التماسك في البنية الداخلية لبلاده وما لاقاه من صعاب ، فإننا نعتبر هذا الرجل بدون تردد رجلاً ذا وزن ومكانة ومنزلة ممتازة ، فرغم الخصومات والأحقاد التي أثارها باتباعه تلك السياسة الدينية المتحيزة ، إلا أنه استطاع أن يحتفظ بوحدة ذلك الاقليم الذي ورثه عن والده ، ولكنه كان كلما تقدم به العمر كلما أمعن بالشرب فأصبح مدمناً ، الأمر الذي أدى إلى ازهاق روحه ، وهو في حالة غيبوبة كحولية في ١ نيسان عام ١٢٨٢ •

وقد كان موته خسارة فادحة للنظام الذي أصبح مفتقراً لليد القوية لتقوده إلى بر الأمان وفوق ذلك فلم تكن مشكلة الوراثة قد حُلت بعد ، ولهذا فقد استلم السلطة نيكودار أخو الإلخان المتوفى ، وكان

رجلاً ضعيفاً مهتماً بالروحانيات ، وقد وجد طريقه بايمانه الخالص إلى الإسلام ، وقد أعلن اعتناقه الاسلام حالما استلم السلطة ، واتخذ لنفسه اسم ( أحمد ) ، وكان الحاكم الجديد يتمتع بقسط من الذكاء جعله يستغل تحوله إلى الاسلام في محاولة للتقرب من المماليك وطلب التحالف معهم ، ولكن المفاوضات تعثرت لأن المصريين طلبوا ضمانات ، لأنهم أدركوا أن رجال الطبقة الحاكمة والمتنفذة في دولة المغول الفارسية ليسوا متحمسين لتقليد سيدهم في تغيير دينهم ، زد على ذلك ان ابن (أباقا) المدعو (أرغون) أخذ يطالب بالعرش من البداية، وكان يتمتع بدعم وتأييد الجماعات البوذية المتطرفة، وهكذا كان حكم ( أحمد ) من البداية مهدداً بالقتال والصعوبات الداخلية التي أدت إلى سقوطه بعد سنتين ومن ثم موته عام ١٢٨٤ م .

استلم السلطة ( أرغون ) الظافر ، وكان شاباً متحمساً بطلاً من أبطال البوذية ، وكان عهده عهد محنة للمسلمين الذين لاقوا الأمرين على أيدي البوذيين المنتصرين وجعلهم يتعرضون للضغط والظلم الذي لم يشهدوه حتى في عهد ( أباقا ) الراحل ، وأما ( أرغون ) فكان رجلاً تعوزه المقدرة على فهم الطاقة المالية لبلاده ، فقد رغب في الحصول على أكبر كمية من الأموال من شعبه بشكل خيالي ، وقد عهد بشؤون الجباية والضرائب إلى طبيب يهودي ، كان قد اشتهر في منطقة ما بين النهرين باسم ( بالموظف الصلب ) ، وذلك لنجاحه بجباية كميات هائلة من الأموال بأساليب ابتزازية صرفة . وقد تمتع هذا الوزير بثقة وحب واحترام أرغون فأنعم عليه بلقب ( سعد الدولة ) ، وقد بدأ هذا الوزير بظلم الاقاليم إلى درجة فظيعة ، وعيَّن أقاربه حكاماً وولاة في كل مكان ، وكان ( أرغون ) يشعر بعدم الثقة تجاه المسلمين من شعبه ، لذلك أطلق لوزيره العنان ، بينما عمد هو إلى الانقطاع عن الاتصال بالعالم الخارجي تاركا الأمور تجري على هوى وزيره ورجاله ، وكانت النتيجة أن نشبت عدة ثورات قاسى اليهود خلالها في بعض المدن من الانتقام الذي قام به المسلمون نتيجة لسياسة الوزير الخرقاء ، وهكذا

اضطرت الدولة إلى الاعتماد على ثقة كل من اليهود والمسيحيين تعويضاً عن سخط المسلمين •

والحقيقة أن أرغون ونظامه كانا محظوظين، فلم يحدث سوى اصطدامين مع القبائل الذهبية ، وظلت الحدود بينه وبين المصريين وما وراء النهر هادئة آمنـة ، وهكذا استطاع أن يخمد الثورات الصغيرة التي نشبت في المنطقة الشرقية ، وجورجيا دون أية مشقة ، ولكن المشاكل العامة المزمنة لـم يكن بالامكان تلافيها بسهولة ، ففي أثناء انفجار سورة الغضب ضد اليهود في شيراز مات ( أرغون ) في ٩ آذار عام ١٢٩١ بتأثير جرعة من الدواء السام ، الذي وصفها له أحد الكهنة البوذيين ليتناولها مدى الحياة ، وبينما كان على فراش الموت اعتقل وزيره ( سعد الدولة ) اليهودي وتم إعدامه •

لم يكن أمر اختيار خليفـة ( لأرغون ) سهلاً ، فـلم يستطع الامراء والاعيان اختيار أحد أخوته وهو كيخاتو إلا بعد كثير من التردد ، وكان هذا حاكماً عاماً في آسية الصغرى وبعدها دخل العاصمة بصفتـه المرشح المختار ، وكان اختياره متسماً بسوء الحظ لأنه كان أضعف من أخيه ، وكان خرعاً لا عزيمة له ، فكان يجزع من معاملة الثوار ضده معاملة قاسية ، وكذلك المجرمين لأنه كان يكره أن يكون سبباً في إعدام أي شخص ، وفي محاولة له لأنقاذ ما يمكن انقاذه بعد الوقوع في الأزمة المالية الخانقة التي خلفها لـه ( أرغون ) ، عمد إلى اتباع ما صنعه الصينيون قبله وهو وضع عملة ورقية ، فقد أمر بطبع أوراق مالية ورقية من عدة فئات مكتوبة باللغـة والأحرف الصينية والفارسية والمغولية ، ووضعها في التداول المحلـي بشكل قانوني اجباري[1] ولكن الشعب في ايران رفض استعمال هـذه العملة الورقيـة غير المألوفة وهكذا أخليت الاسواق ، واختفت المؤن من المدن ، وأصبح الريف مبتلى بغزوات اللصوص وقطاع الطرق بأعداد كبيرة ، وقد توقفت الحياة

---

(1) Karl Jahn, Das Iranische Papiergeld, In Archiv OrientalNi , X . ( Prague 1935 ) P.P. 308 - 340 .

العادية تماماً مما سبب إلغاء هذا التدبير بعد ستة أشهر ، وأما في المقاطعة الشمالية الشرقية وهي خراسان حيث كان الحاكم ( غازان ) بن ( أرغون ) الأكبر فلم يحاولوا أبداً فرض هذا الاجـراء غير الناجح ، وهكذا بـدأت الأحوال المالية للبلاد في التخبط من سيء إلى أسوأ ، وتعرّض نظام كيخاتو إلى ضربات في القوقاز ، ولا عجب إذا رأينا عام ١٢٩٥ ابتداء العصيان العام الذي جسد الغضب ضد تخاذل السلطة والاحتجاج لانقسام آراء الأمة . وفي أثناء العقد الماضي بدأ الاسلام بالانتشار بصورة واسعة بين المغول ، وحتى بين أفراد الأسرة الحاكمة ، فقد أصبح عدد من الأمراء يميلون إلـى تعاليم الاسلام ويعطفون عليها ، وهكذا أصبحت الميول القديمة والحديثة تتصارع وجهاً لوجه ولكن جميع القوى اتحدت ضد حكومة ( كيخاتو ) الذي أقصي عن العرش في شهر آذار عام ١٢٩٥ ، وبعدها أعدم ، ولكن خليفته وهو أحد اقاربه البعيدين ويدعى ( بايدو ) لم يستطع أن يصمد طويلاً وكان ( بايدو ) هذا زعيماً للعناصر البوذية وبعد بضعة أشهر اضطر للخضوع والانسحاب ، وفي ٩ تشرين الثاني عام ١٢٩٥ اعتلى العرش في تبريز ( غازان ) وهو في الرابعة والعشرين من العمر .

لقد كان اعتلاء غازان للعرش نقطة فاصلة في تاريخ دولة المغول في ايران لأنه حالما اعتلى العرش اعلن عن اعتناقه للديانة الاسلامية رسمياً ، وقـد بقي جميع حكام إيران الذين تلوه مخلصين لهذا الدين ، وعندما أصبح غازان مسلماً كان عليه أن يختار إما أن يكون من أهل السنة أو من الشيعة ، فاختار أهل السنّة وهذا هو المذهب الذي اعتنقه جميع أفراد الشعب تقريباً ، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح ولم يظهر أي تعصب أعمى كان يتسم بـه أهل السنة غالباً في معاملتهم للشيعة في خلال التاريخ الاسلامي ، وقد طمأن الشيعة بالتسامح واتبع ذلك الموقف المغولي القديم وهو ( عِشْ ودع الآخرين يعيشون ) ، ولكن الحقيقة أننا لا نعدو جادة الصواب إذا قلنا أن ( غازان ) كان في داخله يضمر الصداقة والحب للشيعة رغم إعلانه نفسه من

أهل السنة ، فقد كان يؤيد بنشاط كثيراً من المؤسسات الشيعية ويزور عتبات كربلاء المقدسة ، غير أن وضع البوذيين من ناحية أخرى أصبح مهدداً باعتناق غازان للاسلام ، إذ أن نسبة كبيرة من المغول قد اعتنقوا الاسلام ، وتبعهم غيرهم ، وهكذا لم تعد ترتفع أية قوة لتأييد ودعم البوذية ، فقد حُولت المعابد البوذية إلى مساجد، وأعيدت الأملاك الاسلامية السابقة إلى أصحابها ، وقد جُرد الكهنة البوذيون الذين لم يبق منهم إلاّ القليل في البلاد من امتيازاتهم السابقة ، وأما المسيحيون فقد نالهم قسط من العذاب إذ كان عليهم أن يكفّروا عما جنت أيديهم من التجاوزات بتحمل الاضطهاد على أيدي مواطنيهم المسلمين المحيطين بهم ، وقد ازدادت حدة هذه التحرشات ، حتى أن غازان نفسه فكر بالتدخل ومنع أية مضايقات تحدث في المستقبل ، وهكذا انتهى نفوذ البطريرك النسطوري يابهالاها الثالث في البلاط ، وأودع هذا البطريرك في السجن ردحاً من الزمن ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجنب كنيسته أفدح الأخطار التي كانت تهددها ، ولكن أهمية النسطورية أخذت في الذبول والخمود ، حتى في موطنها الذي ولدت به ، فأفراد الطائفة النسطورية تحول بعضهم إلى الاسلام ، أو انسحبوا وسكنوا في الجبال الجرداء شمال الفرات الأعلى ، حيث لا تزال الكنيسة النسطورية صامدة حتى هذا اليوم ، هذا وقد تحول معظم المغول إلى الديانة الاسلامية بعد عقدين من الزمان ، وعندما اعتنقوا الاسلام أصبحوا يشاركون الأتراك في إيران دينهم ، وكان هؤلاء كثيري العدد ، وقد اعتنقوا الاسلام منذ عهد طويل فعندما أصبح هذان الشعبان على دين واحد انصهرا في بوتقة واحدة وأصبحت اللغة التركية لغتهم المشتركة ولسانهم اليومي ، وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، بدأت القبائل التركية ومعها بعض القادمين الجدد ، والتي تؤلف العمود الفقري للعناصر التي تتكلم اللغة التركية في بلاد ايران تتخذ شكلها المحدد الحالي ، وأصبحت مقاطعة أذربيجان المركز الرئيسي للاستيطان التركي المغولي ، وذلك بصفتها مقر قوة ( الإلكخانات ) ، وبقيت تتكلم اللغة التركية

منذ ذلك العهد ، فاختفى الكلام باللغة المغولية ، وحلت محله اللغة التركية ، ولهذا فإن أي ذكر للدولة المغولية في إيران من الآن فصاعداً يجب أن يعالج بحذر وتحفظ .

وأما في بلاد المشرق فقد كان للتطورات الدينية سمات سياسية طويلة الأمد ، ولم تكن الحوادث التي ذكرت إلا احدى مظاهرها ، والحقيقة أنه ما كان يصح ( لغازان ) أن يتخذ مثل هذا القرار الجريء الذي اتخذه ، لولا موت « قوبيلاي » الخان الأعظم في بكين عام ١٢٩٤ ، وهو الرأس المبجل للامبراطورية المغولية العالمية ، والذي كان الإلكخانات يدينون له بالطاعة وصلات القربى ، وعندما خلا مركز قوبيلاي فقد النظام المغولي كل تماسكه ، فحفيده الذي ورث العرش في الصين ، كانت تعوزه مواهب جده ونشاطه ، وهكذا فصمت عرى الوحدة بين الحكام المغول ، ولم يعد اسم الخان الأعظم يظهر عند ضرب النقود في بلاد ايران ، ولم يعد هناك أي مفوض سامي مغولي للخان الأعظم يتمركز في تبريز كما كان سابقاً ، ونبذ حكام ايران لقب الإلكخان ، وأصبحوا يعرفون باسم ( الخان ) ، ولم تعد السياسة الدينية تتشكل حسب رأي السادة البوذيين ، ولكن كان السفراء لا يزالون يرسلون من بلد لآخر ، وظل ملوك ايران يحتفظون ببعض الاقطاعيات في الصين ، ولكنها كانت هي الروابط الوحيدة والأخيرة بين الفريقين ، أما العلاقات مع أوروبا الغربية فقد تأثرت بشكل تدريجي بتحول ( غازان ) إلى الدين الاسلامي ، فقد كان الخان حريصاً على استمرار نشاط البعثات التبشيرية الغربية في بلاده ، وسمح لأعيان الطائفة النسطورية بأن يظلوا على حماس واتصال مع الغرب ، وقد نجح في إخفاء وضعه وأغراضه الحقيقية ، إلى درجة أن أحد المؤرخين وهو ( هايتونوس ) ذكر في كتاب أصدره حوالي عام ١٣٠٠ م ما يشير إلى أن ( غازان ) كان بطلاً عظيماً عمل ضد مصر المسلمة ، وعبر عن ثقته بأن هذا « الصديق المخلص للمسيحية » سوف يحرر بيت المقدس ، ويعيدها للمسيحيين ، وترى نفس الفكرة في مخطوطة وجدت في إحدى كنائس روما .

وبالاضافة إلى انتهاج سياسة جديدة في المجال الدولي ، فقد أظهر هذا الحاكم الشاب نشاطاً وقدرة شديدتين في حقل الاصلاحات الداخلية ، وكانت أولى واجباته أن يعيد بناء الاقتصاد الوطني الذي تقوضت دعائمه خلال حكم ( أرغون ) و ( كيخاتو ) وخلال الحروب الأهلية الأخيرة ، ولهذا اختار ( غازان ) عدداً من المستشارين منهم الوزير ( علي شاه ) و ( رشيد الدين فضل الله ) ، وكان هذا الأخير طبيباً ، ومن المحتمل أنه من أصل يهودي[1] وقد اشتركا مع سيدهما في سن قوانين تنظم جميع قطاعات الحياة العامة في البلاد ، فأعيد تنظيم النظام الاقتصادي ، ووضعت تنظيمات جديدة لجباية الضرائب والنفقات العامة ، وقد أعيد تخمين الضرائب المستحقة على كل ولاية من الولايات التي كانت تدفع ما عليها عدّاً ونقداً ، أما المناطق المظلومة في تقدير الضرائب عليها والتي كانت قد أرهقت فقد أجلت الجباية فيها إلى آجال بعيدة ، وأعيد أيضاً تخطيط الحدود بين الولايات ، ووضعت قوانين جديدة للادارات ، اما في مجال القضاء فقد اتبعت الشريعة في الاسلامية في نصوصها التشريعية والقانونية بدلاً من تعاليم ( الياسا ) المغولية القديمة ، ثم أعاد ( غازان )

---

(١) من أشهر رجال الادارة المغولية ، لا نعرف سنة ولادته ، إنما أعدم « في السادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٩ م في قرية اسمها جوسقدر تقع غير بعيد من تبريز » ، ثم حملوا رأسه إلى تبريز وطافوا شوارعها وهم يصيحون : « هذا رأس اليهودي الملعون الذي حرف كلام الله » .
وتتأتى شهرة رشيد الدين ليس من عمله الاداري ولا من اختصاصه بالطب ، إنما تنبع من اسهاماته الثقافية باخراج كتاب بالتاريخ دعاه « جامع التواريخ » وكتبه بالفارسية والعربية بالوقت نفسه ، واعتمد في هذا الكتاب على الوثائق المغولية في التأريخ لما قبل غازان ، ولهذا الكتاب مسحة تأريخية عالمية قلما نجدها عند غيره من المؤرخين ، وزين هذا الكتاب بلوحات فنية رائعة صنعها فنانون صينيون أو متأثرون بالفن الصيني ، ونشر الكتاب باللغة الفارسية في ثمانية مجلدات ، واخبرت أن النسخة الأصلية الفارسية كانت محفوظة في خزانة الامبراطور الايراني الأخير ، وبالنسبة للنسخة العربية فهي موزعة بين عدة مكتبات عالمية : أياصوفيا ، المتحف البريطاني ، كمبرج ، مانشستر ، وأملك نسخة مصورة من هذا الكتاب جمعتها من هذه المكتبات ، هذا وقد ترجمت أجزاء من الفارسية إلى العربية في القاهرة .س.ز

تنظيم البريد ، وعمل على الاسراع في تنقل المبعوثين الرسميين الذين منعت إساءاتهم بمصادرة المؤن والأطعمة منعاً باتاً ، وقد امتدت اصلاحاته إلى الأعمال الخيرية العامة بما فيه المؤسسات الخيرية المدعوة ( بالأوقاف ) ، التي وجدت في الولايات للقيام بأعمال أكبر في الاحسان ، وقد اتخذت الاحتياطات والتدابير الضرورية لإعالة الشيوخ والمسنين وذوي العاهات وإغاثة المحرومين، وحتى رعاية الحيوانات ، واذا كانت الأخبار الواردة عنه صحيحة فقد قيل انه لم يهتم بالشؤون العسكرية التي اعتبرها أقل أهمية من غيرها من الاهتمامات ، ومع هذا فقد شهد حكمه بعض الحملات في سورية ( ١٢٩٩ ــ ١٠٢٣ م ) وبعض الثورات والتمردات في جورجيا ، وقد أخمدت هذه جميعاً ، وعندما عرضت عليه القبائل الذهبية التي كان حاكمها لتوه قد واجه أزمات داخلية حادة وتغلب عليها عندما عَرَضَت عليه أن يتخلى عن القوقاز رفض ذلك رفضاً باتاً وبدأ بالاستعداد لصد أي هجوم عليه من الشمال ، وهكذا كان حكم غازان مفعماً بالنشاط المتواصل والمتعدد النواحي، ولكن القدر لم يمهله حتى يتم أعماله وبرامجه ، ففي اليوم الثلاثين من شهر أيار عام ١٣٠٤ توفي ذلك الأمير الشاب وهو في الحادية والثلاثين من العمر والذي يعد ألمع أمير مغولي حكم ايران بعد هولاكو .

خلف ( غازان ) في الحكم أخوه ( أولجاتيو ) ، الذي اتخذ لنفسه إسماً إسلامياً إيرانياً وهو ( خدابنده ) ، وقد كان مسيحياً في صباه ، ولكنه كان من نوع آخر ، ومع أنه لم يكن يعوزه النشاط والحيوية ، غير أنه ترك الأمور الداخلية تراوح مكانها حتى لم يبق إلاّ القليل من إصلاحات غازان الداخلية الممتازة ، فأخذت الأعمال السيئة والفساد يطل برأسه ثانية في الأعمال الادارية والحكم ، رغم أن وجود وزراء ( غازان ) حال دون فداحة الأمور وتردي الأحوال كلياً ، أما في الأمور العسكرية فقد أظهر أولجاتيو نشاطاً أعظم من نشاط سابقه ، فقد دحر كثيراً من الغزوات في القوقاز وسورية وأخمد بمهارة وبقوة خارقة أكبر تمرد ضده كانت تدعمه جماعات ما وراء

النهـر في ( هراة ) ، ولكن محاولته لفتـح ( مازاندران ) باءت بالاخفاق وأجهضت ، وذلك بسبب المناخ الحار الرطب في تلك المنطقة .

ومن الملاحظ أن ( أولجاتيو ) كان له تذوق للعلوم والفنون ( كغازان ) من قبله ، ومع أنه لم يكن لأي من الحكام المغول أي باع في هذا المضمار ، إلاّ أن هذين الأخوين قاما بخدمات جلّـى في تشجيعهما العلوم والفنون وتأييدهما لها ، فقد اهتما بالتأريخ ، وذلك لأن هذا الفرع من العلوم كان يخدم في إعلاء شأن الحكام وخصوصاً الأسرة المغوليـة ، فالأدب الفارسي مدين للمغول في حمايـة وتبني كثير من المؤلفات التي منها تواريخ الوزير رشيد الدين المذكور آنفاً ، وفي هذه المؤلفات نرى إشارات إلى السجلات المغولية ، وذكر حقائق شيقة عن العالم الغربي ، ومن المحتمل جداً أن يكون لرشيد الدين أعوان اشتركوا في التأليف في أجزاء هامة من الكتب وهكذا يجب علينا أن نلهج بالشكر إلى حكام المغول الذين بفضلهم استطعنا أن نحصل على تلك المعلومات المفصلة عن تلك الفترة من تاريخ بلاد ايران ، وعندما تقرر نقل العاصمة في ايران إلى مدينة ( السلطانية ) قرب قزوين ، بدأ الفنانون يتبارون في تزيينها ، وهكذا تمت انجازات فنية جديدة توّجت الاسلوب ( الإلكخاني ) في بلاد ايران في فن البناء وتميزت بالأبراج المثمنة .

لم يُقدّر لبلاد ايران أن تنعم بالسلم داخلياً تحت حكم ( اولجاتيو ) فهذا الحاكم الجديد الذي أعلن انضمامه لأهل السنة مع أخيه ، عمد إلى دمج مذهبين من مذاهب السنة والجماعة بعضهما مع بعض ، ثم عاد وتحول إلى المذهب الشيعي عام ١٣١٠ ، أو حوالي ذلك التاريخ ، وفي هذا الوقت كان عدد الشيعة قد ازداد في بلاد ايران وما بين النهرين ، وسرعان ما تحسن وضعهم واستقر لهم الأمر نهائياً ، وعاد الرهبان البوذيون وحاولوا استمالة الخان إلى دياناتهم ، فذهبت محاولتهم أدراج الرياح، بل تسبب ذلك في طردهم نهائياً من البلاد ، وقـد سبب اعتناق الحـكام للمذهب الشيعي كثيراً من الاضطرابات لأن ذلك الاعتناق سبب انقلاب موازين القوى بين المجتمعات

الدينية ، وأثر على العلاقات مع مصر تأثيراً خطيراً ، هذه العلاقات التي كانت دائماً متوترة ، إذ أن معاملة الخان لأهل السنة كانت قاسية جداً ـ حتى أنها خففت عن المسيحيين وحسنت أوضاعهم مؤقتاً ـ ، ولكن الصراع الداخلي كان مهدداً بالانفجار لولا موت الخان في ٩ كانون الأول عام ١٣١٦ ٠

لقد كان لهذه الحوادث أثره في شل النشاط في العلاقات بين بلاد ايران وأوروبة الغربية ففي أوائل حكمه أرسل ( اولجاتيو ) سفراء إلى البابا وإلى ملوك فرنسا وانكلترة ومعهم رسائل[١] تحتوي على برامج ومخططات لحل مشاكل العالم ، ولكن الأجوبة التي أرسلها هؤلاء الملوك كان فيها قدر كبير من التحفظ ، فبعد تغير الظروف والأحوال لم يكن في نية هؤلاء الملوك القيام بأي تعاون حقيقي ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الوضع أن فقدت شعوب آسية الغربية اهتمامها ببلاد ايران المغولية واختفت تدريجياً الاشارات إلى ايران من المؤلفات الأدبية ، وندر تواجد الارساليات التبشيرية التي تحولت إلى أراضي القبائل الذهبية ، ولم يبق إلاّ الوكالات التجارية للمدن الايطالية التي استمرت في التعامل مع بلاد ايران ردحاً الزمن ٠

لقد سبب موت ( اولجاتيو ) الارتباك في الدولة المغولية ، لأن ابنه ( أبو سعيد ) ، ـ وهو أول حاكم مغولي في بلاد ايران حمل اسماً إسلامياً فقط ـ كان ولداً قاصراً ، وهذا الحال جعل المجال مفتوحاً أمام ظهور زعماء جُدد كانت أول خطوة لهم أن عزلوا الوزير ذي الضمير الحي وهو ( رشيد الدين ) ، ثم أعدموه عام ١٣١٨ ، وقد حل محله قائد من قادة الجيش يدعى ( جوبان ) من قبيلة ( سلدوس ) وبدأ هذا في زيادة سلطته تدريجياً ، وأعاد نفوذ أهل السنة والجماعة ، ذلك المذهب الذي اعتنقه أبو سعيد وبقية أفراد البلاط ، وقد كان هنالك وزيراً آخر يدعى ( علي شاه ) ، وكان هذا على وفاق تام مع ( جوبان ) ، وعندما مات ( علي شاه )ميتة طبيعية لم تهمل

---

(١) بعض هذه الرسائل ما زال محفوظاً ٠

التواريخ الفارسية المغولية الاشارة إلى أنه كان الوزير الوحيد الذي مات ميتة طبيعية ، وأما جوبان فكان سقوطه مسبباً عن سلسلة من حوادث الحظ العاثر ، فقد كان ( جوبان ) قد قرر تزويج ابنته لأمير متنفذ يدعى ( الشيخ حسن الكبير ) ، ولكن أبو سعيد ( وهو الخان الجديد ) كان قد قرر أن يتخذها زوجة له وفي هذا دلالة على أن المرأة المغولية كانت لا تزال تسير دون حجاب، وأن التأثيرات الاسلامية والشرقية لم تكن لترسخ إلاّ بالتدريج. ولقد حاول جوبان أن يعرقل هذا الزواج ، وذلك ظناً منه أن الأمراء سوف يحقدون عليه إذا أغضب (حسن الكبير) ، ولكن هذا العمل فتح الباب لسلسلة من المؤامرات في البلاط ، فقد حدث أن ألقي القبض على أحد أبناء ( جوبان ) وهو يقتحم حريم السلطان ، فما كان من ( أبي سعيد ) إلاّ أن أمر بإبادة جوبان وعائلته عن بكرة أبيهم فقد قُتل جوبان نفسه وقتل معه عدد من أبنائه عام ١٣٢٧ ، وهكذا صار بإمكان أبي سعيد أخيراً أن يستحوز لنفسه زوجة حسن الكبير .

ولكن النبلاء سخطوا على ( أبي سعيد ) وحاكوا مؤامرة ضده كان على رأسها الزوج الحاقد ( حسن الكبير ) ، وتلا ذلك عدة اصطدامات ، ولم ينقذ الموقف من الانهيار إلاّ الوضع الجديد مع مصر ، فقد عقد صلح مع مصر بعد عام ١٣٢٣ بعد سنوات من القتال دون جدوى ، اعترف به بالوضع الراهن في سورية ، وقد ظل هذا الاتفاق نافذ المفعول ، وهكذا بقيت حالة الفوضى في بلاد ايران سارية المفعول أيضاً حتى حدث فجأة في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٣٣٥ ، بينما كانت حملة عسكرية تسير ضد القبائل الذهبية في القوقاز إذا ( بأبي سعيد ) يفارق الحياة دون أن يكون له وارث شرعي ، وليس من المستحيل أن تكون وفاته نتجت عن دسم السم له على يد زوجته ابنة ( جوبان ) التي كانت سبباً في كل تلك المشاكل التي تحدثنا عنها ، وكانت هي موضوع الصراعات . وفي وجه الخطر المهدد من الشمال على يد القبائل الذهبية اضطر الفرقاء المتخاصمون إلى التهادن موقتاً فيما

بينهم ، فاختاروا أحـد أقارب الخان المتوفى ليكون حاكماً جديداً ، ولكن لم يكد خطر القبائل الذهبية يزول حتى عادت الخصومات إلى سابق عهدها وانفجرت الاصطدامات من جديد ، وعزل الخان الجديد بعد حكم دام ستة أشهر ، وهنا نشأت جماعتان [ أو حزبان ] إحداهما التفت حول ( الشيخ ) حسن الكبير ، والأخرى حول ابن جوبان واسمه حسن الصغير تمييزاً له عن سميّه حسن الكبير ، وكانت كل جماعة تعين خاناً مستضعفاً وتعزله حسب أهوائها ومصالحها ، وقد هلك كثير من الخانات في هذا النزاع المستمر ، وصدف أن كان بين الخانات المنصَّبين ( امرأة ) ، وأخـيراً وفي عام ١٣٤٤ قتل حسن الصغير على يد إحدى زوجاته التي كان قد فاجأها بين أحضان عشيق في حالة الزنا ، وفي نفس الوقت اضطر حسن الكبير للانسحاب إلى ما بين النهرين ، عندها وفي هذه الحالة من الفوضى المتناهية تدخلت مجموعات من الجيش من خراسان وما وراء النهر في القتال ، وقد نتج عن ذلك أن بعض الولايات قطعت علاقاتها مع بلاد إيران مثـل أرمينية الصغرى وجورجيا ، وبعضها انفصل انفصالاً نهائياً مثل سلطنة السلاجقة في آسية الصغرى التي نفذت الانفصال قبل ذلك في عام ١٣١٧ ، هذا وقد تعرضت بلاد ايران التي كان قد انهكها ( الموت الأسود[1] ) لغزوة من الشمال قام بها ( جاني بيك ) خان القبائل الذهبية ، منذ عام ١٣٤٢ ، وفي سنة ١٣٥٧ ، اخترق بلاد القوقاز ثم دخل (تبريز) التي رحب به أهلوها واعتبروه محرراً ، وبعد أن هزم الحكام المحليين الذين سيطروا على أذربيجان ، ( وذلك لأن آخر الإلكخانات كان قـد طُرد منذ سنين مضت ) نصَّب ( جاني بك ) هذا ابنـه ( بردي بك ) نائباً للملك في هذا الإقليم ، ولكن ( بردي بك ) هرع عائداً إلى العاصمة ( ساراي ) لدى سماعه بنبأ وفاة والده عام ١٣٥٩ ليستلم العرش ، وبهذا انهار حكم القبائل الذهبية في أذربيجان وذلك لأن المملكة الشمالية أصبحت مسرحاً لحروب أهلية ضارية •

---

(١) طاعون مشهور اجتاح عدة بلدان من بلدان العالم الوسيط وفتك بأهليها بقسوة في منتصف القرن الرابع عشر • انظر كتاب :

The Black Death , by J . NOHL ,London 1961 . س • ز

وهكذا تفتت الملك المغولي تماماً في بلاد إيران وانهار ، وقد انتهزت هذه الفرصة بعض الولايات التابعة للحكم المغولي ، وبدأت في بسط نفوذها ــ مثل ولاية (كورت) في هراة ــ وظهرت عدة دول جديدة نتيجة لهذا الحدث الكبير ، ومن هــذه الدول دولــة أو دولتان تستحقان العنايــة : الأولــى هي الدولة ( المظفرية ) في كرمان وفارس ، وقد أسس هذه الدولة في خراسان أفراد إحدى الأسر العربية ، وكانوا يعملون في خدمة الإلكخانات منذ عام ١٢٨٦ ــ ١٢٨٧ في عدة وظائف وفعاليات في جنوبي بلاد العجم وأحد أفراد هذه الأسرة ويدعــى ( مبارز الدين محمــد ) استولى على ( يزد ) عــام ١٣١٨ ــ ١٣١٩ ، ثم استولى على ( سجستان ) فيما بعد ، وعند انهيار الحكم المغولي ( الإلكخاني ) أضاف إلى ملكه ( شيراز ) التــي أصبحت عاصمة مملكته وقاعدة التوسع المستمر باتجاه شمالي غربي بلاد العجم ، وقد اعترف لردح من الزمن بسيادة المماليك في مصر ، ولم يمض وقت حتى بدأ بالهجوم على القبائل الذهبية في تبريز وفي عام ١٣٥٨ سقط ضحية مؤامرة حاكها ضده ابنه ( شاه شجاع ) الذي وضعه تحت الحراسة حتى موته عام ١٣٦٤ ، ولكن المملكة المظفرية لم تبلغ أوج قوتها إلاّ في زمن حكم الابن هذا ، إذ بلغت أقصى ذروة من ذرى القوة في عهده ، وهذه القوة لــم يكن سببها التفوق العسكري فحسب وخصوصاً بعــد القتال مع الجلائريين حكام ( بغــداد ) ( انظر الصفحة التالية ) بل بقدر ما أحاط نفسه بالبهاء بوجود الشاعر الفارسي الغنائي حافظ الشيرازي في بلاطه ( توفي حافظ الشيرازي ١٣٨٩ ــ ٩٠ ) وإن أعمال حافظ التي امتعت العالم الادبي بأسره وخصوصاً في أوروبــة التي عرفته من خلال ترجمة (جوتيه) لأعماله، تلك الأعمال، هي التي عكست الوضع السياسي لحاميه ، وخلدت ذكره بشكل لم يسبق له مثيل ، ولكن حكم الدولة المظفرية لم يدم طويلاً بعد موت ( شاه شجاع ) عام ١٣٨٤ إذ تسرب إليها الضعف والوهن بسبب الحروب الأهلية بين الأخــوة المتنافسين من الأسرة الحاكمة ، وأخيراً طغى عليها السيل الجارف للتيار المغولي الجديد

تحت قيادة ( تيمور ) عام ١٣٩٣ ( وهو أمر سنأتي على ذكره فيما بعد ) ثم نعود لنذكر دولة ثانية ظهرت في النهاية الأخرى لبلاد العجم في خراسان ، وهذه الدولة تستحق الذكر ليس لأهميتها وقوتها ، بل للظروف الشاذة التي أحاطت بأصولها ، إذ أنهـا دولة عصابات ، إنها المملكة التـي عرفت باسم سربدار ومعناها التقريبي ( الرجل الذي يستحق الشنق ) وقد أنشأ هذه الدويلة جماعة من الشيعة المتطرفين كان مركزهم في ( سبزوار ) وقد بلغت قوتهم أقصى ذروة لها في زمن وجيه الدين مسعود ( ١٣٣٧ ـ ١٣٤٤ م ) الذي سيطر على نيسابور جرجان وبقية المنطقة حتى ( دامغان ) و ( ترشيز ) وقد تبعوا في سياستهم الخطوط المتبعة في ذلك العهد ( مما سنفصله فيما بعد ) فكان كل قائد عسكري متنفذ يبطش بالذي قبله ويحكم حكماً قصيراً ينتهي بظهور مغامر آخر وهكذا ، بينما كان الاتابكة المغامرون والدراويش الشيعة المتعصبون يزيدون الطين بلة ، فتفاقمت حالة الفوضى والتشويش ، وأخيراً قضي على هذه الدولة بسبب القتال الداخلي والخارجي ، واختفت عن المسرح التاريخي بعد أن خضعت طوعاً لتيمورلنك عام ١٣٧٩ أو ١٣٨١ .

أما في منطقة ما بين النهرين فقد خلف ( الالكخانات ) في الحكم أسرة تعتبر أهم وأقوى من الأسرة المظفرية أو دولـة ( قاطعي الطرق ) وكـان مؤسس هذه الأسرة هو حسن الكبير الذي أتينا على ذكره عند الكلام عن تبريـز ( انظـر ما تقـدم ) ، وقـد عرف هـو وابنـاؤه باسـم أسـرة ( الجلائرية )[١] ( وهذا اسم أحد الأمراء المغول الذي اعتبروه جداً لهم ) ، وأحياناً كانت تسمى هذه الأسرة باسم ( الالكخانية ) ، فبعد موت ( أبو سعيد ) احتفظ حسن الكبير لنفسه بالمركز المرموق في العاصمة ، ولكنه اضطر للانسحاب بعد انتصار ( حسن الصغير ) والذهاب إلى بغداد ، وظل يحتفظ

---

(١) من أجل تاريخ هذه الدولة انظر مجلة المورد ـ المجلد الثامن ـ ١٩٧٩ ، ص : ٦٥ ـ ٦٦ .

بالسلطة في بغداد من عام ١٣٤٥ حتى وفاته عام ١٣٥٦ ، وقد حارب في عدة ميادين علـى رأس قبيلة الجلائرية هذه ، وقـد اشترك ابنه ( أويس ) مع المظفريين في إيقاف تقدم القبائل الذهبية في أذربيجان التي استولوا عليها وعلى الموصل وعلى ( شروان ) فيما بعـد ، وقد نجح أيضاً في إيقـاف محاولات المماليك للسيطرة على بلاد ما بين النهرين ، تلك المحاولات التي كانت ذات خطر مزدوج لأن المظفريين قـد أصبحوا مؤقتاً تابعين للمماليك كما رأينـا سابقاً ، وقد شهدت منطقة ما بين النهرين فترة من السعادة والسلم والرخاء نسبياً في عهـد ( أويس ) بما لاقتـه منه من العدل والتخطيط الاقتصادي الحكيم وقد أكبر الناس موته الذي حدث وهو في الثلاثين من العمر عندما كان يقاتل أسرة من خلفاء الإلكخانات في ( استراباد ) ، ولكن بعـد وفاة ( حسين ) وهو ابن أويس ، الذي حكم بعده ، انشطرت الدولة ( الجلائرية ) إلى شطرين ، ثم انقسمت إلى أقسام أصغر ، وبعدها سقطت فريسة سهلة في يد تيمورلنك ، وهرب آخر حاكم من الأسرة هذه وهو المدعو ( أحمد ) من بغداد إلى مصر ثـم إلى سورية وأخيراً إلى آسية الصغرى ، وأخـيراً وبعد موت تيمور استعاد ( أحمد ) هذا بغداد ولكن لبضع سنين ، وأخيراً لاقى حتفه عام ١٤١٠ مع جميع أبنائه بشكل مريع على يـد قبيلة ( الشاة السوداء = قراقونيلو ) وهي من القبائل التركمانية .



# المغول في آسية الوسطى

لقد احتلت المنطقة الواقعة بين نهر جيحون ومنغوليـا بسكانها الذين كانت أغلبيتهم من الأتراك مركزاً مرموقاً في الامبراطورية المغولية العالمية ، منـذ بدايتها وتأسيسها على يد جنكيز خان ، وكانت هذه المنطقة منطقة حدود في أول الأمر قبل اخضاع بلاد العجم ، ولكن كان الحكام المغول ينظرون اليها كمصدر لجمع قوة عسكرية هائلة فيما لو تم الاستيلاء عليها ، ولهذا فقد اناط جنكيز خان هذه المهمة بابنه ( جغتاي ) ( الذي اقترن اسمه فيما بعد في الإشارة إلى سكان تلك المنطقة ) ، ولكن جنكيز خان لم يضع أي حدود فاصلة بين القطاع التابع لجغتاي هذا والقطاع المخصص لابنه ( أوكتاي ) ، ولهذا فعندما حكم هذان الأخوان المنطقة لم يخل عهدهما من بعض الخصومات والمنازعات ، ولكن حدث أن عين ( أوكتاي )أحد التجار المسلمين المدعو محمود يلواج ( يعني السفير ) حاكماً على منطقة ما وراء النهـر وعاصمته ( خجند ) وعمد هـذا بمهارة وحذق إلى إعـادة تنظيم المنطقة التي كـاد الخراب ينتابها بسبب الغارات المبيدة للمغول والعاصفة التي أثاروها ، ورغم العصيان الذي حدث بين الفلاحين في بخارى عام ١٢٣٨ ـــ ١٢٣٩ إلاّ أنه نجح في تنمية العمران وتشجيع الحضارة ، وعندما أمر ( جغتاي : ) بطرد هذا الحاكم ، أمر الخان الأعظم ( جنكيز خان ) أن ينصّب ابنه ( مسعود بك ) بدلا منه ، وقد استمر هذا يتابع بإصرار سياسة والده العمرانية ، وقد أمتدت ولاية ( مسعود بك ) من ( بيش باليق ) إلى سمرقند وبخارى ، ولكنه فضل بخارى وأقام بها ، وقد نشط في تشييد الأبنيـة العامة ، وكانت سياسته

الحكيمة في تصريف الأمور سبباً في نجاة ما وراء النهر من المحن التي سببتها تلك الفترة العاصفة التـي مرت بين موت ( أوكتاي ) واعتـلاء ( مونكو ) ١٢٤١ ــ ١٢٥١ وفي أثناء حكم مونكو هذا ارتفع مقـام ( مسعود بك ) وأضيف إلى منطقة حكمه تركستان وخوارزم و ( أوغور ) وأصبح مسعود بك الحاكم الفعلي لمنطقة ما وراء النهر بعد حادثة ( مؤامرة الأمراء عام ١٢٥٢م ــ السالفة الذكر ــ التـي كان من نتائجها انحسار سلطة كـل من جغتاي وأوكتاي ) .

لقد تأخرت استعادة المنطقة الشمالية لنهر جيحون بسبب الحرب الأهلية المغولية ، فعندما شعر « أريق بوقا[1] » بوطـأة الصدمة التي تبعت إيقاف كميات المؤن والطعام التي كانت ترد اليه من منغوليا والصين ، عمد إلى إرسال أحد أمراء أسرة ( الجغتاي ) وهو ( ألغو ) بمهمة الحصول علـى الاطعمة والمؤن من تركستان ، وعندما وصل هذا الأمير إلى تركستان تنكر لمهمته ، وبدأ في السعي لاقتطاع خوارزم من حكم القبائل الذهبية ، ولم يُعر أي اهتمام للزمالة السياسية بين « بركا » و « أريق بوقـا » ، وعندها بدأت المناوشات بين ( الغو ) وحاكم منغوليا ، وقـد كسرت جيوش حاكم منغوليا التي كانت قد أصيبت بهزائم في مناطق أخرى ، وأجبر أريق بوقا على إخلاء تركستان وما وراء النهر ، وتركها لمبعوثه السابق ( الغو ) ، وقد تزوج ( الغو ) هذا من ( إكنة خاتون ) وهي أرملة حفيد ( جغتاي ) ، وكانت امرأة ذات شخصية قوية ، وقد استطاع ( الغو ) بما وفرته له ادارة ( مسعود بك ) من المصادر المالية أن يحتفظ بمركزه طيلة حياته وحتى موته عام ١٢٦٦ ، زد على ذلك أنه استطاع ان يوسع أملاكه على حساب أملاك ( بركا ) باقتطاع ( أوترار ) على نهر سيحون ( سيراداريا ) .

ولكن موت ( الغو ) انتج فوضى طويلة الأمد فقد تنافس عدة أمراء

(١) من اخوان هولاكو .

من عائلة ( جغتاي ) على العرش وظل الحال على هذا المنوال حتى فاز أخيراً أحد أحفاد ( أوكتاي ) وإسمه ( قايدو ) وقد دعا في عام ١٢٦٩ إلى عقد مجمع عام : ( قوريلتاي ) وافق على الاجراءات المتخذة لاستعادة الأمن والنظام ولحماية الاراضي المزروعة من غزو البدو الرحل ، ولقد كانت هذه الاجراءات ضرورية جداً ، لأن فرق جيش الإلكخان كانت قد عبرت نهر جيحون وخرّبت مدينة بخارى وقد بقيت القوة الحقيقية بيد ( قايدو ) رغم أن أبناء ( جغتاي ) استمروا في حمل لقب الملوك ولكن بصورة إسمية ، ومع أنه لم تصل إلينا أية أخبار عن تحديد أو تعيين الحدود في الأراضي الواسعة العريضة في أواسط آسية ، ولا نعلم الوضع الحقيقي لعلاقات القبائل الذهبية مع العالم الخارجي ، إلاّ أنه من المحقق كما يبدو أن ( بركا ) وخلفاءه عندما وجدوا أنفسهم في حالة توقف تام ومتورطين في القوقاز اتفقوا مع ( قايدر ) لكي يتحدوا ضد عدوهم المشترك وهو ( الإلكخان ) وتركوا المشكلة التي خلقها حاكم ما وراء النهر السابق من استيلائه على خوارزم و ( أوترار ) معلقة .

إن تنفيذ هذا الحلف عملياً لم يكن سهلاً أبداً ، وذلك لأن (الإلكخانات) أبدوا مقاومة فعالة ضد الغزوات التي كانت تأتي من منطقة جيحون وهكذا تدنت المكانة السياسية لمنطقة ما وراء النهر ، ومع أن أبناء ( مسعود بك ) الثلاثة قد عملوا واحداً تلو الآخر حكاماً في بخارى وهم يعتبرون من الحكام الاكفاء طبعاً ، إذ أنهم قد جاهدوا في سبيل تقوية الحكم ، إلا أنهم لم يستطيعوا ايقاف التدهور الاقتصادي والثقافي الذي أخذ يستشري في المنطقة، وكان سبب هذا الانحطاط المباشر التخريب الذي حل بالبلاد اثناء النزاع المغولي الداخلي في العقدين الماضيين ، وفوق ذلك فقد ظهرت الآن بوضوح تأثيرات التغيرات في البنية السكانية التي نتجت عن الجائحات التي انتابت المغول في تحركاتهم والتغيرات العميقة الجذور التي أحاطت بهم ، زد على ذلك أن العنصر التركي الفطري الأصيل قد أتيحت له امدادات ودماء جديدة

من الشرق ، وهذه تشمل الامدادات المغولية نفسها ، والمغول كما هي العادة كانوا يندمجون بسهولة في الأتراك وخصوصاً أنهم من مجموعات لغوية واحدة متحدة ، وهذا التحول السكاني كان له تأثير في جعل منطقة ما وراء النهر منطقة تركية صرفة ، وقد قدر لهذا التحول أن يؤثر تأثيراً واضحاً على السمات الحضارية العامة في تلك البلاد ، لأن الأتراك المحليين لم يكونوا مستعدين لتقبل الحضارة الفارسية ، بل بالعكس كانوا كثيراً ما يظهرون كراهة فطرية ضد هذه الحضارة ، فبينما نرى في إيـران أن الثقافة الفارسية انتصرت ، نجدها في ما وراء النهر ــ حيث انصبّت الأعداد الضخمة من الأتراك منذ عدة قرون ــ قد قضي عليها أو ذابت ، ولم يشذ عن هـذه القاعدة سوى بعض مجموعات تدعى التاجيك والسوت في التركستان الحديثة .

وفي السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي طغت على منطقة ما وراء النهر حروب أهلية هزتها بعنف ، فيمـا عدا فترة قصيرة حاول أثناءها خانات تركستان ترتيب أمور السلم على أساس التراضي بين جميع دويلات المغول ، وفي أثناء هـذه الاضطرابات استطاع أحفـاد ( جغتاي ) استعادة سلطتهم على ما وراء النهر وتركستان ، وأن يطردوا فعلاً احفاد ( اوكتاي ) من المسرح السياسي نهائياً ، وقد ساد السلم عام ١٣٠٩ ولكن الأضرار الفادحة التي سببها القتال المستمر ، جعلت كثيراً من المدن تخلو نهائياً من سكانها ، ولم يبق منها سوى الاطلال والخرائب لتشهد بعظمة تلك المدن الغابرة ، ومع أن الحكام من الخانات نقلوا مراكز حكمهم إلى جنوبي ما وراء النهر ، إلاّ أنهم لم يتخلوا نهائياً عن أساليب معيشتهم البدوية وهنالك أحدهم وهو يدعى ( ترمسشرين ) هذا الخان يستحق التفاتة صغيرة ، فهو قد حكم من عام ١٣٢٦ ــ ١٣٣٤ وقد اعتنق الدين الاسلامي ، وقد كان أول خان من سلسلة من الخانات أتـوا بعـده ، وكانوا جميعاً مسلمين ، وهكذا انتشـر الدين الاسلامي في ثلاثة مراكز مغولية غربية ، ورغم العداء المستحكم بين هذه المراكـز إلاّ أن الدين الاسلامي تـرك بصماته وسماته التي امتازت بهـا

الحضارات في الشرق الأدنى ، وهذه الخلفية الثقافية المشتركة مضافاً إليها العلاقات التجارية المستمرة التي لم تنقطع كلياً أبداً ، عملت على تعديل وتسوية المستويات الثقافية في جميع الاقاليم المغولية وجعلها في مستوى واحد ، وأما في مملكة جغتاي ، فقد بدأت العلاقات تسوء بين العناصر البوذية المتمسكة بالقديم والتي تعتبر ( الياسا ) مرجعاً لها ، وبين العناصر المغولية المسلمة لدرجة قادت لتفجر المناوشات بين هذه العناصر ، وقد نتج عن ذلك استقلال القسم الشرقي من الأراضي التي اضيفت بين عامي ١٣٤٦ و ١٣٤٧ ، وكذلك غدت بلاد ما وراء النهر بلاداً مستقلة ، إن تفاصيل أخبار هذه الحوادث غير معروفة بدقة، لأن المصادر الموجودة ضئيلة وغير كافية ، وعلى كل حال فقد انتقلت السيطرة على منطقة ما وراء النهر إلى أمراء أتراك أو ( بكوات ) كانوا مع الحضارة الاسلامية قلباً وقالباً ، ولم يعودوا يفكرون باحياء التقاليد المغولية القديمة ، ولكنهم سمحوا لابناء ( جغتاي ) و(أوكتاي) أن يحكموا بشكل خانات بصورة إسمية كما كانت الحال مع الخلفاء العباسيين في القاهرة ،ولكن حدث أن قويت شوكة الخانات في منطقة ( جغتاي ) الشرقية فاستطاعوا أن يقضوا على سيطرة البكوات ، غير أنه قد وضح للعيان أن انقسام اقليم جغتاي أصبح تاماً ونهائياً إلى الأبد[1] وبعد جيل من الزمان أتى ( تيمورلنك ) واجتاح هذه المناطق ، ولكنه اعترف بالوضع القائم بها وقبل أن نبدأ في البحث عن تيمور لا بد لنا أن نتوقف قليلاً عند خصوم الأقاليم الإلخانية الأخرى في بلاد إيران ، وهذا ما سنبحثه في الفصل القادم •

* * *

---

(١) للحصول على تفاصيل أكثر راجع HandBuch . Der . Orientalistik تأليف شبولر المجلد عن الاتراك •

# القبائل الذهبية

ذكرنا سابقاً شيئاً عن الظروف التي أحاطت بانفصال ( بركا ) ( وهو خان القبائل الذهبيــة الذي حكم بين عامي ١٢٥٧ ــ ١٢٦٧ ) عن الامبراطورية المغولية العالميــة ، هــذا العمــل أثبت أن القوقــاز يؤلف حــاجزاً طبيعياً لا يمكن لأية قوة توحيدية سياسية ان تتخطاه ، ورغم هذا نرى أن النضال للسيطرة على القوقاز كان الشغل الشاغل ( لبركا ) طيلة مدة حكمه ، غير أن الحال تغير عند وفاة ( بركا ) فقــد واجه خلفاؤه مشكلة جديدة ، وهي تنظيم مجــال النفوذ الأوربي الذي كانت تعتمد عليــه دويلة الفولجا هذه اقتصادياً ، وعندما خضعت الدويلات الروسية لسلطة المغول ، تركها هؤلاء على سجيتها ، ولم يتدخلوا بشؤونها الداخلية ما دامت تدفع الجزية ، غير أن الأمير المغولي (نوخاي) قام بحملة عام ١٢٥٩ وتوغل حتى وصل إلى غاليشيا ، ولكن هذه الحملة لم تحدث تغيراً عميقاً في الأحوال القائمة آنئذ ، ولهــذا فقد أتيح للروس أن يلتقطوا أنفاسهم بعد حالة الرعب التي أصابتهم على يد الغزاة المغول ويديروا شؤونهم حسب أهوائهم ، ولكن بشكل يتفق مع النظام الجديد ، ولقد أصابوا نجاحاً في هذا المضمار لعدة أسباب : ففي المقام الأول نلاحظ أن المغول استمروا في اتباع سياسة ترك الولايات والامارات الوطنية لوحدها دون تدخل في شؤونها الداخلية ، مع أنه كان يحدث في بعض الظروف أن يعزل بعض الأمراء لتلكؤهم في دفع الجزية ، أو بسبب صراعاتهم بعضهم مــع بعض أو بسبب بعض الذنوب الأخرى ، وهنالك سبب آخــر لا يقل في أهميته عن هذا السبب ، وهو أن الخانات في ( ساراي ) لم يتدخلوا في شؤون الحيــاة الدينية لاتباعهم ورعاياهم ، وهذا مما جعــل الكنيسة

الأورثوذكسية تثبت أقدامها ، وهذه الكنيسة كانت سبباً من الأسباب لتمتين العلاقات الوحدوية بين الروس المعاصرين ، مع ما كانوا عليه من حالة الانقسام إلى عدة دويلات ، وأصبح مطران ( كييف ) العاصمة رمـزاً يحمل شعار الوحدة الروسية ، خلال التقلبات التي حدثت في تلك الفترة ، وقد بقي هذا المطران موالياً ومخلصاً بكل دقة للخانات ، وذلك تعبيراً عن امتنانه وشكره للتسامح الذي أظهروه ، ولمنحهم الكنيسة الامتيازات والحقوق والحماية والعصمة ، ولكن بنفس الوقت لـم يكن يفرّط بشيء من مصالح شعبـه الأساسية ، وفي تلك الظروف السائدة آنئذ كانت الكنيسة وحدها هي العامل القادر على الابقاء على التقاليد الروسية الصميمة التي استطاعت في المستقبل أن تؤلف النواة التي اعتمدت عليها النهضة الروسية في الوقوف علـى قدميها . ولإتمام هذا العمل كان على الكنيسة أن تبقى متماسكة وقادرة على مقاومة النفوذ الخارجي في جميع أشكاله ، وهذا يفسر لنا الصلابة التي اتسمت بها الكنيسة الأرثوذكسية في الماضي ، والتي لا تزال حتى الآن من الصفات التي تتميز بها في أعين الغرب الأوربي ،ولم يستطع الايمان المسيحي ، وبالتالي الأمـة المسيحية الروسية أن يتغلبـا على آثار القرون المتعاقبة من الحكم الأجنبي ، إلاّ بالتصاقهما الشديد المتماسك بالارثوذكسية ، ولقد كان مطارنة جميع روسيا ( كما كانوا يدعون ) واعين تماماً أنهم يمثلون ويرمزون إلـى فكرة الدولة الروسية الموحدة ، وهكذا تتبعوا التطورات السياسية باتنباه وحذر ، وعندما تحطمت الدولـة الروسية القديمـة بعـد تخريب ( كييف ) عمد المطارنة إلى الانتقال إلى أمكنة أخرى ، وأخيراً ، وفي حوالي عام ١٣٠٠ م نقلوا مركزهم إلى موسكو ، واختاروا هذا الموقع لأنهم وجدوا هناك دولة فتية قد تأسست وتبلورت وكانوا يتوسمون بها الخير .

ولم يكن من قبيل الصدفة أن ينتقل مركز الثقل السياسي مع انتقال المطارنة هذا ، وذلك لأن الغزو المغولي وضع حداً للتوسع الروسي جنوباً أو في

الاتجاه الجنوبي الشرقي ، ذلك التوسع الذي كان يطمح إليه الروس منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، ولما كانت هاتان المنطقتان قد وقعتا بأيدي الغزاة المغول كان من الواجب على الروس عندها أن يوجهوا أنظارهم إلى مناطق أخرى ، وهكذا وجدوا مخرجاً بالاتجاه إلى المناطق في السهل الواقع إلى الشمال والشمال الشرقي ، ولهذا لم تصبح موسكو خلفاً ( لكييف ) كمركز الثقل لشرقي أوروبا فحسب ، بل ان حركة التوسع الاستعماري الروسي إلى الشمال والشمال الشرقي أصبحت حركة ذات أهمية تاريخية خاصة يقابلها ويعادلها الهجرات التوسعية للقبائل الجرمانية في العصور الوسطى ، وكل هذا كان نتيجة مباشرة لفتوحات ( باتو ) .

ولكن كان كل ما يهم المغول هو الاستفادة من الأمراء الروس واستغلالهم مادياً ولم يكن لديهم أي دافع آخر عند تبنيهم النظام الذي أنشأوه في تلك المنطقة ، وقد مارسوا سيطرتهم من خلال تعيينهم ( الباسقاق ) أي جباة الضرائب ، واستعمال القوة ضد كل من تسول له نفسه العصيان ، وأحياناً إخماد التمردات والثورات ، وتأمين مصالح المغول في حالة وقوع أي خصومات أو اصطدامات بين الروس أنفسهم ، وفي خلال القرن الثالث عشر كان هؤلاء الجباة يتمتعون بنوع من الاستقلال ، وذلك لأن اهتمام الدولة المغولية كان في الجنوب ، فلم تكن تهمهم القوقاز فقط بل بلغاريا وثراثيا ، فقد خضع القيصر البلغاري أيضاً لسيطرة المغول في حوالي عام ١٢٤٢ م ، وفي حوالي عام ١٢٦٠ أو ما بعدها بقليل تدخل مغول روسيا في النزاع الذي كان قائماً بين بلغاريا والقسطنطينية ، وذلك للضغط على امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثامن ، وبعد ذلك اتفقوا معه على العمل المشترك لمجابهة ضغط الصرب ولإخماد كل الحركات الوطنية لمقاومة السيطرة الأجنبية ، تلك الحركات التي بدأت في الظهور في بلغاريا ، وقد ساهمت العلاقات الحسنة مع القسطنطينية في تطويق أملاك ( الإلكخانات ) في آسية الصغرى ، وفي إحدى المناسبات هرب أحد سلاطين سلاجقة الروم إلى بلاط التتار في ( ساراي ) ،

وبمساعدة هـذا السلطان اللاجىء كان الخان يأمل أن يكسب نفـوذاً في ( قونيه ) وربما حتى الاتصال مع المماليك في سورية وبهذا يفوّت الفرصة على ( الإلكخان ) للنفوذ إلى البحر الأبيض المتوسط والاتصال المباشر مع دول أوروبة الغربية ، ولكن هذه الآمال والخطط لم تتحقق لأن السلطان المنفي لم يستطع الرجوع إلى عرشه .

وكان الحلف الذي عقد مع منطقة ما وراء النهر على يد خليفة ( بركا ) وهو منكو تيمور ( عام ١٢٦٧ ـــ ١٢٨٠ ) موجهاً ضد الإلكخانات ، ولكن بما أن العمليات الهجومية التي قامت بها منطقة ما وراء النهر ضـد خراسان والعمليات المصرية ضد الفرنجة في سورية كلتاهما أتَتَا بعد فوات الأوان ، لذلك أخفقت كل المحاولات والتحالفات لدحر النظام ( الإلكخاني ) في بلاد العجم ، ولكن العلاقات مع مصر بقيت طيبة ، لأن العلاقات السياسية الطيبة كان يصاحبها عادة علاقات تجارية مربحة ، وتآلف ثقافي مفيد ، فمن مصر كانت ترد إليهم البضائع الحضارية مثل المنسوجات الناعمة الجميلة ، والفواكه المختارة ، والعطور النادرة ، وحتى الحيوانات الغريبة وما شابهها ، وكل هذه الأشياء كان يجلبها سفراء الخان عند رجوعهم كهدايا لسيدهم ولحاشيته وبطانته ، وقد أمدت قاعدة الفولغا وسواحل البحر الأسود مصر بالعبيـد ( المماليك ) أي بالجنود ، ومقابل ذلك كانت مصر ترسل الصناع الحرفيين وعلماء الدين الذين كان لنشاطهم آثاراً هامة في تطور المغول في روسيا ، وقد شجع ذلك(بركا) لكونه كان مسلماً أقصى حدود التشجيع، وطبقاً لما لدينا من المصادر القليلة، نجد أن التأثيرات السورية والمصرية فضلاً عن تأثيرات وسط آسية من بخارى وسمرقند كل هذه كانت تتفاعل وتعمل جاهدة في مضمار الدين والعقائد والطب ، وأما في مضمار الفنون فلا نستطيع أن نغفل الآثـار والسمات المصرية في الأبنية والأنصاب القائمـة ، والرسوم على الجدران والفسيفساء والمواضيع التعبدية مثل مصابيح المساجد ، وشواهد القبور كلها تظهر بوضوح الأساليب المصرية كلما تقادم عليها الزمن ، وتعكس أيضاً

التأثيرات السورية والأناضولية ، وهكذا اكتسبت المعالم الحضارية على نهر الفولغا مظاهر إسلامية آتية من حوض البحر الأبيض المتوسط ، بينما نجد أن البلاط في ( تبريز ) يتسم بسمات إيرانية ، وقد شيد المهندسون المصريون المعماريون الأبنية والصروح في بلاد القرم وفي (ساراي ) العاصمة القديمة والحديثة حيث تطورت مظاهر الحضارة في كلتا المدينتين ، فقد ظهرت البيوت الضخمة المبنية بالحجر ، وبها الزخارف الفسيفسائية ورسوم الجدران والأروقة ، وأنظمة التدفئة المركزية ، من خلال الأرضيات المبلطة ( التي تشبه التبداريا الرومانية ) والتي كان بلاطها من الخشب القاسي ، وفي مدينة ( ساراي ) الجديدة أنشئت السدود لتأمين المياه للأقنية والطاقة المائية [ الهدروليك ] المستعملة في الورشات التي كان بعضها على مستوى المصانع ، وكانت المنتوجات الرئيسية تنحصر في الزجاج والفخار ، وقد أظهرت الحفريات والتنقيبات وجود آثار هندسية رائعة كالقصور الفخمة والفنادق والخانات والمقابر ، وقد وجد بين الأنقاض والمقابر جميع أنواع الأدوات الاحتفالية الطقوسية بعضها مستورد من الخارج وأخرى مصنوعة على ضفاف الفولغا .

وهكذا توطدت قبضة الثقافة الاسلامية على الشعوب المغولية على ضفاف الفولغا ، ومع أن خلفاء ( بركا ) لم يكونوا من المسلمين إلاّ أنهم لم يعيقوا تقدم تعاليم النبي محمد ﷺ ، وقد خسرت المسيحية النسطورية كل نفوذ لها بعد تحول ( بركا ) إلى الاسلام ، ولم تقم للبوذية قائمة أبداً في هذه الأنحاء ، وهكذا بقيت امبراطورية القبائل الذهبية هادئة لا تزعجها أي اضطرابات دينية ، كما كانت الحال في إقليم ( الإلكخانات )وتم تحويل المغول إلى الديانة الاسلامية بسلام ، ولكن الديانة الشامانية بقيت مترسبة هنا أكثر مما بقيت في إيران ، ولكنها لم تقدم أي مقاومة للإسلام ( كما فعلت الأديان الأخرى كالمسيحية والبوذية ) ، قبل أن يقضى عليها وتندثر نهائياً .

وهنا وكما حصل في ايران ساعد انتشار الاسلام على دمج الأتراك والمغول بصورة نهائية ، وهنالك شواهد محسوسة ومن بينها الخصائص الفيزيولوجية للتتار الذين كانوا يعيشون على ضفاف الفولغا ، تشير أن العنصر المغولي من البداية كان أضعف تأثيراً هنا منه في بلاد إيران ومنه في آسية الوسطى ، ففي السجلات وعلى العملة كانت اللغة الغالبة هي التركية وليس المغولية ، فعملية امتزاج الطبقة الحاكمة المغولية بالقبائل التركية التي جلبها المغول معهم ، حصلت بالاضافة إلى الامتزاج مع السكان الأتراك الأصليين في سهل القبجاق كل ذلك ليكون الأمة التتارية الحديثة ، وقد أخذت هذه العملية وقتاً قصيراً ، وفي وقت أبكر حصل نوع من التمازج التام بين العناصر المتجانسة ، وهذا يشمل بلغار الفولغا ( الذين كانت لغتهم تختلف عن لغات الأتراك الأخرى ) ، وكذلك اعداد كبيرة من قبائل الفولغا الفنلندية ، وهذه العناصر سرعان ما بدأت في التأثير على النمط الفيزولوجي لتركيب الأمة التتارية الناشئة .

وكانت العلاقات بين القبائل الذهبية وأوروبا الغربية في القرن الثالث عشر توازي العلاقات بين أوروبا الغربية وإيران ، ولم يكن أقوى تشجيع لهذا بفضل الإرساليات التبشيرية البابوية بقدر ما كان بفضل التجار الجنوبيين ، وابتداءاً من العام ١٢٦٧ بدأ تجار جنوى ينالون الحظوة في ( ساراي ) ، وقد جهدوا لمنع تجار البندقية من تأسيس مراكز تجارية هناك ، ونجحوا في ذلك ، فقد تحول الساحل الجنوبي الشرقي للقرم إلى منطقة نفوذ تجارية جنوية ، وقد ظهرت المصانع الجنوية في ( كافا ) بشكل متتابع سريع ( كافا تعرف الآن باسم فيودوسيا ) ، وقد كان القنصل الجنوي في ( كافا ) يتمتع بنفوذ لا يقل عن الحكام التتار في القرم ، وكان يمارس نوعاً من الاستقلال القضائي نظيراً لما تمتعت به السطات التتارية وقد ظلت العلاقات المتبادلة بين التتار وجنوى طيبةحتى عام ١٣٠٨ ، عندما نشأت أزمة حادة أدت إلى حرق ( كافا ) واحتلالها مؤقتاً من قبل التتار ، وقد كانت التجارة مع

الجنويين بالنسبة لساراي لا تقل أهمية عن العلاقات التجارية مع مصر ، وكانت المواد المستوردة هـي الأنسجة الفلمنكية ، والبورسلان الناعـم والأواني الفضية والمجوهرات ، بينمـا كانت الصادرات تتألف من الفراء والسمك والقمح والحبوب ، وهذه كانت تشحن إلى القسطنطينية ومصر وإيطاليا ، ومن ثم إلى أجزاء أوروبا ، وقد شغلت الطرق التجارية البرية إلـى الغرب خلال شمال رومانيا ( مولدافيا ) وغاليشيا البولندية دوراً ثانوياً في هذه المراحل المبكرة .

وقد كانت الحروب الأهلية التي نشبت بين القبائل الذهبية سبباً في تسهيل انتشار التجارة الجنوية في تلك المنطقة ، وقد نجح الأمير ( نوقاي ) الأعور ( أصيب بسهم في عينه سبَّب تلفها ) في حروبـه كقائد عسكري في غاليشيا عام ١٢٥٩ وعام ١٢٨٦ وفي القوقاز عام ١٢٦١ ــ ١٢٦٣ ، واستطاع بذلك أن يجمع القبائل التتارية في السهوب الواقعة شمال وشمال شرقي البحر الأسود ويجعلها كلها مملكة واحدة خاضعة له ، أما في ( ساراي ) فقد استطاع ( نوقاي ) أن يغتصب السلطة من عدة خانات ، وأخيراً تنازل له أحد الخانات وفضل الانسحاب على أن يشغل دور الحاكم الألعوبة، وبعد أن أمَّن الحماية لمؤخرته من خلال عقـده حلفاً مع امبراطور بيزنطة بعـد أن تزوج ابنته ، أصبح في وضع مكَّنه مـن الضرب شمالاً والتوغل في الأراضي الروسية ، وبالاختصار أصبح نوقاي ( عمـدة القصر ) القوي ، ولكن الخـان الشاب ( توقتاي ) الذي ورث العرش عام ١٢٩١ لم يكن راضياً عن هذا الوضع ، وقد تخلص من عبء أخويه اللذين كان ( نوقاي ) قـد تطفل عليهما وجعلهما شريكيه في الحكم ، وهكذا شن ( توقتاي ) حرباً ضد ( نوقاي ) أدت إلى انكسار جيوش ( نوقاي ) وقد قتل ( نوقاي ) نفسه على يد جندي روسي في أواخر عام ١٢٩٩ ، وقد أخرت هذه القلاقل تقدم الدولة ، فمع أن نوقاي لم يفز فعلاً بالعرش إلاّ أن نشاطه كان له تأثير كقوة نابذة ودافعة عن المركز ، وان درجة نجاحه يمكن أن تقاس بالحقيقة الملموسة وهي أن القبائل التتارية

التي ساندته وساعدته أصبحت تدعو نفسها ( نوقاي ) وان البقية من هذه القبائل التي ما تزال موجودة في شمال القوقاز ما برحت تحتفظ بهذا الاسم حتى اليوم ٠

مضت عدة عقود من السنوات ولم تحدث أي تدخلات مسلحة في القوقاز ، ولكن لم يكد ( توقتاي ) ينتصر في الحرب الأهلية حتى أرسل بعثة كبيرة إلى تبريز تطلب بصراحة وبشكل بات إعادة القوقاز لحكمه ، وقد شعر هذا الخان بالثقة التامة بسلامة موقفه ، وذلك لأن حاكم جورجيا قد هب لمساعدته ، ولكن ( غازان ) لم يوافق ، وأوضح للجميع أن ايران سوف لن تسلم ذلك الموقع الذي يؤلف حدودها الجبلية الحصينة إلاّ لقوة كبيرة متفوقة ، ولكن قوة ( توقتاي ) العسكرية أخفقت وأجهضت تحركاتها فيما وراء نهر ( ترك ) ولم يبق لديه أي خيار سوى أن يوجه اهتمامه إلى روسيا ، وفي هذا الوقت كانت العلاقات الروسية التتارية قد ساءت وذلك لأن الأمراء الروس صاروا يهزأون بالموظفين التتار ، وكثر اللصوص الذين كانوا يمارسون أعمال السلب والنهب بأعداد كبيرة ، وبهذا قلت الضرائب والعائدات التي كان يستلمها جباة الضرائب التتار ( الباسقاق ) الذين لم يعد لديهم القوة الكافية لتنفيذ طلبات أسيادهم ، وهكذا بدأت فكرة ادارة شؤون الضرائب واعطائها للروس انفسهم تساور نفوس التتار بالتدريج ، وقد أظهر امراء موسكو من الطاعة والولاء لخانات الفولغا ما جعل هؤلاء يسلمون جباية الضرائب والجزية لأولئك الأمراء ، وقد كان أمراء موسكو ذوي حصافة دبلوماسية عظيمة بحيث استطاعوا أن يرضوا أسيادهم التتار من هذه النواحي ، وهكذا استطاعوا أن يقنعوا الخانات والتتار أن يثبتوهم كأمراء وراثيين لموسكو بعد أن عملوا على اقناع بقية الأمراء الروس بالخضوع التام للتتار ، ولم يحاول أي حاكم تتاري أن يعارض هذا الإجراء ، وهو تثبيت أمراء موسكو في مناصبهم ، اذ كان الأسياد التتار لا يشعرون بأي خطر يمكن أن يسببه هؤلاء الأتباع المسكوفيين ٠

لقد عادت هيبة الأسرة الحاكمة للقبائل الذهبية بعد أن تغلب ( توقتاي ) على الأزمة التي سببتها طموحات ( نوقاي ) واستمرت هيبة هذه الأسرة في الصعود في عهد ابن أخي ( توقتاي ) وهو أوزبك الذي خلفه عام ١٣١٣ بعد أن تغلب على عدة منافسين ، وبعـد أن اعتنق الديانة الاسلامية وذلك رغم معارضة كثير من الأوساط الارستقراطية ، وقد أصبح هذا الخان أول حاكم في سلسلة كاملة من الخانات المسلمين ، وكان عمله هذا خطوة حاسمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ التتار منذ نشوئهم ، ولقد كان انتصار الاسلام بين المغول القبجـاق يختلف في أثره عـن انتصاره بين مغول إيـران ، فبينمـا شارك الحكام المغول في بلاد ايران شعبهم وسايروه في اعتناق هذا الدين نجد أن حكام القبائل الذهبية لم يفعلوا ذلك ، بل على العكس أقاموا حاجزاً وستاراً كثيفاً بينهم وبين شعبهم بالنسبة لهذا الأمر ، ولقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه كان بامكان الخانات أن يزيحوا أسرة ( روريك ) الحاكمة في موسكو ، وأن يصبحوا قياصرة روسيا لو وافقوا على اعتناق المسيحية وتوحيد أو بالحري دمج أنفسهم مع الشعب الروسي ، ولكنهم باختيارهم الدين الاسلامي لم يعد لديهم أي مجال للاندماج بالأمـة الروسية ، وهنالك اتجـاه قوي لقبول النظرية التي تقول بأن هذا الانقسام الديني كان العثرة الوحيدة ، أو السبب الوحيد الذي منع انصهار التتار ، واختفائهم من المسرح السياسي كأمـة ، وبهـذا يمكننا أن نعتبـر ( أوزبـك ) المؤسس الحقيقـي للأمـة التتارية ، وما زال هنالك شعب من شعوب الأتراك في أواسط آسيـة وهو الأوزبك ما يزال يدعو نفسه باسمه حتى الآن ، لقد واجه أوزبك أوضاعاً جديدة في الشؤون الخارجية ، فالمملكة البلغارية التي تدخل توقتاي وأسلافه في شؤونها بشكل فعال بـدأت تنسلخ عن سيطرة ( ساراي ) ولذلـك شرع امبراطور القسطنطينية نفسه يتحلل من جميع التزاماته للقبائل الذهبية، هذا وقد بدأ محور القاهرة ــ ساراي يفقد أهميته وذلك بعد توقف المناوشات في سورية وعقد معاهدة الصلح بين ايران ومصر عـام ١٣٢٣ ، وبالاضافة إلى ذلك انهيـار

الامبراطورية ( الإلكخانية ) نهائياً عـام ١٣٣٥ ، ومن جهة أخرى نجـد أن البعثات التبشيرية القادمة من غربي أوروبة نقلت نشاطها من ايران حيث لم يعد لهم أي أمـل بالنجاح ، إلى بـلاد التتار الشمالية كمـا كانوا يدعون امبراطورية الفولغا ، وكان البابا يوحنا الثاني والعشرون يعتقد اعتقاداً جازماً بأن (أوزبك)مع أنه لن يصبح مسيحياً فإنه يمكن اقناعه أن يتبع سياسة التسامح الديني ويبيح للمسيحيين تأسيس مراكز تبشيرية ، وقد كان البابا يشعر أن هنالك اشخاص يؤيدون المسيحية في بلاط الخان من الأمراء ذوي النفـوذ والأميرات وكذلك ولي العهد ( تيني بك ) ، وقد أصبح الحلم برؤية دولة مسيحية في ساراي بدلا من ( السلطانية ) يبدو أقرب إلى التحقيق من أي وقت مضى ، وهكذا هرعت أعداد من المبشرين والمبعوثين تتسابق إلـى الحضور إلى ساراي وإلى منطقـة الفولغا ابتداء من عـام ١٣٣٨ ، وكانوا يتوقفون في طريقهم في مستوطنات مدينة جنوى في القرم ، تلك المستوطنات التي كان البابا قـد بسط نفوذه عليها ، وأرسل إليها أساقفة من اللاتين ، وهكذا أسست بطركية لاتينية في ( ساراي )بجانب البطركية الأرثوذكسية التي كانت قد أسست عام ١٢٦١ لخدمة المجتمع الروسي النامي .

وفي أثناء ذلك أصبح الوضـع في روسيا مقلقاً فقـد كانت النزاعات والحروب متواصلة بين الأمراء الروس لاكتساب مرضاة الخان ولنيل لقب الأمارة العظمى ، وقد أوجب هذا السهر الدائم والترقب المستمر والانتباه في بلاط (ساراي)، وبعد تردد طويل أنعم ( أوزبك ) بلقب ( الأمير العظيم ) على الأمير المسكوفي ( إيفان الأول ) عام ١٣٢٨ لأنه اعتبره من الاشخاص الذين يمكن الوثوق بهم ما دام أنـه قد تزوج أميرة تاتارية ، وأنـه كان كأسلافه متحمساً ومخلصاً في جباية الجزية من الأمراء الروس ودفعها للخان ، وبتعيين هذا الأمير حلت المشكلة الروسية موقتاً .

لقد وصلت الحياة الثقافية في القبائل الذهبية إلى الأوج في زمن حكم أوزبك ، فمعظم الأبنية والأعمال الهندسية التي كشفتها الحفريات والتنقيبات

يعتقد أنها شيدت في زمنه مع أن ندرة وجود مصادر مكتوبة وغياب التواريخ يجعل من الصعب تحديد تاريخها تحديداً صحيحاً ، وبالتالي من الصعب التثبت من صحة هذه الفرضية ، ومع ذلك فكان من الواضح أن الخان باعتناقه الديانة الاسلامية هو ونبلاؤه قد قاد شعبه بمجموعه إلى اتباع الطرق والأساليب الإسلامية ووضع الشريعة الاسلامية موضع التنفيذ بدلاً من ( الياسا ) ، وهكذا بدأ الفنانون المصريون والسوريون ورجال العلم يعملون بلا حرج وبدون أي ازعاج ، وقد قويت العوامل الفنية الآتية من آسيا الصغرى باستمرار وخصوصاً في منطقة القرم ، وقد ساعد في هضم وتمثل العناصر الثقافية والفنية واللغوية انتماء السكان في كلا البلدين إلى الأصل التركي .

عندما ظهرت الدولة العثمانية الفتية لم تستطع مصالح القبائل الذهبية أن تتماشى بسهولة مع هذه الدولة إلا أن توسع تلك الدولة العثمانية أدى إلى نشوء دبلوماسية ثورية بالنسبة لمركز ( ساراي ) والقبائل الذهبية .

في عام ١٣٥٤ نجح الأتراك في عبور مضيق الدردنيل وأنشأوا موطىء قدم لهم على الشاطىء الأوربي ، وهكذا توقف نفوذ الامبراطور البيزنطي الضعيف في السيطرة على التجارة وحركة المرور في هذا المضيق ، إذ لم يكن لهذا الامبراطور القوة الكافية أو حتى النيَّة للوقوف في وجه التجارة بين القرم والقاهرة ، إذ كان لا يزال مرتبطاً بمعاهدة تجارية عام ١٢٨١ ، وعندما أصبح الأتراك العثمانيون مسيطرون على الدردنيل لم تعد هناك أية امكانية لتقوية العلاقات مع مصر ، تلك العلاقات التي أصبحت أقل وثاقة من قبل ، وهكذا فقد حُرم شعب القبائل الذهبية من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط ، وحتى من الاشتراك في دراما السياسة العالمية بالقدر الذي تستطيع أن تشغله هذه القبائل على شواطىء هذا البحر ، وقد أصبح الوضع الجديد لا يختلف عن وضع الامبراطورية الروسية في الأزمنة الحديثة ، فالعوامل الجغرافية قد حولت إمبراطورية القبائل الذهبية إلى دولة أوروبية شرقية لها دور قادم سوف تشغله على مسرح الأحداث السياسية في تلك المنطقة .

لم يكن الخان ( جاني بك ) (١٣٤٢ ــ ١٣٥٧) مستعداً أن يتقبل بسهولة وبدون تحدٍ الخسارة الفادحة للجنوب وإمكانية الوصول إليه ، وكان هذا الخان هو الذي حقق النصر النهائي للاسلام بعد تغلبه على أخيه ( تيني بك ) المناصر للمسيحية بعد اعتلائه عام ١٣٤١ ، وقد كان ( أوزبك ) قد حاول غزو القوقاز عام ١٣٣٥ ، وهكذا انتهز ( جاني بك ) فرصة الفوضى التي ضربت اطنابها في ايران ليقوم بهجوم على نطاق واسع ، وقد زحف الخان متجهاً إلى تبريز عام ١٣٥٧ ، وقد قصد بهذه الحملة وبتحالفه مع الدولة المظفرية أن يفتح منفذاً إلى الجنوب كبديل عن الدردنيل ، ورغم إحجام الحاكم المظفري ، إلاّ أن انتصار ( جاني بك ) في أذربيجان مهد له السبيل لانشاء الاتصال المباشر مع سورية وما بين النهرين ، ولكنه مع ذلك لم يستغل انتصاراته هذه ، فقد ترك تبريز في الحال وعهد بحكم هذه المنطقة إلى ابنه ، ويقال بأن تركه المنطقة كان بسبب تفشي وباء الطاعون أو ( الموت الأسود ) الذي سبب وفاة عدد عظيم من الناس في القرم عام ( ١٣٤٨ ــ ١٣٤٩ ) وتوفي جاني بك بعد عودته إلى ( ساراي ) مباشرة ، إذ أنه قد جلب العدوى المميتة معه من أذربيجان ، وعندما اعتلى ابنه بردي بك العرش أسرع متجهاً إلى الشمال وذلك لخوفه من منافسة أخوته الكثيري العدد ، وهكذا انحسرت موجة الفتوحات المغولية ، وتركت منطقة القوقاز لتلاقي مصيرها المحتوم .

لقد ظهر أثر هذه الاضطرابات في وضع القبائل الذهبية دولياً بانقسام داخلي كامل ، فلم يتسن ( لبردي بك ) أن يحكم سوى سنتين فقط فقد خلعه أحد أخوته الذي سقط هو الآخر على يد أحد القتلة ، وهكذا أصبح القتل يتلو القتل ، والثورة تتلو الثورة ، وتعرضت الدولة في بنيتها إلى انهيار داخلي الأمر الذي رأيناه قبلا في بلاد ايران ، فقد تصارع كثير من المدّعين ، وقواد الجيش بوحشية وشراسة ، ولكن لم يستطع أي رجل واحد أن يؤمن لنفسه القوة المطلقة في حكم البلاد بأسرها .

لقد كان هذا الانهيار مريعاً ومبيداً ليس لأنه تصادف مع نمو ( الامارة العظمى ) في موسكو فحسب ، بل لأنه شهد نمو دولتين جديدتين : وهما مولدافيا ( شمال رومانيا ) وليثوانيا ، فقد احتلت مولدافيا مركزاً استراتيجياً ممتازاً ، ونجح حكامها في كسر شوكة التتار في منطقة الدانوب الأسفل ، فضلا عن زعزعة حكمهم في بسارابيا ، وقد أتى التهديد المباشر من القوة المتعاظمة لدى دوقية لثوانيا الكبرى ، التي بدأت منذ نشأتها بالتوسع أكثر فأكثر إلى الجنوب الشرقي ، وضمت إليها منطقة روسيا البيضاء باجمعها ، وقسماً كبيراً من شمال أوكرانيا ، ولكنها بدأت الآن تندفع جنوباً باصرار وعناد وباتجاه البحر الأسود ، وفي إحدى المعارك التي تسمى معركة ( المياه الزرقاء ) ( تدعى الآن نهر سينيوخا ) عام ١٣٦٢ ربح اللثوانيون نصراً هاماً على عصبة الاقطاب المغول في بودوليا ، وهذا قد أدى إلى طرد جباة الضرائب التتار والسلطات المحلية الأخرى من المنطقة وإلى تنصيب أسرة لثوانية من الأمراء كحماة لبودوليا وفولهينيا والكربات حتى حدود هنغاريا ، وكان هؤلاء يحمون الحدود ضد غزوات التتار ويضايقون المسلمين في المقاطعات الساحلية بين مصبي نهر الدينيستر والدينيبر ، وكنتيجة لجهودهم استطاع هؤلاء اللثوانيون احتلال مدينة كييف عام ١٣٧٠ ، وهكذا ربحوا قاعدة هامة للعمل ضد قوى السهوب .

وقدم هذا الحادث ( أي هجوم اللثوانيين ) نوعاً من التحدي لموسكو التي لم تستطع أن تبقى مكتوفة الأيدي عندما احتلت دولة أجنبية مثل ( لثوانيا ) أجزاء كبيرة من أراضي الروس القديمة ، مع ادعاء الدوق الأعظم اللثواني فيتولد ( ١٣٧٧ ــ ١٤٣٠ ) بأنه « جابي الجزية والضرائب عن الأراضي الروسية » وهنا ظهر نوع ومصدر جديد للتوتر ، وهو أنه في عام ١٣٨٠ هُزم القائد التتاري ( ماماي ) على يد المسكوفيين في معركة كوليكفوبولاي ( ومعناه حقل صيد الاعداء ) على نهر ( الدون ) ، وقد

تحطمت جيوشه وسرعان ما قضي عليه نهائياً ، ولكن هزيمته هذه لم تؤثر في اضعاف قوى القبائل الذهبية لأن هذه الهزيمة مكنت توختميش أحد المطالبين بالعرش والذي كان يدعمه حاكم آسية الوسطى ( تيمور ) أن يحرز انتصاراً نهائياً على منافسيه ، وأن يعيد تأسيس وتنظيم حكومة ثابتة متوازنة في مملكة التاتار، وفي عام ١٣٨٢ قاد هذا حملة ضد موسكو، وبعد حصار المدينة أجبرها على أن تعود لدفع الجزية .

ولكن حيوية وشباب القبائل الذهبية ما لبثت أن عادت إليها من جديد بشكل مثير ، عندما ظهر فجأة في وسط تلك البلاد فاتح قُدر له أن يهمين ويسيطر على جميع أقاليم آسية الغربية ، وهو ( تيمور ) .



# مصر في عهد المماليك البحرية

بعد أن ألقينا نظرة على الدويلات المغولية في العالم الإسلامي ، وعلى الخصام والنزاع الـذي حدث بين الإلكخانات في بـلاد إيران وجيرانهم في الشمال ، لا بد وأن نلقي نظرة على الشؤون في مصر ، وهـي تتطلب بعض الفحص والتدقيق من خلال الصورة العامة للاوضاع . كان وادي النيل مهد القوى التي أوقفت المد المغولي ، واستمرت في معارضة الإلكخانات بعناد ، وكانت أراضي وادي النيـل أيضاً المركـز الذي استمر بـه تطور الحضارة الإسلامية دون انقطاع كالذي حدث في أماكن أخرى ، وذلـك لأن مشعل التعاليم الاسلامية أصابه بعض التوقف عن متابعة الاشتعال في مواقد آسيا الغربية لمدد تتراوح بين العقود وفي بعضها القرون ، وكذلك في إيران وما بين النهرين وحتى إلى حد ما في سورية ، رغم اخفاق المغول في كسر شوكة مصر في تلك البلاد ( سورية ) ، وفي أثنـاء العهود الأخيرة من القرون الوسطى أصبحت مصر مركز الحياة الفكرية في الشرق الأوسط، وبصورة خاصة وجدت العلوم الاسلامية والفقه الاسلامي ملاذاً وموئلاً على ضفاف النيـل حيث استمرت في الوجود بشكل انسيابي وأحياناً بشكل متحجر .

لقد عانت مصر كما حدث في بلدان الشرق الأدنى الأخرى ، من تحولات عظيمة في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي ، فبعـد سقوط حكم الأسرة الأيوبية استولى على السلطة جماعة المماليك واختاروا لهم أميراً وهو ( قطز ) الذي انتصر على المغول الغزاة لأول مرة انتصاراً حاسماً في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ ( كما سلفت الاشارة ) ومع أن ( قطز ) قتل بعـد انتهاء المعركة مباشرة لأسباب شخصية ، إلاّ أن قاتله ( بيبرس ) أثبت أنه إحدى الشخصيات

العظيمة في التاريخ الاسلامي ، ولا تزال أعماله البطولية مصدراً للالهام الشعبي الرومانسي ، وفي أثناء حكمه تم وضع اللمسات الأخيرة لنظام المماليك في مصر ، ففي القمة وقفت الارستقراطية المختارة من الجهاز العسكري ، وكان السلطان هو حامي امتيازات هذه الطبقة ، وقد حاول أن يجدد شبابها باستيراد عبيد اضافيين واختيارهم بدقة متناهية ، وقد أتى هؤلاء العبيد من جنوب روسيا والقوقاز ، وكانوا يشحنون بالسفن إلى الاسكندرية على يد وسطاء بيزنطيين وإيطاليين ، ولكن بما أن العناصر القوقازية كانت ممتزجة بالعناصر التركية ، فقد احتفظت الطبقة الحاكمة بالشخصية التركية ، ليس فقط باللغة المستعملة على ضفاف الفولغا ، ولكن بالثقافة العامة والحياة الاجتماعية ، وبالاختصار فقد كانت البنية الداخلية للدولة المملوكية تشبه بشكل عريض بنية الدول المغولية التي ظهرت في ذلك العصر ، وأوجه الشبه هذه تساعدنا في فهم الحقيقة ، وهي أن مصر أصبحت ــ موطن منظمات عسكرية قوية يدعمها نظام تجسس فعّال خصّص بصورة رئيسية للدفاع ضد المغول ، وكانت مصر مدينة" في استقلال أراضيها للنجاح الذي أحرزته هذه المنظمات العسكرية في البلاد ، ولم تكن الأنظمة العسكرية والأسلحة وسمات البطولة وأساليب القتال متشابهة في كلا الطرفين فحسب ، ولكن في مصر كما كان الحال في ايران أدخل النظام العسكري ذي الصفات والميزات التركية على نفر من السكان غرباء على هذا النظام ، فالنظام المملوكي الاقطاعي والنظام المغولي الاقطاعي كانا متشابهين جداً ، وكلاهما ساهم في التطور التالي للنظام الاقطاعي العثماني ، وكانت الظاهرة الرئيسية في هذا النظام هي تركيز وجمع الأراضي كاقطاعات عسكرية سيطر عليها مجموعة من الغرباء المسيطرين والحكام ، وكان هذا النموذج الاقطاعي سائداً في كل مكان .

وكانت المهن العلمية والقانونية منظمة على خطوط مماثلة لهذه الخطوط تقريباً ، وقد كانت تعتمد اقتصادياً على الدخل من عائدات الأوقاف ، وهي أملاك كان يوقفها الاثرياء الأتقياء المسلمون ليصرف ريعها على العلماء

والفقهاء ، للقيام بسد حاجاتهم الدنيوية ، مع العلم أن أحفاد وأنسال الواقفين يتمتعون بوظائف اسمية تكفيهم مؤونـة الحياة أو اقطاعيات صغيرة غـير خاضعة لمصادرة المماليك الذين كانوا دائماً مفلسين وبحاجة للمال ، وهكذا كثرت الأراضي الزراعية وحتى الاملاك من البيوت في المدن التي خصصت لأغراض وخدمات دينية للبر والاحسان ، وبما أن العلوم والفقه الديني هي الوسائل الوحيدة التي يستطيع السكان الوطنيون أن يتبوأوا بها الوظائف العالية في الدولة لذلك كثر العلماء الدينيون والفقهاء ، وكان همهم الوحيد هو جمـع العـلوم والتعليق عليها ولـم تظهر أيـة محاولة خلاّقة للتأليف خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وأما كتابة التاريخ فكانت عبارة عن سرد للحوادث ليس بها أي نوع من الإبداع مع أنه تم تصنيف كتب كثيرة مـع معاجم سير وتراجم المشهورين مثـل كتاب[1] الصفدي ١٢٩٦ ــ ١٣٨٣ وكتيّبات عـن الحكام والادارة ككتاب القلقشندي[2] ( توفي عام ١٤٢٨ ) وقد ظهر بعض العلماء الذين نادوا بالاصلاح الديني مثل ( ابن تيمية ) في دمشق ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨ ، ولكن حركته لاقت مقاومة عنيفة ، وكان يدعو إلى مبادىء الاسلام الفطرية القديمـة ، وهذا كان يعد تحدياً صريحاً للمدارس الدينية المقبولة والمعترف بهـا رسمياً في مصر ، ولكن آراء ابن تيمية ظلت تعمل بهدوء ، وفيما بعد أثرت بصورة عظيمة على الحركة الوهابية المعاصرة .

أما النواحي الادارية الصرفة فقد تركت للمماليك الذين كانوا يفضلون الاجراءات العسكرية الصرفة ، ولكن كانت الوظائف الادارية تناط أحياناً بموظفين مسلمين مصريين ، وعلى العموم كانت الوظائف الادارية تقع ضمن اختصاص المسيحيين ( وخصوصاً الأقبـاط ) واليهـود الذين كانوا رغـم الاضطهادات التي وقعت عليهم ( مثـلا عام ١٣٠١ وعام ١٣٢١ ) لا يزالون

---

(١) الوافي بالوفيات .

(٢) صبح الاعشى .

العناصر الأساسية التـــي تؤلف البيروقراطية في حوض النيـــل خصوصاً في الوظائف الخاصـــة بحفظ السجلات وجبايـــة الضرائب ، وبقيت الأساليب البيروقراطية التقليدية متبعة ، وظلت دواليب الدولة الادارية دائرة باستمرار رغم الانفجارات والانقلابات التي كانت كثيرة الحدوث بين السادة والقواد ، ولم يكن هؤلاء القواد المماليك يؤمنون بنظرية الوراثة في الحكم بل كانوا يفضلون أن يستلم الحكم الرجل الأقوى ، وقد بقي الوضع غير مستقر خلال الفترة الواقعـــة بين ( ١٢٥٠ – ١٣٨٢ ) التي استلم الحكم اثناءها المماليك البحرية ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأن ثكناتهم كانت في جزيرة الروضة فوق نهر النيل الذي كان يسمى ( بحر النيل ) ، وقد طُرِد ابن بيبرس بعد سنتين من وفاة والده عام ١٢٧٧ أثناء حملة قام بهـا ضد المغول في آسية الصغرى ، وقد حكم بعده قلاوون ( ١٢٧٩ – ١٢٩١ ) وقد اشتهر هذا بأنه استولى على الساحل السوري ، وطرد ما بقي من الصليبيين واحتل مواقعهم على طول الساحل السوري ، ويشتهر أيضاً أنه كان المنظم للجيش المملوكي ، وقد تبعه أربعة أجيال من الحكام من نسله ، ويمتـــاز أحدهم ويدعى الملك الناصر الذي ورث العرش وهو طفل عام ١٢٩٢ ، وحكم ( باستثناء فترتين قصيرتين أقصي بهما عن الحكم ) حتى عام ١٣٤١ ، يمتاز حكمه بالاستقرار في الدولة ، وذلك بعد طرد مغول ايران وإخماد تمرد حدث في مصر العليا ، وبعده بدأت مؤامرات القصر تظهر وأصبحت العادة السائدة ، ولكن وجود الخليفة أثناء تلك الاضطرابات بدا وكأنه رمز من رموز الاستقرار بصفته الحاكم الإسمي للبلاد ، وكان الحكم المملوكي في أوج قوته يمتد إلى برقة من الغرب ومصوع جنوباً فضلا عن جميع أراضي سورية حتى منتصف حوض الفرات ، وقد سقطت آخر معاقل الصليبيين بيد المماليك بين عامي ١٢٨٩ أو ١٢٩١ ، وقد رأينا في الفصول السابقة أنه بعد سقوط بغداد استقبل أحد أفراد الأسرة العباسية في بغداد بعد أن فر إلى القاهرة، واعترف به بيبرس خليفة عباسياً في القاهرة ، وقد قصد من هذه الخطوة إضفاء الشرعية والقوة على

حكومة المماليك ضد المغول الوثنيين ، واعطائها بعض الهيبة والكرامة بين المسلمين لكون هذه الحكومة تحمي الخليفة ، ولكن مردود هذه الخطوة كان متواضعاً جداً ، فلم يعترف بالخليفة العباسي في القاهرة سوى بعض الأقاليم في الهند مبدئياً في منطقة القبائل الذهبية ، ولكن وجوده أضفي على نظام المماليك نوعاً من الشرعية ، وفي الحقيقة كان الخلفاء العباسيون رؤساء روحيين ليس لديهم أي سلاح دنيوي ، ذلك السلاح الذي كان يطلب منهم أن يقدموه للسلاطين المماليك الذين نصبوهم حراساً للسلطة ، وان اعتراف اشراف مكة والمدينة بالسيادة المصرية ساعد على زيادة نفوذ السلاطين المماليك .

وإنه فضلا عن بناء القوة العسكرية الضخمة التي استطاعت أن تصد المغول ، وفضلا عن حماية ورعاية العلم والعلماء ، إلاّ أننا نجد أن الدولة المصرية المملوكية ساهمت في إتمام انجازات عظيمة في فن المعمار كالمساجد والحمامات والمقابر الملكية ، وفي الفنون الجميلة والصناعات ، وبدأت مصر في استئناف مركزها المتوسط في التجارة والعلاقات السياسية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، ذلك المركز الذي كانت تحتله منذ القديم ، وحتى مجيء الاسلام ، ( وذلك حسب أبحاث هنري بيرين في مؤلفاته[1] ) وقد حافظت على علاقاتها التجارية مع القسطنطينية ، واشتركت معها في مقاومة التهديدات المغولية ، والحقيقة أن سورية كانت تؤلف معقلا حصيناً ضد غزوات المغول ، وكانت الحدود الشمالية السورية قد انتقلت من حكم بيزنطة إلى حكم السلاجقة ، ثم لأرمينية الصغرى ثم ( للإلكخانات ) ( وفي عام ١٣٧٥

---

(١) مؤرخ من أصل بلجيكي ، عاش في فرنسة وشهر بكتاباته عن تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، وخاصة الجوانب الاقتصادية ، وقد سجن من قبل النازيين ابان الحرب العالمية الثانية ، وشهر بفكرته عن بداية العصور الوسطى ، حيث قال بأن هذه العصور بدأت بعد قيام الفتوحات الاسلامية وبسببها ، وردد ذلك أولا في عدد من المحاضرات ألقاها في الولايات المتحدة ، ثم أكد هذا في كتاب نشر بعد وفاته بعنوان محمد وشارلمان ، وقد أحدث هذا الكتاب ضجة علمية كبيرة وما زال ، فمن الباحثين من يقول مع بيرين : « لولا محمد لما كان هناك شارلمان » ومنهم من يرفض ذلك جزئياً أو كلياً . س.ز

احتل المماليك (أرمينيا الصغرى) وضموها إلى امبرطوريتهم)، وأما المنافسة القديمة بين المماليك وبيزنطة فقد خفت حدتها، وكانت البندقية وجنوى قد بدأتا في مد نفوذهما التجاري إلى المشرق، وقد ساعدت الحروب الصليبية على نجاحهما في مهمتهما، فقد ثبت أنه من الممكن أن تشتغل أوروبا المسيحية والمشرق المسلم جنباً إلى جنب بسلام ووئام، ويستفيد بعضها من بعض رغم كل الفروق، وهكذا ذهبت حدة ذلك الخطر والحرمان الذي كان سائداً، والذي أبقى المسلمين والمسيحيين في حالة انفصال دائم مع وجود ذلك التراث الديني والثقافي المشترك، وبدلاً من ذلك بدأت فترة من التزامل المتبادل كما كان الحال مرة في اسبانيا، وفي صقلية، وليس من الممكن أن ندخل في تفاصيل في هذا البحث حول التجارة المتزايدة في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكننا سوف نشير إشارة خاصة للأحلاف السياسية التي شملت مصر وصقلية والجمهوريات الإيطالية واسبانية، تلك الأحلاف التي أثارت حفيظة المغول في بلاد ايران وجعلتهم يبحثون عن ايجاد علاقات مع أوروبا الغربية والوسطى وفي تلك الفترة كانت منطقة الشرق الأدنى وشمال أفريقية وأوروبا قد انتظمت في نظام دبلوماسي مشترك، وأحرز الشرق والغرب إلفة ومحبة في علاقاتهم المتبادلة بشكل لم يسبق له مثيل منذ الأزمنة القديمة، ومن هنا تبدأ أصول قضية السياسة الشرقية التي اعتنقتها الدول الأوربية وتبدأ بذور نظام الامتيازات الأجنبية والمسألة الشرقية التي كثر النقاش حولها فيما بعد.

ومن مصر علينا أن نشد الرحال إلى أرض تقع في الجنوب الشرقي من العالم الاسلامي، تلك الأرض التي عاش سكانها في أول الأمر في حالة عزلة تامة، ولم يخرجوا من تلك العزلة إلا في القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر الميلاديين ونعني بها بلاد الهند.

* * *

# الهند قبل تيمور

وصل العرب المسلمون إلى الهند خلال الموجة الثانية من التوسع الاسلامي وفي نفس السنة ( ٧١١م ) التي وصل بها العرب إلى اسبانيا ، ولم يخترق العرب الظافرون إلاّ مناطق محدودة من شبه القارة الهندية الضخمة ، وهي منطقة السند والبنجاب السفلى التي فتحها محمد بن القاسم الذي كان يهدف لفتح مدينة ( مولتان ) قرب نقطة التقاء الروافد الخمسة التي تؤلف نهر السند [ الهندوس ] ، وقد بقيت هذه المدينة لعدة قرون مركز الهند الاسلامية، وأما مشكلة معاملة الشعب الهندوسي من قبل المسلمين فقد تقررت طبقاً للسابقة التي وجدت في بلاد ايران فكما أن الزرداشتيين في ايران قد عوملوا بمنتهى التسامح والحرية الدينية رغم النصوص القرآنية الحرفية[1] ، إلاّ أن المسلمين تغاضوا أيضاً عن الهندوس ولم يظهر الخلفاء الأمويون المتسامحون في دمشق أي اعتراض على تلك السياسة التي اتبعت في الهند، وقد أظهر المسلمون منتهى الحكمة بالامتناع عن اجبار الهندوس على التحول إلى الاسلام ، لأنه لولا اتباعهم هذه السياسة لكانوا قد جلبوا على أنفسهم الخسران والخراب بسبب الثورات والتمردات التي كانوا سيواجهونها على يد الأتباع الوطنيين ، أو بسبب الغزوات على يد أمراء هنود مجاورين[2] ، والحقيقة أن الأمور سارت سيراً جيداً وبقي المسلمون في الهند قرابة عدة قرون ، وعندما

---

(١) كذا دون تبيان ، وهو لذلك مرفوض فنص القرآن الكريم هو الذي ينادي بأن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ــ البقرة : ٢٥٦ . س.ز

(٢) مثل هذا الكلام لا يصدر عن الباحث التاريخي الحيادي ، فالباحث في التاريخ يبحث فيما حدث ولا يتنبأ فلا وجود لـ « لو » في التاريخ . س.ز .

نزع الحكام في الولايات الايرانية عنهم السلطة المركزية التي كانت لبغداد لم تعد الاراضي والبلدان الهندية تطيق أن تحكم كولاية ، بل تحولت إلى إمارتين مستقلتين انتقلتا عـام ٩٠٠ م إلى تسلط الحكام القرامطة ، ولقد تطورت الأحوال الداخلية على نفس الخطوط التي شاهدناها في مصر وما بين النهرين ، ومع أن عبء الضرائب على السكان المحكومين لم يكن باهظاً ، إلاّ أن الأمل في اشتراك الطبقة الحاكمة أدى إلى مجادلات ومناقشات فيما بينهم على نفس المستوى كما حدث في ذينك القطرين .

لقد حدث أول تغيير في الوضع السياسي في الهند عندما بدأت الأسرة التركية الغزنوية بالتدخل في شؤون الهنـد ، وكانت هـذه الأسرة تحكم في شرقي إيران ، وقد أشرنا من قبل الى أصل الغزنويين ودورهم في حكم بلاد إيران ، كما أكدنا في حينه على حقيقة أن سياستهم ( شأن الأمم الأخرى التي احتلت شرقي إيران ) كانت تهدف إلى احتلال الهند في المقام الأول .

وكانت أعظم شخصيات هـذه الأسرة هي شخصيـة محمود الغزنوي ( ٩٩٧ ــ ١٠٣٠ م ) الذي عبر عن حماسته وغيرته في نشر الدين الإسلامي ، ذلك الدين الذي كان قد اعتنقه أسلافه منذ فترة قريبة ، ولما كـان الأتراك يشعرون أن مستواهم الثقافي أقل مـن العرب والإيرانيين في جميـع فروع النشاطات الثقافية والعقلية ، لذلك جعل محمود الغزنوي مـن نفسه حامياً للفنون والعلوم ، وقد كان الفردوسي والبيروني الذي ارتاد الهند[١] ، هذان العالمان يعتبران من ألمع الشخصيات التي رعاها وحماها هذا السلطان . هذا وقد تميَّز موقف الأتراك بالنسبة للإسلام في القرون التالية بصفتين رئيسيتين متلازمتين : حماية الفنون والعلوم الاسلامية ، ثـم السعي الحثيث بحماسة

---

(١) ظهرت معارفه عن الهند في كتاب: « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » .س.ز.

وباستعمال القوة العسكرية أحياناً لنشر الدين الإسلامي وذلك بفتح أراضٍ جديدة وتكوين دول جديدة ، ولقد اعتبر محمود الغزنوي وادي نهر السند هدفاً مغرياً لطموحاته وذلك لاحتواء هذا الوادي القرامطة الهراطقة والهندوس الكفار الذين رأى أنه يجب معالجتهم والقضاء عليهم ، وبعد حوالي أكثر من عشرين غزوة ابتداء من عام ١٠٠٦ والسنوات التي تلتها ، فرض محمود السيادة الإسلامية وثبتها في تلك المناطق بالحديد والنار، ولم يشعر بأي ندم أو وخز ضمير من أي نوع كان ، عندما اتبع سياسة نشر الإسلام بالقوة ، هذا الأمر الذي كان يسمح به طبقاً للمعنى الحرفي للشريعة والتفسيرات الحرفية للقرآن الكريم ، وقد بدا أن المسلمين سوغوه بالنسبة الى الهند لأنهم اعتبروا الدين الهندوسي وما يحتويه من الأوثان الدنسة المتعددة ، اعتبروه شكلاً كريهاً من أشكال الوثنية[1] ، ولقد أبدى الهندوس مقاومة ضارية ، ولكن دون جدوى وأخيراً سقط البنجاب جميعه بأيدي المسلمين ، ولكن اقليم ( قوجارات ) في أقصى الجنوب ، قاوم مقاومة ناجحة واستطاع أن يحتفظ باستقلاله لمدة قرنين قادمين .

وبعد موت محمود الغزنوي اضطر ابنه مسعود وبسبب الحوادث التي حدثت في إيران بعد موت والده[2] ، أن يُنيط إدارة الولايات الهندوسية الى ولاة برهنوا أنهم غير أكفاء ، الأمر الذي أثار ميول الولايات للاستقلال عن ( غزنه ) ، وأخيراً اضطر مسعود أن يُعين قائداً هندياً في خدمته وهو : ــ تلك ــ وأمره أن يُعد حملة ويقودها ضد الولايات الثائرة ، وقد أحرز هذا القائد نجاحاً كاملاً ، ترك الغزنويين وقد أمّنوا السيادة الكاملة على وادي السند ، بالاضافة الى عاصمته ( لاهور ) ، إلا أن جيوش الغزنويين أصيبت بنكسة عام ١٠٤٤ ، بعد أن هاجموا المنطقة وأُوقفوا على يد المقاومة

---

(١) في هذا العرض تحامل شديد على محمود الغزنوي ، تثبت غالبية المصادر عكسه . س.ز .

(٢) يشير بذلك الى الصراع مع السلاجقة حول خراسان ، وقد بحثت هذا الامر بشكل مفصل في كتابي « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » .

العنيدة التي أبداها الأمراء الهندوس الوطنيون ، ويمكننا في هـذه المرحلة أن نعتبر أن البنجاب والسند أصبحتا جزءاً من العالـم الإسلامي ، كما هما عليه الآن فعلاً ، وقد احتفظ الغزنويون بسلطتهم فوق هـذه المنطقة وفوق منطقة في إيران الشرقية ( تقابل بعض أجزاء من أفغانستان الحديثة ) مـدة مقدارها قرن ونصف قرن آخر ، وابتداء مـن عام ١١١٧ فصاعـداً اعترفوا بسيادة السلطان السلجوقي ( سنجر ) على أملاكهم الإيرانية التي انتزعها منهم ( الغوريون ) عام ١١٥١ ، وبقي البنجاب تحت حكم الغزنويين حتى عام ١١٨٦ ، ثم عاد فخضع للغوريين الـذي اشتهروا بسلوكهـم الوحشي وتخريبهـم المنقطع النظير .

لم تؤد فتوحات الغوريين إلـى تأسيس نظام خاص بهم ضمن حـدود الأقاليم التـي كانت خاضعة للغزنويين فحسب بل ورطوا المسلمين بأعمـال توسعية جديدة ، فلـم يكد الحاكم الغوري ( غياث الدين محمود ) يوطـد أقدامه في الهند حتى شرع في حملة على رأس فرقه المدربة لغزو وادي الكنج ، ولما كان الهنود في ذلك العصر ( شأنهم في جميع العصور ) يقلون قوة وتدريباً عسكرياً عن جيرانهم الشماليين ، لذلك أصبحت نتيجـة تلك الحملة لصالح الغوريين دون قيد أو شرط ، فتقدم أولاً ( معز الدين محمود ) ، وبعده مملوكه المفضل ( ايبك ) وأخيراً ( اختيار الدين محمود ) التركي من قبيلة ( خلج ) جميعهم تابعوا الضغط ونجحوا ( باستثناء بعض الانتكاسات القليلة ) في احتلال دهلي ( دلهي ) عام ١١٩٠ ـــ ١١٩٨ ، ثم تابعوا زحفهم إلى البنغال ومصب نهر الكنج عام ١٢٠٢ ، وبهذا قضوا على آخر الممالك البوذية في أعالي الهند ، وفي هذه الفترة الزمنية القصيرة توطدت دعائم الحكم الاسلامي في شمال شبه القارة الهندية ، ومهدت الطريق أمام تغلغل الدين الاسلامي في أجزاء كبيرة من شمال الهند والبنغال ـــ بما في ذلك جميع تلك المناطق التي أصبحت منذ الخامس عشر من شهر آب عام ١٩٤٧ تدعى بالباكستان والتي

تشمل على مجموعات من السكان معقدة التركيب عنصرياً ولغوياً وتتألف من حوالي ٨٠ مليون نسمة[١] .

لقد استغرق توطيد دعائم الامبراطورية الجديدة في شمال الهند وقتاً طويلاً ، إذ أن قوة الغوريين بدأت بالانحلال بعد موت مؤسسيها العظيمين الاخوين غياث الدين ومعز الدين في عام ١٢٠٣ و ١٢٠٦ على التوالي ، ومن ثم انقرضت تلك الأسرة ، وبعد موت (أيبك) عام ١٢١٠ تمزقت البلاد بالحروب الأهلية التي كان سببها الرئيسي التركيبة الغريبة للهيأة الحاكمة ، فقد كانت هنالك ظاهرة ملاحظة في العالم الاسلامي خلال القرن الثالث عشر [ في الأندلس قبل ذلك ] ، وهي أن أنظمة الحكم قد سيطر عليها المماليك ، وهم جماعة من العسكريين الدخلاء ، وأكثرهم من أصل تركي جعلوا أنفسهم أسياداً لأقطار شعوبها غريبة عنهم ، وأما الموظفون الاداريون العاديون فكان معظمهم من المماليك أيضاً ، وهؤلاء استغلوا موارد الدولة وأموالها لمصلحتهم ، واستولوا على كثير من الأراضي والأملاك ، ومن بينهم جاء السلاطين الذين انتمى بعضهم إلى بعض ، أو أسس أسرة تعترف بحق الوراثة في المناصب والحكم ، إلا أن بعض السلاطين كان ينتخب انتخاباً أحياناً ، وغالباً ما يفرض نظراً لقدرته ومكانته العسكرية ، ولم يظهر هذا النوع من النظام في الحكم في الدولة السلجوقية أو الدولة المغولية إلا بعد عدة عقود عندما أصبح وارثو العرش من السلاجقة أو أحفاد جنكيز خان ، رجالا تعوزهم الكفاءة ، أو أطفالا دون سن الرشد ، عندها ظهر حكم المماليك في هذه الأقطار ، وكان الورثة الشرعيون أحياناً يبقون في الحكم ، ولكن بصورة اسمية وعلى شكل دمى متحركة ، وقد ساد هذه النوع من النظام في الأندلس وفي أجزاء من شمالي افريقية والآن في الهند ، ولم يكن هنالك مجال لديمومة مثل هذه

---

(١) هذه المعلومات ليست مقبولة الآن ، فباكستان انشطرت ، وعدد السكان فيها وفي البنغال أكبر من الرقم المقدم في المتن . س.ز .

الأنظمة ، ولكن بفضلها ظهر عدد من الرجال الموهوبين الذين تركوا بصماتهم وتأثيرات تلك الأنظمة على البلاد التي حكموها ، مما أثر في إضفاء الهيبة والقوة على هذه البلاد أو تلك ، ومن هؤلاء القواد كان صهر ايبك وهو ألتمش أعظم ( ملك مماليك ) دلهي ، وأول حاكم مسلم في الهند يستلم البراءة السلطانية من الخليفة ، وقد ناضل هذا السلطان طويلا حتى انتصر على الارستقراطية المملوكية المحلية ، المدعوة ( الاربعون ) ، وحكم بقوة وعزم مدة تزيد على الثلاثين عاماً حتى موته عام ١٢٣٦ ، ثم أتى بعده ( بلبن ) العبوس ، وهو تركي من عائلة عريقة من آسية الوسطى ، استلم الحكم لمدة عشرين عاماً كوصي ( أتابك ) على أحفاد ( ألتمش ) الضعفاء ثم قلب لهم ظهر المجن وحكم لوحده منذ عام ١٢٦٦ ، وبعد موت ( بلبن ) عام ١٢٨٧ مرّ على الهند فترة كالتي مرت على مصر في هذا القرن أثناء حكم الأيوبيين ، وعلى المغول وعلى أسرة محلية ايرانية حاكمة في ولاية ( فارس ) ، فقد استلمت الحكم امرأة قادرة وهي ( بديعة بيجوم ) ، وهذا النوع من الحكم لم يكن يسمح به العرب ولا الايرانيون ، ولكنه كان يتفق مع وضع المرأة في المجتمع التركي القديم ، فالأتراك في القرن الثالث عشر لم يكونوا قد تأثروا بالأوضاع في الشرق الأوسط ، وأما الوظائف الدنيا الإدارية في الدولة فقد استلمها موظفون وطنيون وكذلك الفقهاء والقضاة أصبحوا من الوطنيين في الهند وغيرها من البلدان الاسلامية كالسلاجقة والمغول والمماليك وغيرهم ، وقد استمرت أساليب الحكم القديمة كما كانت في السابق ، وكذلك طرق الحياة المعيشية مع أن السكان العاديين كانوا يتعرضون لأقسى صنوف الظلم والتعذيب ، وقد كانت الوظائف الادارية تناط بالطبقات العليا السابقة ، وهي التي تأتي بعد طبقة الحكام مباشرة ، وقد أعطيت لهؤلاء ادارة الشؤون العسكرية والخارجية .

وفي الشؤون الخارجية شغلت دولة المماليك في الهند دوراً يتماثل مع دور المماليك في مصر ، فقد كان هؤلاء المماليك مشغولين في صد الهجوم

ضد الجيران المعتدين ، زد على ذلك مقاومة المغول ، وقد كان وضع هاتين الدولتين متوازناً ولكن بأشكال مختلفة ، ففي مصر جابهوا النوبيين وقبائل بدوية قليلة ، وهذه المجابهة لم تكن ذات خطورة ، ولكن الخطر كان يأتي من مقاومة الثقل والعبء المتعاظم للدولة الإلكخانية على الحدود السورية ، وكانت سورية تتحمل الضربات من كلا الطرفين المتنازعين ، أما في الهند فكانت الأحوال تختلف عما في مصر ، فالأعداء المحليون كانوا أكثر قوة وبطشاً ، فقد ظهر الخطر الأول على الهند عندما أمر جنكيز خان أن يطارد الوريث الهارب لإقليم خوارزم ولعرشها عبر نهر السند ( كما سلف وذكرنا ) ولكن هذه الأوامر لم تلق أذناً صاغية من قبل الإلكخانات ، وهذا يفسر غياب أي ذكر لنشاطات هؤلاء في التواريخ الفارسية ، ولكن الحقيقة أن الهند كانت تتمتع بحماية طبيعية قدمتها لها جبالها الشامخة التي يصعب اجتيازها ، والتي ألفت خط حدود طبيعي منيع يفصل بين المصالح والقوى العسكرية والحضارات على كل من جانبيه .

ولكن في العقود التالية أصبحت الهند مسرحاً لغزوات مغولية متتالية ، وتغيرات متلاحقة على العرش بينما استؤنفت الاجراءات للحفاظ على المبادىء الإسلامية ، ومتابعة الضغط الذي أمر به القرآن على الكفار[1] ، وهنا يقصد بالكفار الهندوس ، ولهذا فقد أرسلت عدة حملات إلى الهند الوسطى وهضبة ( الدكن ) وإلى ( قوجرات ) التي خضعت للحكم الاسلامي ، وهنا نجد سلطان دلهي ( الخلجي ) وهو علاء الدين ١٢٩٠ ــ ١٣١٠ يظهر تفوقاً في الصفات القيادية هو وقواده مما أظهره على أخصامه ، وقد بدا واضحاً أن باستطاعة المسلمين أن يستولوا على الهند بأكملها ، ففي المدة الواقعة بين عامي ١٣٠٥ ــ ١٣١١ اخترقوا النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الهندية ، وأخضعوا جميع المناطق عدا القليل لسلطتهم ، وقد وجد علاء الدين متسعاً من الوقت

---

(١) كذا وهو غير صحيح .

لحماية الثقافة في بلاطه ، وأنعم على العلماء والأدباء بكثير من المال وبسخاء ، وقد ظهر في زمنه أعظم شاعر فارسي في الهند وهو ( أمير خسرو ) [مات ١٣٢٥] وألف أكثر قصائده وأعظمها ولكن بدأت عوامل الانحلال تظهر على الدولة حتى أثناء حياة علاء الدين ، وقد تبع موته سلسلة من ثورات القصر استلم السلطة بعدها العبيد المغامرون ، والمقربون ، بينما ذبح أفراد الأسرة الحاكمة جميعاً عن بكرة أبيهم حتى آخر طفل ، وقد لاقى الأعداء والمتمردون نفس المصير الوحشي ، ولكن ظهر في عام ١٣٢٠ القائد التركي تغلق وكان مسلماً مخلصاً فوضع حداً لهذه المهازل ، وانتخب سلطاناً وتحت رعايته الحكيمة بدأت الأمور تعود إلى نصابها إلى حدما ، ولكنه لم يحكم سوى خمس سنوات ، ففي عام ١٣٢٥ اغتاله ابنه محمد الثاني ، وكان طاغية جباراً أثار بطغيانه التمردات في جميع أنحاء البلاد ، ولم تجد حتى أقسى الاجراءات التي استعملها هذا الطاغية نفعاً للقضاء على هذه التمردات ، بل بالعكس أدت خططه الخرقاء ، لتحسين جباية الضرائب والعملة ونقل السكان من مكان لآخر ، إلى انتشار المجاعات والفقر الجماعي ، وبعد أن قام بحملة مخفقة لغزو الصين عن طريق التبت ( ١٣٣٧ ) ، أدت إلى تحطم جيشه ، أصبح في مركز ضعيف لم يستطع منع خسارته للبنغال عام ١٣٣٩ ، وبعدها الولايات الأخرى التي انسلخت عن حكمه تباعاً ، وقد استولى على ( هضبة الدكن ) أحد جباة الضرائب المغامرون الذي أسس الأسرة ( البهمانية ) في تلك البلاد ، وأما الاجزاء الأخرى من جنوب الهند فقد استطاع الهندوس فيها استرجاع استقلالهم ، وقد خلف ( محمد بن تغلق ) هذا ابن عمه ( فيروز ) ، وهذا أرجع شيئاً من الرخاء أثناء حكمه الذي دام من عام ١٣٥١ ـ ١٣٨٨ ، وذلك نتيجة لسياسته الاقتصادية الحكيمة ، فقد خفض الضرائب ، وجعل مصاريفه معقولة، وشجع الزراعة وأنشأ الطرق والأقنية ، ولم يقم بأية محاولة لاسترجاع هضبة الدكن وأخفق في إخضاع البنغال، وبدلا من الاهتمام بالشؤون العسكرية التي أنقصها إلى الحد الأدنى ، نجده يكرس نشاطه في فنون المعمار وخاصة

الاسلوب الهندي الاسلامي الذي تم تطوره منذ القرون الماضية ، وهكذا ترك لنا عدة أبنية جميلة ، لا تقل في روعتها عن أبنية المماليك في مصر ، وقد اتبع طريقة لطيفة في الحكم لا تتفق وروح ذلك العصر المضطرب ، وقد أضعف تماسك المملكة الداخلي بما وهبه من الاقطاعيات الصغيرة للضباط الأتراك المتنفذين وبمتابعته المعاملة السيئة التي عومل بها الهندوس( من خلال التعذيب والغرامات المالية ، مما أدى إلى اعتناق الكثيرين للدين الاسلامي ) وبعد موت فيروز أتت فترة مـن الانحلال والفوضى ، ما لبث أن تطورت إلـى خراب مطلق تحت وطأة ضربات فاتح مغولي جديد هو تيمور ، الذي علينا أن نبحث في أعماله وسيرة حياته .







# تيمور

في خضم الاضطرابات التي أحاطت بمنطقة ما وراء النهر والهند في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ظهرت عبقرية عسكرية جديدة في شخص أمير قبلي صغير هو ( تيمور ) وقد ولد في عام ١٣٣٦ ، وكان ابن ( تارجي ) وهو أحد شيوخ قبيلة ( برلاس ) وهي قبيلة تركية مغولية ، ومنذ نعومة أظفاره رافق تيمور الأمراء المتنفذين والقواد ، وعمل على جمع قوة لا بأس بها تأتمر بأمره ، وقد بدأ نجمه في الصعود ابتداء من عام ١٣٦٠ فصاعداً ، مع أنه كان عليه أن يواجه كثيراً من ضروب الخذلان في تلك الحروب القليلة الأهمية تاريخياً ، والتي جرت في منطقة ما وراء النهر ، وتختلف الروايات في إعطاء صورة عن المناوشات التي قام بها ، أو عمليات نهب الاغنام التي أصيب أثناءها بجرح سبب له العرج طيلة حياته، مما جعلهم يطلقون عليه اللقب الفارسي ( لانج ) أي الاعرج والذي حرفه الأوروبيون إلى تمرلين ، وبعد سنوات من القتال الذي كان معظمه ضد أصدقائه السابقين أخضع تيمور منطقة كاشغر وخوارزم ، وأنشأ جيشاً قوياً تتألف غالبيته من الأتراك أو من القبائل المغولية القديمة التي تتكلم التركية ، ولكي يحوز على رضا أتباعه ، كلف أحد أحفاد جنكيز خان بأن يصبح ( الخان ) الاسمي واحتفظ لنفسه بلقب متواضع جداً ، وهو لقب ( البيك ) أي « الأمير » .

وحتى بهذا الإجراء لم يستطع تيمور أن يعيد النظام إلى منطقة ما وراء النهر لأنه بدأ يفكر بالحملات إلى أراضٍ أخرى ، فأقام أحد أعوانه حاكماً على منطقة القبجاق وهو المدعو تُختمش ثم عبر نهر جيحون عام ١٣٧٩ بقصد البدء باحتلال بلاد العجم ، وقد سببت أعماله البربرية الوحشية موجة من

الرعب والهلع في الشرق وفي آسية الغربية بأجمعها ، من هذه الأعمال بنـاء اهرامات أو ابراج من جماجم وجثث القتلى من خصومه بعد كل معركة ، مما سبب ضعف المقاومة ضده خوفاً من وحشيته ، وكان يعمد إلى الاتصال بجيش العدو قبل المعركة ويحاول عقد مفاوضات مع الخونة وذوي الضمائر الضعيفة ــ وهكذا لم يكن يعتمد على قوته العسكرية فحسب بـل كانت هذه الوسائل تعطيه النتائج المطلوبة أحياناً بحيث كانت كتل كبيرة من جيوش العدو تهجر مواقعها في اللحظة الحرجة ، ففتوحات تيمور لم تكن كلها نتيجة لمهارته الحربية .

كانت حيـاة تيمور سلسلة من الحروب والغارات اللصوصية للسلب والنهب وهي لا تقل في ضراوتها عن حملات جنكيز خان إن لم تزد عليها ، وكانت عوامل الهلع فيها ناجمة عن خلوها من أي غرض سام فجنكيز خان ، وخلفاؤه بنـوا امبراطورية منظمة وشجعوا النمـو الاقتصادي والثقافي في مجموعة البلدان التي فتحوها وقربوها بعضها من بعض ، ثم أن خلفاء جنكيز خان سرعان ما أصبح لديهم تذوق للجوانب الحضارية في بلادهـم ، ولكن تيمور من جهة أخرى، ومع أنه كان حاد الذكاء ، كان خالٍ من الثقافة الأولية، فقد قوّم العلوم الانسانية لمجرد منفعتهـا وفوائدها المادية بغض النظر عـن قيمتها الجوهرية ، ولم يكن أي عمل من أعماله يسهم في أي تطور أو تحسين أي وجه من وجوه الحضارة في آسية ، وكان كثير من حملاته لا يقصد منهـا إلاّ السلب والنهب ، ولهذا فسوف نعمد إلى ذكر حملاته الهامة فقط ، وأما التفاصيل المنفرّة فسوف نضرب عنها صفحاً ، وقد أخضع تيمور في الفترة الواقعة بين ١٣٧٩ و ١٣٨٥ جميع منطقة بلاد ايران الشرقية وكسر شوكـة مختلف الأمراء المحليين بما فيهـم أمراء ( هـراة ) المهيبين ، وكان يخمـد كل الثورات التي تنشب دومـاً وبعدها بدأ بالزحف غربـاً لاخماد شأفـة تختمش ، وانهاء تحديه لـه ، وهو أحد رجاله المقربين الذي عينـه مؤخراً

نائباً له ، لكنه بدأ في تنظيم دويلات آسية الغربية في نظام من الأحلاف ضد سيده القديم ، وبعد ذلك عندما أخفقت خططه انقض على تبريز ، وفي عام ١٣٨٥ والسنتين التاليتين زحفت فرق تيمور الحربية من أذربيجان وجورجيا وأرمينيــة وشمال ما بين النهرين لمطاردة فلول جيش تختمش وحامياتــه في المدن ، وأخذت في ذبح عشرات الألوف من السكان ، ونهب أعداد لا تحصى من المدن الصغيرة والكبيرة ، وقد ادعى أن من واجبه كمسلم متين الإيمان ، مخلص في إسلامه أن يضطهد المسيحيين الذين لاقوا العذاب المهين على يديه وعلى يدي جنوده ، ونتيجة لهذه الحملة توجه إلى أصفهان وشيراز حيث طرد الأمراء المحليين ، وقام بأعمال فظيعة ، وحشية لم يسمع بها من قبل ، ولــم يسبق لها مثيل خصوصاً في أصفهان ، ولما سمع أن تختمش قــد قام بحملة ضده ، وأن هنالك بعض الثورات هرع عائداً إلى موطنه ، وبعــد اخماده للثورات شرع في مطاردة تختمش وقد عبر جميع أراضي آسية الوسطى قاطعاً إياها حتى نهر الفولغا ، وظلت المعارك الطاحنة دائرة حتى هزم تختمش في معركة على ضفاف نهر كندورشا عام ١٣٩١ ، وعندها تفرغ تيمور للعمل بحرية ، فرجع إلى سمرقند التي كان قد اختارها عاصمة صيفية لمملكته ، وقد قام بتزيينها بسخاء وترف لتكون رمزاً لتمجيده وتخليداً لإسمه ،ولم يكن هذا العمل بداية اهتمام أو حماس أبداه في أعمال البناء ، بل بالعكس كانت سمرقند المدينة الوحيدة ، والمثال الوحيد على اهتمام تيمور بالاشياء الروحية المعنوية ، فقد شيد كثيراً من الأبنية في تلك المدينة ، وأرسل الحرفيين والعلماء من جميع الاقطار التي فتحها ليعيشوا في تلك المدينة لكي يعملوا لمرضاته ، ولكنه لم يبق طويلا في هذه المدينة ، ففي السنة التالية بدأ بأعماله العسكرية من جديد ، وبعد أن زحف من خلال بلاد ايران إلى ما بين النهرين ، وسورية وأجبر الملوك والأمراء المحليين على الهرب أو الاستسلام ، عندها تم له القضاء على قوة (تختمش ) نهائياً عام ١٣٩٥ وهكذا أصبح السيد بلا منازع لجميع

المنطقة حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط وحدود آسية الصغرى وبعدها قرر أن يغزو الهند حيث يمكن أن يجد الاسلاب والغنائم الكثيرة لفرقه العسكرية وحيث يشبع غروره وثقته بنفسه ، وبأنه قد أحرز النصر المبين في جميع أعماله ، وكان يتهم الحكام المسلمين في الهند أنهم فاتري الهمة بلداء ، وقد كان زحفه عبر نهر السند إلى دلهي سبباً في إيقاع الخراب والدمار المريع في تلك المنطقة ، فقد ذبح كثيراً من الأسرى ، وفي ١٨ كانون الأول عام ١٣٩٨ ، وبعد حدوث حادثة تافهة بين جنوده وبعض الجنود الوطنيين أمر بنهب ( دلهي ) مسبباً لها محنة لم تسترد المدينة ازدهارها بعدها ، إلا عقب عدة عقود من السنين ، وبعد أن ركز شؤونه المالية بما أحرزه من الأموال والغنائم من الهند ، قرر تيمور أن يبدأ الحرب مع السلطان العثماني بايزيد الأول ، الذي كانت رسائله تثير غضب تيمور ، لأنها لم تكن تدل على خضوعه واستسلامه له ، وقبل افتتاح الحملة عمد إلى تأمين جناحه الايسر بإخضاع سورية ، وذلك لأن حكام سورية من المصريين وقفوا موقفاً عدائياً تجاهه ، وهكذا سقطت قلعة حلب ، وقلعة دمشق أمام هجماته الصاعقة ، وبذلك أصبحت مصر مكشوفة أمامه ، ولكنه أدرك أن أية حملة على مصر سوف تبعده عن هدفه الحقيقي ، وهو آسية الصغرى حيث كانت تنتظره معارك طاحنة والحقيقة أن السلطان بايزيد قدتصرف بحمق وعدم تروي ، إذ أهمل الاستعداد الكافي لمواجهة العدو ، وهكذا استطاع تيمور أن يصل إلى انقرة قبل أن يواجه الجيش العثماني الذي كان يحاصر القسطنطينية قبل ذلك بقليل ، وقد حاول تيمور كعادته أن يفسد ضمائر عدد من جنود بايزيد ، وهكذا انتهت المعركة لصالحه عام ١٤٠٢ ، ولكن السلطان الذي كان قد رفض كل ما قدم له من النصائح للهرب وقع أسيراً في يد خصمه ، وبقي في الأسر حتى موته بعد عام واحد ، ويقال انه سجن في قفص من حديد ، أو أنه حمل

في محفة محاطة بقضبان الحديد ، ولكن هذه القصص ليس لها ما يثبتها أو يؤكدها .

أصبح تيمور سيد آسية الغربية دون منازع ، وشعر أن سيطرته على هذه الامبراطورية التي لا تقل في اتساعها عن امبراطورية جنكيز خان ، هي سيطرة تامة مؤكدة ، وقد راسله كثير من الحكام من الخارج وطلبوا الدخول في علاقات سياسية معه ، وأحد هؤلاء الحكام كان حاكم قشتالة ، وقد ترك لنا مبعوثه كلافيجو سجلاً ممتعاً عن زيارته له ولكن روح تيمور القلقة التي لا تفهم غير الشؤون الحربية لم تكن تصلح لعمل تنظيمات إدارية لربط أجزاء ولايات مختلفة المشارب جمعت على عجل في بوتقة واحدة ، ورغم إنهاك قوى جيشه الذي بدأ ضباطه بالتذمر إذ لم يعد لهم رغبة باستمرار الحروب بل بالتمتع بالثروات الطائلة التي اكتسبوها بشق الأنفس ، رغم ذلك بدأ تيمور بالتخطيط لحرب جديدة ، وفي هذه المرة كانت وجهته الصين ، ولكنه لم يكد يبدأ حتى سقط مريضاً ، ووافاه الأجل في ( أترار ) على نهر جاكسارتس في التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٤٠٥ .

بعد موته ظهرت نتائج اخفاقه في توحيد فتوحاته بسرعة ، فالإرث الذي تركه لم يكن له صفة من صفات البقاء التي توفرت في امبراطورية جنكيز خان، وأصبحت مغامراته ومشاريعه بمجموعها ليست مؤذية فحسب بل تافهة بشكل جذري .

فبالنسبة لآسية الغربية والحضارة الاسلامية ، والقوقاز أيضاً والمسيحية الشرقية ،لم تجلب هذه الفتوحات لها سوى الخراب والدمار بدلا من الفوائد التي كانت المنطقة قد جنتها من فتح طرق المواصلات العريضة قبل قرن ونصف من الزمان وبعكس أبناء جنكيز خان الذين اتفقوا على انتخاب خان جديد بعد وفاة والدهم وعاشوا في تفاهم عدة عقود على الأقل ، نجد أن أبناء

تيمور انهمكوا في نزاع متبادل بعد موته مباشرة ، فقد عمد ضباط الجيش إلى إخفـاء خبر موته ، ثم علقوا الحرب ضد الصين ووضعوا أحـد أحفاد ( تيمور ) على رأس الدولة موقتاً ، ولكن هذا الترتيب لم يدم طويلاً فقد بدأت المنافسات الضارية بين أبناء الفاتح المتوفى وأحفاده وأدت إلى إشعال نار القتال لعدة سنوات ، وأخيراً فاز شاه رخ ، وهو أحد أبناء تيمور ، وكان يشغل منصب نائب أبيه في خراسان ، ولم يكن حتى والده يفكر أن يورثه العرش ، ومع أنـه كان صاحب مواهب عسكرية ، إلاّ أنه كان يميل إلـى الاعتدال ومداواة الجروح التي أحدثها والـده في مناطق آسيـة الغربية والوسطى ، وقد عمل هو وأحد أبنائه المدعو ( بايسنقر ) على تشجيع العلوم والفنون وأسس مكتبة عظيمة في ( هراة ) ، ومع ذلك فلم يقبل الجميع تسلطه دون تذمر ، فقد كان عليه أن يعالج عدة ثورات صغيرة قام بها بعض جنوده وقواده ، والأعمال المعادية التـي قامت بهـا دولة قبيلة ( الشاة السوداء ) قرا ـ قونيلو التركمانية ـ كما سنبين فيما بعد ـ ، ولهذا السبب نجد أن حكمه قد أعطى السكان المذعورين فترة للتنفس والراحة والنمو ، وأعطى مجالاً ومؤشراً لفترة انتاج خصبه في الشعر الفارسي وعلم التاريخ ، وكان ابنه ألـغ بك الذي خلفه أكثر اهتماماً بالعلوم ( خصوصاً علم الفلك ) أكثر من إهتمامه بالسياسة ، ومع أنه كان صاحب نوايا طيبة ، إلاّ أنه لم يستطع أن يقف أمام ـ أو يقاوم ـ أقاربـه الفوضويين ، ولـم يمض وقت طويل حتى خلعوه عن العرش ثم سملوا عينيـه ، وفاز أخيراً ، وبعـد نضال مرير ( أبو سعيد ) ( ١٤٥٢ ـ ١٤٦٩ ) م الـذي توحدت على يديـه الأراضي الإيرانية الشرقية : ( خراسان ، أفغانستان وما وراء النهر ) مرة ثانية ، وذلك بسبب قيادته الحكيمة والنشيطة المعتدلة والذكية ، ففي أجزاء ايران الغربية ظهرت دولة قبيلة الشاه السوداء التركمانية التي أسسها أوزون ـ كما سيمر معنا ـ وناوأته وقد حاربها دون جدوى وأخيراً أسره رجالها وقتلوه •

وتبع وفاة ( أبي سعيد ) انقسام جديد في مملكة تيمور ، وأخيراً قام الأمير حسين بايقرا الذي كان يسكن في ( هراة ) وحارب عدة سنوات حتى استطاع أن يوجد تحت صولجانه قسماً من ميراث الأجداد ، وكان هذا أيضاً صديقاً للعلوم والفنون ، وفي أثناء حكمه الطويل ( ١٤٦٩ ـ ١٥٠٦ ) وجدت العبقرية الايرانية ملاذاً وملجأً في أفغانستان[1] وعندما تقدم العمر بالسلطان حسين أصيب ببعض الأمراض المؤلمة مما سبب انحرافه ولجوئه إلى حياة الانحلال الخلقي ، مما خلق الفوضى الداخلية في اقليمه ، كما سبب ثورة بعض أولاده ضده ، وهكذا لم يستطع أن يكبت الميول تجاه توحيد بلدان ايران التي حرضها ظهور اسماعيل الصفوي في غربي إيران ، وقد كان اسماعيل هذا يعتمد على تأييد التيارات الدينية التي يرأسها ، أكثر من اعتماده على القوة العسكرية ، وأدى هذا الى انتصار الشيعة الاثني عشرية نهائياً فوق أراضي جميع بلاد إيران ، وقد فاز اسماعيل بالسيطرة على بلاد إيران الأصلية أثناء حياة ( حسين بايقرا ) ، وعندما توفي حسين هذا أصبح نفوذ الأسرة التيمورية ضعيفاً جداً في ( هراة ) ، حتى اضطر ابن حسين للاعتراف بسلطة الأسرة الصفوية ، وقد مات هذا أخيراً في بلاط السلطان العثماني .

وهكذا انتهت سلطة ممثلي الحكم المغولي على أراضي إيران ، إذ أن أسرة تيمور لا يمكن أن ندعوها مغولية،فحكمه وحكم أبنائه يمثل الخصائص

---

(١) أثناء حكم السلطان حسين عاش الشاعر الصوفي جامي (١٤١٤ـ١٤٩٢) وعدد من المؤرخين والفلاسفة،وقد ترك وزيره مير عليشير بودي (مات١٥٠١) أعمالا باللغة التركية والفارسية ، وفي حكم خلفاء تيمور وصل الفن الايراني في البناء وصناعة السجاد واللوحات الزيتية الاوج ، مع أنه بعكس الادب، فقد استمر بالازدهار في عهد الصفويين ، ومن الآثار التي تستحق الذكر ، الآثار التي أتت من القرن الخامس عشر ، مقامات الاولياء ، والمساجد في مدينة ( مشهد ) ولوحات بهزار ( توفي عام ١٥٢٥ ) .

والمظاهر التركية ، وان انتصار الأسرة الصفوية عام ١٥٠٢ لم يغير شيئاً من طبيعة الأمور ، فقد كان هؤلاء أيضاً من أصل تركي ، وظلت لغتهم مدة قرن من الزمن في بلاطهم في قزوين أولاً ، ثم في أصفهان العاصمة الفارسية الجديدة هي اللغة التركية ، وهكذا فلم تكن هذه الأسرة أسرة وطنية بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح ، وقد أجبرتهم العوامل الجغرافية كما أجبرت ( الإلكخانات ) قبلهم أن يهتموا بالمصالح الوطنية وبلاد العجم ، وبعد عدة عقود من الانقسامات والحروب الأهلية تم إعادة توحيد الأراضي الفارسية تحت حكومة ذات قاعدة وطنية مما سبب فتح الطريق نحو انبعاث قومي .

إن فقدان أحفاد تيمور لسيادتهم على منطقة ما وراء النهر لم يكن حكماً عليهم بالنفي من على مسرح الأحداث في التاريخ ، فقد قُدِّر لحفيد من أحفاد الفاتح العظيم تيمور وهو ( بابر ) أن يصبح مؤسس امبراطورية عظيمة مستقرة جديدة لكن ليس في إيران بل في الهند ، وهكذا علينا أن نمضي ثانية الى الهند لتفحص هذه الفترة التاريخية الهامة .



# الهند من تيمور إلى بابر

إن تقلص السلطة التيمورية في غـرب وأواسط آسيـة كان سبباً في إفساح المجال لنشوء قوى عسكرية جديدة ، ففي الهند حطمت غزوات تيمور الأنظمة السائدة من قبل حتى أن المنطقـة أصبحت خالية ، ومعرضة لأيـة تطورات جديدة ، ففي دلهي وبعد موت فيروز عام ١٣٨٨ تلا سلطان قصير العمر سلطان آخر ونشبت الفوضى ، ورفض الهندوس دفع الجزية ، وبدأ الوزراء يقاتلون بعضهم بعضاً لإحراز السلطة ، وفي عام ١٣٩٩ حاول السلطان محمود الثاني وهو أحد أحفاد ( فيروز ) أن يؤسس حكومة تتصف بنوع من الاستقرار ، ولكن الأحوال استمرت بالتدهور حتى أنه لم يستطع لا هو ولا مساعدوه أن يقذفوا إلى الميدان بقوات كافية لتقف في وجه تقدم قوات تيمور الغازية ، عندما تقدم هذا إلى منطقة السند عام ١٣٩٨ ، ففي المعركة الحاسمة قرب دلهي التي حدثت في السابع عشر من كانون الأول في ذلك العام هزمت الفرق الهندية هزيمة تامة ، ونهبت المدينة وكـل المنطقة المجاورة لها دونما شفقة أو رحمة ، واتهم تيمور الأمراء الهنود بأنهم قد عاملوا رعاياهم الهندوس باللين والتساهل لذلك عامل البلاد بوحشيته المعتادة ، ولم يرحل إلاّ وقد ترك البلاد خراباً يباباً ، وأصبحت البلاد تحتاج لعدة سنوات قبل أن تعود لسابق عهدها ، وأخـيراً استطاع السلطان محمود الذي كان قـد التجأ إلى ( كجرات ) أن يتخلص من منافسيه واسترد سلطته على الدولة مرة أخرى مع أن يديه كانتا مغلولتين بمطالب مستشاريه حتى موته عام ١٤١٣ ، وبعد سنة من موته استولى ( خضر خان ) وهو نائب الملك الذي وضعه ( تيمور ) حاكماً على البنجاب استولى هذا على ( دلهي ) وما جاورها ، ولكن ( خضر خان )

مات عام ١٤٢١ ولم يحكم خلفاؤه طويلا ، وبسبب ادعائهم بالانتساب إلى النبي محمد ﷺ أصبحوا يدعون أسرة ( السادات )وفي عام ١٤٥١ استلم الحكم أسرة ( لودهي ) ، وهي تركية في الأصل وتدعى أيضاً الأسرة ( الباثانية ) أي الأفغانية ، وذلك لأن أجداد هذه الأسرة عاشوا في أفغانستان، وأول هؤلاء الحكام يدعى ( بهلول ) وقد تمتع بمقدرة عسكرية فائقة ، وأعاد سلطة ( دلهي ) على كثير من الأراضي التي خرجت عن الطاعة ، وكانت تلك الاصقاع التي خرجت عن الطاعة هي ( جونبور ) التي أعلنت استقلالها عام ١٣٩٤ ، ولكن السلطان أعادها عام ١٥٠٠ م بعد قتال طويل الأمد[1] إنما ابن بهلول وهو ( سكندر ) الذي ( حكم من ١٤٨٩ إلى ١٥١٧ ) أحرز انتصارات وتوسعت مملكته كثيراً ، وأخيراً أخذ هذا الإقليم بالتوسع من نهر ساتلاج في البنجاب إلى مقاطعة بندلخاند شرقاً ، مع أن حكام الولايات والأمراء الموالين تمتعوا بدرجة لا بأس بها من الحرية في العمل ، فقد حرص ( سكندر ) على ألا يرهق الموارد المالية في البلاد أو يثير الثورات باتباعه سياسة مالية خرقاء ، وقد تمتعت الهند في حكمه بفترة من الهدوء والتطور النسبي ، والصعوبات الوحيدة التي نشأت أو التي كانت تنشأ دوماً كانت نتيجة محاولاته المتحمسة لنشر الدين الاسلامي بين الهندوس ، وبعد موته استطاع ابنه ابراهيم أن يتغلب على عدد من منافسيه ولكنه بقي ضعيفاً وذلك بسبب عدم تمتع حكمه بالرضا الشعبي مما سبب التمردات المتتالية ، وقد استنجد بعض هؤلاء الساخطين ( ببابر ) وهو أحد أحفاد ( تيمور ) وكان يحكم في ( كابل ) وكان تدخل ( بابر ) في شؤون الهند عام ١٥٢٥ — ١٥٢٦ فاتحة فصل جديد في تاريخ الهند أي فترة الامبراطورية المغولية التي ضمت

---

(١) لقد خلّف الحكام ( الشارقيون ) في هذه الدولة الصغيرة آثاراً ، منها عدد من المساجد الجميلة ، وأبنية جميلة ٠

سلطنة دلهي ومعها عدة امارات وأسر مالكة مسلمة ظهرت في الهند منذ القرن الرابع عشر ، وهنا نجد من الضروري أن نبحث دور هذه الامبراطورية المغولية في الهند .

إن أهم هذه الامارات التي تألفت منها الامبراطورية المغولية عبارة عن إمارتين نزعتا عن أنفسهما سيطرة محمد بن تُغلق خلال القرن الرابع عشر ، واستمرتا تخضعان لحكام مسلمين ، وكانت معظم مناطق الهند الجنوبية قد استعادت استقلالها خلال نفس الفترة، ولكن هنا كان الحكام أمراء هندوسيين ، ومع أن البنغال لم تنفصل حتى عام ١٣٩٩ ، إلا أن دلهي لم تعترف بهذا الوضع إلا بعد سبعة عشر عاماً ، ولم يمض نصف قرن حتى استلم السلطة هنالك حاكم هندوسي يدعى جانيش ( ١٤٠٤ — ١٤١٤ ) الذي بدأ سياسة مناوئة للمسلمين ، ولكن من المفارقات التاريخية المثيرة أن ابنه اعتنق الاسلام واتخذ لنفسه اسم ( جلال الدين محمد ) وأخذ يعمل بحماس المسلم المتحول إلى الاسلام حديثاً ، ضد الهندوس ، وقد كانت السياسة التي اتبعها خلال حكمه الذي دام حوالي سبعة عشر عاماً سبباً في إعتناق نسبة عظيمة من سكان البنغال للديانة الإسلامية ، ولا تزال الديانة الاسلامية هي ديانة الأكثرية في معظم المدن هناك ، ولهذا يمكننا أن نعتبر أن غزوة تيمور لم تؤثر على البنغال ، التي لا شك انها استفادت من ضعف الامبراطورية الهندية الشمالية الغربية وبذلك أصبح مركزها أقوى ، واستطاعت أن تحتفظ باستقلالها حتى الجزء الأخير من القرن السادس عشر رغم الاضطرابات العنيفة التي حدثت بين الأسر الحاكمة ، والفوضى المستحكمة التي سببتها النزاعات والصدامات للمغول على السلطة بين المماليك المحليين الذين استوردوا من أفريقيا .

لم يواجه المسلمون في البنغال صعوبات حادة كالتي واجهها أفراد أسرة

البهمني في الدكن ، لأن هؤلاء كان عليهم أن يخوضوا حروباً مع الدول الهندية الجديدة التي ظهرت على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لأملاكهم، والتي كانت تغزوهم باستمرار وكانت عاصمة الدكن المسلمة أولاً جولبارجا ( وتدعى أيضاً أحسن أباد ) وبعد ذلك أصبحت العاصمة ( بدار ) وذلك منذ سنة ١٤٢٥ ، وقد امتاز حكام هذه الأسرة بالتعطش لسفك الدماء والطغيان فقد اضطهدوا الهندوس ، مما اضطرهم لحمل السلاح للقضاء على ثورات كثيرة قامت ضدهم ، وهذه لم تسبب الاحتكاك المسلح مع الدول الهندية المجاورة فحسب بل إلى انفصال كثير من المقاطعات التي استردها حكامها المسلمون السابقون ( الطرفداريون ) وكثيراً ما حدثت ثورات في القصر ومصادمات بين الحاميات من الجنود المرتزقة ، زد على ذلك الاحتكاكات بين أهل السنة والشيعة ، وأضعفت هذه العيوب الدولة ( البهمنية ) داخلياً ، وقللت من قدرتها على مقاومة الأعداء الخارجيين ، مما جعل الجيران الهنود يتجرأون على القيام بغزوات متكررة عليها ، وفي أثناء عام ١٤٩١ وما تلاه من السنوات كان الفضل في بقاء تلك الدولة في حيز الوجود هو للجهود المكثفة التي قام بها حكامها ، تلك الجهود التي كان يقف وراءها الوزير المخلص ( محمود كافان ) الذي كانت مكافأته على اخلاصه الموت ، عام ١٤٨١ ، ولذا فقد تمزقت هذه المملكة عام ١٤٩٠ ، وفي عام ١٥١٨ اختفت هذه الأسرة المالكة ، وقد ظهر مكانها خمس دويلات مسلمة : بجابور وأحمد نكر وبرار ( حتى عام ١٥٤٧ ) وكلكندا ( قرب حيدر أباد الحديثة ) وبيدار ، وفي الشمال ظهرت دويلة مسلمة أخرى وهي ( مالوى ) ( ١٤٠١ ــ ١٥٣١ ) وقد استهلكت سلطنات هضبة الدكن الخمس قوتها ونشاطها بالحروب المستمرة بعضها مع بعض ، ومع الهندوس ومع البرتغاليين الذين بدأوا يتوافدون على الهند ،

ومع الثوار المحليين ، ولكن حدث أنه بعد معركة تاليكوتا أن قضوا على مملكة فيايانكر الهندوسية الجنوبية القوية ، وهكذا تخلصوا من أقوى عدو خارجي خطرٍ على كيانهم ، وبعد هذه المعركة الحاسمة استمروا في ممارسة حكمهم كل على حدة حتى انضموا ، وفي تواريخ مختلفة إلى الامبراطورية المغولية في الهند في القرن السابع عشر •

لقد بدأت اللغة ( الأوردية ) تنتشر في الدولة البهمنية والدويلات المسلمة الأخرى في هضبة الدكن في الشعر على الأقل ، أما في دلهي فكانت اللغة الفارسية هي الغالبة دون منازع ، ولم تبدأ الكتابة باللغة الأوردية إلاّ في القرن الثامن عشر •

لقد فازت مقاطعة كجرات على الساحل الغربي التي كان قد فتحها علاء الدين باستقلالها وأكدته بزعامة أسرة اسلامية في نهاية القرن الرابع عشر ، وأسست عاصمتها الداخلية « أحمد أباد » من قبل السلطان القوي أحمد شاه ( ١٤١١ ــ ١٤٤١ ) وقد أصبحت مراسيها وخصوصاً ( كمباي ) مراكز لنشاط التجار المسلمين وجوالي البحار الذين كان لهم الفضل في نشر الدين الاسلامي في الملايو وأندونيسيا ، وفي خلال القرن السادس عشر بدأت ( الكجرات ) بالنضال بقوة ولكن دون نجاح ضد القوة البحرية الجديدة للبرتغاليين ، وبعد أن انهارت هذه الدولة من الداخل ، تم الحاقها بالامبراطورية المغولية في عام ١٥٧٢ •

وأصبح وادي كشمير الجميل في جبال الهملايا ، وشمال البنجاب جزءاً من الامبراطورية المغولية مع أنها لم تخضع أبداً لسلاطين دلهي ، وطبقاً لما تذكره التواريخ الاسلامية كان أول ملك مسلم لتلك المنطقة مغامر دخل في خدمة الحاكم الهندوسي ، واستولى على السلطة عام ١٣٤٩ ، وقد بقي حفيده ( اسكندر ) ( ١٣٨٦ ــ ١٤١٠ ) محايداً أثناء غزوات تيمور للهند ، ولكنه

عامل رعيته من الهندوس والبوذيون [ التيبيتيين ] معاملة قاسية جداً ، ومن المحتمل أنه أثناء حكمه تحولت الغالبية العظمى من السكان إلى الديانة الاسلامية ، ولكن حفيده زين العابدين اتبع سياسة التسامح التام خلال حكمه الذي دام خمسون عاماً ( ١٤٢٠ ـ ١٤٧٠ ) ، وذلك فضلا عن تشجيع العلوم والفنون وتحسين الشؤون الاقتصادية في اقليمه ، وقد تلا موته فترة من الفوضى والصراعات على الحكم والحروب الأهلية وحملات عسكرية من كاشغر ولاهور مع تبدلات في الأسر الحاكمة الأمر الذي لم ينته إلاّ بعد أن انضمت كشمير إلى الامبراطورية المغولية عام ١٥٨٦ .

وهنا نجد أن أوضاع المغوليين الأولى قد تأثرت إلى حد بعيد بالأحوال الجديدة التي طرأت على ايران .

* * *

# الشاة السوداء
## قره قوينلو وأق قوينلو

بعد موت ( تيمور ) انفصلت منطقة ما بين النهرين وأزربيجان عن حكم أحفاده ، وقد حاول أحمد الجلائري أن يقتحم المنطقة ولكنه لم يستطع جمع قوة كافية لمقاومة كتائب الشاة السوداء [ قراقوينلو ] من التركمان ، وقد كانوا كما رأينا خاضعين لأجداده ، ولكنهم أخيراً استقروا في منطقة الموصل حوالي عام ١٢٧٥ ، وكانوا عبارة عن قبائل اتبعت المذهب الشيعي وانتشرت في المناطق المجاورة الأرمينية وأزربيجان ، وابتداء من عام ١٣٩٠ أصبح يقودها زعيم طموح يدعى ( قرا يوسف ) ، وكان على علاقات جيدة مع المماليك في سورية ، وهزم أولاً ميران شاه بن تيمور ،ثم بينما كان التيموريون يبددون قواهم في صراع داخلي استطاع أن يهزم أحمد الجلائري قرب تبريز سنة ١٤١٠ ، وقتله مع أولاده ، وهكذا سقطت عاصمة أحمد وهي بغداد بيد ( قرا يوسف ) لكن فرعاً من الجلائريين ظل يحكم جنوب العراق وشوشتر حتى أزيل عام ١٤٢١ ، وقد هزمت أيضاً المملكة الأرتقية القديمة والتي حكمت حوالي ٣٠٠ عام في ماردين وأجزاء من الموصل ، على يد قرا يوسف عام ١٤١٢ ، وقد قاد ( قرا يوسف ) عدة حملات ثانوية في جميع الاتجاهات ، وكان يستعد للصدام مع الأمير التيموري القوي ( شاه رخ ) عندما وافته المنية عام ١٤٢٠ ، وعندها قام (شاه رخ) بإنزال ضربات قاصمة على الشاة السوداء ، ولكنه أخفق في الاستيلاء على معاقلهم الأصلية في أزربيجان ، وهنا نرى ابن قرا يوسف الأكبر ( اسكندر ) يقوم بادارة المعارك والمغامرات التي تدل على طبيعته القوية بعكس جلال الدين منكوبرتي ، وظل كذلك حتى قام أحد

أبنائه بقتله عـام ١٤٣٧ ، وعندها هدأت الأحوال قليـلا ، وأصبحت أكثر استقراراً ، وذلك لأن خليفة اسكندر وهو أخوه ( ميرزا جهان شاه ) كان حائزاً على رضا ( شاه رخ ) التيموري الذي منحه حكم أزربيجان ، وقـد كانت العلاقة بينهما ودية للغاية ، ولكن بعد موت شاه رخ استطاع ( ميرزا ) أن يخطو خطوة تلو خطوة في سبيـل احتلال عـدة أجزاء من جنوب وغرب آسية وخصوصاً ، في الفترة ما بين ١٤٥٢ ـ ١٤٥٦ ، ومع أنه اصطدم فيما بعد بمعارضة ( أبي سعيد ) التيموري إلاّ أنه احتفظ لنفسه بحكم أزربيجان وميديا وما بين النهرين ( بعد أن كسر شوكة حكامها الذين كانوا من نفس قبيلته ) وكذلك كرمان وحتى شواطىء عُمان في بلاد العرب الشرقية ، ولكن ثورات أبنائه عليه عكرت صفو حكمه ، ولكنه ظل صامداً حتى عام ١٤٦٦ ، عندما كسره أوزون حسن وقتله وهو الذي سنتناوله بالبحث بعد قليل ، وبعـد سنتين من هذا الحادث قضي نهائياً على دولة الشاة السوداء .

وقد آل ميراثها إلى الشاة البيضاء ، وهي قبيلة تربطها علاقة القرابة مع الشاة السوداء ولكنها كانت تتبـع المذهب السني ، وكان هؤلاء قد كونوا لأنفسهم كياناً حول مدينـة الرُها ( أورفا ) وآمد ( ديار بكر ) وسيواس تحت زعامة ( عثمان بك ) وذلك في حوالي أواخر أيام تيمور ، وكان عثمان بك هذا يلقب قرا ايلوك أي ( العلقة السوداء ) وبعد موته اقتسم الاقليم أبناؤه الكثيرو العدد ، وذلك بناء على مشورة أمير ( الشاة السوداء ) وهو اسكندر وبذلك أصبحوا مأموني الجانب، ولكنهم( أي تركمان الشاة البيضاء ) عادوا إلى مسلكهم القديم من الفوضوية والاضطرابات في وطنهم وفي الخارج، وضد الشاة السوداء ، وخصوصاً ضد ( ذي القدر ) ( والقرمانلي ) وكذلك ضد المماليك الذين حاربوهم دوماً وبدون انقطاع .

واما في الساحة الدولية فقد سطع نجم الشاة البيضاء بعد عام ١٤٤٩ عندما تغلب على الحكم حسن الطويل (أوزون حسن) وهو أحد احفاد مؤسس( الشاة البيضاء) وقد بدأ هذا بالتوسع على حساب الشاة السوداء بعد أن تغلب عليها عام

١٤٦٦ ــ ١٤٦٨ ، وقد زاد تألقه بعد تغلبه على ( أبي سعيد ) التيموري وصد هجماته ثم أسره واعدمه قرب تبريز عام ١٤٦٩ وبذلك اضاف إلى أملاكه : الجبال وأصفهان وكرمان وفارس ، التي تؤلف الآن جميع منطقة بلاد ايران الغربية والجنوبية ، ولكنه اضطر أن يهادن ( حسين بايقرا ) التيموري ويتعامل معه بحكمة نظراً للأخطار التي واجهته من الغرب وهذه الاخطار لم يكن مصدرها المماليك إذ طالما اصطدم مع هؤلاء ، ولكن كان مصدرها العثمانيون الذين أصبحوا الآن أسياد القسطنطينية منذ عام ١٤٥٣ م ، والذين رغم احتجاجاته ومحاولاته للتدخل قد احتلوا عام ١٤٦٢ دويلة ( طرابزون ) الاغريقية ( حيث كان أحد أعمامه حاكماً لها ) والذين قضوا أيضاً على الإمارتين التركيتين ( كستمانو ، وقرمانلي ) في آسية الصغرى عام ١٤٦٠ على الأولى وعامي ١٤٦٦ ــ ١٤٦٨ على الثانية ، ولمجابهة هذا الخطر عمد ( حسن الطويل ) إلى اتباع تلك الخطة التي اتبعها المغول والمماليك قبله وهي الاستنجاد بأوروبة الغربية ، وإجراء تحالفات معها ، ولمان كان تجار جنوى مضطرين للحفاظ على علاقات طيبة مع العثمانيين بسبب وجود بعض الأملاك التي تخصهم في ( القرم ) لذلك عمد حسن الطويل إلى فتح المفاوضات مع منافيسهم من أهالي البندقية الذين كانت قوة العثمانيين النامية تتهددهم أيضاً ، إذ أن العثمانيين قد طردوهم من شبه جزيرة البيلوبونيز ( في بلاد اليونان ) ، وبدأوا يلاحقونهم عسكرياً في ألبانيا ابتداءً من عام ١٤٦٢ ، ولكن هذا الحلف لم يؤد إلى تعاون وثيق بين الفريقين ، لأن حاكم الشاة البيضاء لاقى هزيمة نكراء على يد العثمانيين عام ١٤٧٢ في معركتي بحيرة كيريلي [ بيشهر قولو ] وترجان ( قرب الفرات الأعلى بين ارزنجان وأرضروم ) بينما كان البنادقة محصورين في بلاد اليونان وقبرص ولا يستطيعون تقديم أية مساعدة ، واستطاع ( حسن الطويل ) التراجع إلى أزربيجان ، ولكنه لم يستطع أن يهاجم العثمانيين ثانية كما كان البنادقة يحرضونه ، وقبل أن ينهي تنظيم شؤون بلادهمات في عام ١٤٧٨، وبعد وفاته بدأت الفوضى تدب فيدويلة

الشـاة البيضاء التي كان من المحتمـل ان تسقط بيد العثمانيين ، لولا أن السلطان العثماني ( بايزيد الثاني ١٤٨١ ـ ١٥١٢ ) ، كان ذا مزاج مسالم بعكس أبيه ، وهكذا احتفظ خلفاء حسن الطويل باستقلالهم بضع عقود من الزمان ، وكذا حصل لتركمان ألبستان [ أبلستين ] في المنطقة الواقعة ما بين اراضي الشاة البيضاء وامبراطورية المماليك ، بينما نجد أن قبرص التي كان حاكمها الصليبي لوسجنان خاضعاً لحامية مصرية منذ عام ١٤٢٦ ، إلاّ أننا نجـد الملكة كاترينا كورنارو تسلمها إلـى البندقية وطنها الأصلي ، وبظهور الصفويين في ايران تحت حكم الشاه اسماعيل ( ١٥٠٠ ـ ١٥٢٢ ) واعتلاء ( سليم الأول ) عرش العثمانيين لم يعد هنالك أي أمل ببقاء الأراضي المتاخمة لهما في حالة أي نوع من الإستقلال ، فخلال المدة الواقعة بين عامي ١٥٠٩ ـ ١٥١٤ احتـل الصفويون أزربيجان والجبال ، وبغـداد ، وفي نفس الوقت استولى العثمانيون علـى أبلستين سنة ١٥١٥ م ، وفرضوا سيادتهم علـى منطقة ( ذو القدر ) ( حيث كان جد السلطان سليم قد أعدم ) وانتزعوها من المماليك وانتهى هذا النزاع بتغلب العثمانيين واحتلالهم جميع سورية ومصر .

ومع أن كثيراً من أخبار ومواقف الشاة البيضاء والشاة السوداء بقيت غامضة ، إلاّ أنه من الواضح تماماً أن هاتين الأسرتين التركيتين لم تتركا أية بصمات على الحضارة الاسلامية في الشرق الأدنى ، ولم تحصل أية انجازات فنية أو ثقافية أو عمرانية على أيديهم ما عدا بعض الأبنية في تبريز ، وذلك بعكس الصفويين والعثمانيين أو المماليك .

والآن علينا ان نعالج وضع مصر وسورية في عهد المماليك البرجيين وهو العهد الثاني لحكم المماليك .

* * *

# مصر المماليك البرجية

إن وادي النيل هو البلد الوحيد في الشرق الأدنى الذي بقي صامداً لم يمس خلال الطوفان المغولي الأول والثاني ، وفي الطوفان المغولي الثاني كان الفضل في نجاة مصر ليس لقوة المماليك العسكرية بل لخضوع هؤلاء المماليك إسمياً لتيمور ، والآن سنحاول أن تتتبع أحوال مصر بعد تسلط المماليك البحرية ، فقد بدأت قوة هؤلاء بالانحطاط منذ عام ١٣٨٢ وأخيراً سقطوا بعد فترة طويلة من الفوضى والاضطرابات في مصر ، وكان سقوطهم عام ١٣٩٩ ، وقد حل محلهم فرع من المماليك يدعون المماليك البرجية أو الجراكسة وذلك لأن الكتائب العسكرية التي ساندتهم كانت تسكن في ثكنات قرب برج ، وقد أتى هؤلاء المماليك من القوقاز ولكنهم كانوا قبل ذلك بكثير قد أصبحوا أتراكاً في لغتهم وعاداتهم ، ولم يكن هذا التغيير ذا بال بالنسبة للشعب المصري ، ولكن كان له تأثير سياسي ملاحظ ، فقد كان هؤلاء أشرس في طباعهم من المماليك البحرية ، وأكثر ميلاً للنهب والسلب ، ولكنهم امتازوا بعدم وجود الخصومات أو النزاع على وراثة السلطنة كما كان الحال في عهد من سقبوهم ، وكان مؤسس هذا النظام هو السلطان ( برقوق ) ، وكان حاكماً شديداً ، فبعد أن انتصر بقوة ووحشية على منافسيه ( ١٣٨٩ — ١٣٩٢ ) استولى على جميع سورية وبجسارة لا نظير لها آوى في بلاطه الأمير أحمد وهو ألد خصوم تيمور وهو من الأسرة الجلائرية وكان حاكماً ( لبغداد ) كما كان أجداده منذ أيام ( حسن الكبير ) الذين حكموا بغداد في أواخر عهد ( الإلكخانات ) ، ولم يكن تيمور ليتغاضى عن هذا

العمل العدائي الذي قام به برقوق ، إلاّ أن خصومته مع الأتراك حالت دون انتقامه حتى بعد موت برقوق عام ١٣٩٩ ، ولم يتسن لتيمور أن يعلن الحرب على مصر مع أنه قام بنهب حلب ودمشق ، كعمل سبق انتصاره الساحق في حملته ضد بايزيد الأول ، وأما خليفة ( برقوق ) وهو ابنه ( فرج ) فقد اختار أن يخضع للفاتح العظيم ، وظل تابعاً له إسمياً حتى موت تيمور عام ١٤٠٥ ، وقد ظلت مصر بعد ذلك في حالة هدوء ما عدا حدوث حادث واحد عام ١٤١٢ ، كان يهدف لتنصيب الخليفة العباسي الاسمي حاكماً فعلياً على مصر ، ولم يعد الاستقرار إلى مصر إلاّ بعد تنصيب ( بارسباي ) ( ١٤٢٢ــ١٤٣٨ ) وهو أقدر قائد بين المماليك البرجية ، وقد كان لانتصاراته في قبرص عام ١٤٢٦ وعلى الشاة البيضاء من التركمان ( كما سبق الذكر ) وعلى الامارات الصغيرة في سورية وما بين النهرين ، أثـراً كبيراً في اعادة هيبة مصر الدولية إلى الوجود ثانية ، ولكن من جهــة أخرى كانت سياسته المالية الضرائبية والاقتصادية في بلده وفي الخارج خصوصاً في ( جده ) في شبه جزيرة العرب ، سياسة خرقاء سببت الكوارث ، فقد ضيق على الفلاحين المصريين المساكين بشكل لم يسبق له مثيل خلال الألف سنة الماضية ، وقد أتى بعده سلاطين آخرون لم يمتلك إلاّ قلة منهم صفاته العسكرية الممتازة ولكنهم جميعاً تبعوا نفس سياسته المالية، بل زادوا عليها ، وهم فضلاً عن إرواء جشع الارستقراطية العسكرية وحبهم للمال ، عمدوا إلى تشييد المقابر الفاخرة للمماليك التي تكلفت أموالاً باهظة ، والتي لا تزال قائمة قرب القاهرة ، ولكن لكل قاعدة شــواذ ، إذ يمكننا أن نعتبر السلطان جقمق سلطاناً تقيــاً مخلصاً مقتصداً بالأمور المالية ، ولكنه كان يصرف بسخاء على دعم العلماء ، ومساعدتهم ، ثم أتى بعده خليفته( إينال ) وهذا قام بمعركة غير حاسمة في قبرص ، وهنالك خطأ مالي اقترفه ( بارسباي ) وهو الإجراءات الشديدة التي أثقلت كواهل التجار الأوروبيين والهنود الذين كانت مصر تجني منهم أرباحاً طائلة ،فكان يثقل رسوم مرور البضائع ويشدد على دخول العملة مما أثــار احتجاجات

الجمهوريات الايطالية البحرية ، ومع أنه نتيجة لهذه الاحتجاجات منحت بعض التسهيلات ، إلاّ أن التجار الايطاليين ومعهم البرتغاليون والاسبان بدأوا يفكرون بالاستغناء عن مصر في مرور التجارة والتفتيش عن بديل للوسيط المصري ، وقد أصبحت هـذه الامكانية أي الاستغناء عن مصر ، حقيقة واقعة عندما اكتشف فاسكو دي جاما الطريق البحري إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح من جنوب أفريقيا عام ١٤٩٨ .

ولم يمض وقت طويل حتى بـدأ البرتغاليون في مهاجمة المصريين من الخلف ، وقد نفذوا هجومهم على السفن التجارية الاسلامية بحماس شديد في مراكزهم الساحلية ، وفي المحيط الهندي والبحر الأحمر مما سبب قطع الشرايين التجارية بين مصر والهند ، ومصر والخليج العربي ، هذا وقد أسس هؤلاء التجار البرتغاليون مواطىء قدم لهم في الحبشة ، وأصبح المصريون مهددين بوجود أعداء لهم في الجنوب ، مع أن هذا التهديد لم يدم طويلاً ، فقد كان من حسن حظ مصر أن اعتنق أهالي النوبة الدين الاسلامي بعد أن كانوا أقباطاً مسيحيين ، وذلك في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، ولهذا أصبح من الصعب على البرتغاليين فتح مجالات لهم في تلك المنطقة ، زد على ذلك أن انتشار الدين الإسلامي انتج القضاء على الثلاث ممالك المسيحية التي كانت في النوبة سابقاً ، وهكذ انقسمت النوبة إلى عدة دويلات الأمر الذي منع أية امكانيات سياسية من الحدوث في القرون التالية .

وبينما كان المماليك البرجيين مشغولين بالمصاعب الداخلية والفوضى ، إذا بالأمور تزيد تعقيداً بحملات ( ذو القدر ) « والقرمانلي » والشاة البيضاء التركمان( كما سبق التبيان ) وأخيراً بهجوم الأتراك العثمانيين الذين أصبحوا قوة ذات شأن ، كـل هؤلاء أصبحوا يهددون النفـوذ المصري في سورية الشمالية والحدود ، والحقيقة أن السلطان قايتباي الحكيم العاقل والقاسي بنفس الوقت ( ١٤٦٨ ــ ١٤٩٦ ) ومن تلاه من السلاطين البرجية لم تكن تعوزهم المقدرة العسكرية ، ولكنهم أخفقوا في اتباع خطة سياسية خارجية

محددة ، أو اعتمدوا استراتيجية ناجحة ، ولذا فعندما تولى الحكم ( قانصوه ــ الثاني ــ الغوري ) ( ١٥١٠ ــ ١٥١٦ ) وجد أمامه إرثاً ضخماً من المصاعب المالية والحروب البحرية المخفقة مع البرتغاليين ، مما جعل من السهولة بمكان كسره على يد السلطان سليم الأول العثماني ، باندحار القوى المملوكية قرب حلب في ٢٤ آب عام ١٥١٦ ، ومن ثم القضاء نهائياً على المماليك البرجية بعد الاستيلاء على القاهرة في كانون الثاني ( عام ١٥١٧ ) ، وهكذا فقد حدث استيلاء الأتراك على مصر في نفس السنة التي حدثت بها حركة الاصلاح الديني البروتستانتي في أوروبا على يد مارتن لوثر .

إن نشوء الامبراطورية العثمانية وارتفاع شأنها لن نبحثه في هذا الكتاب ، وذلك لأن تلك الامبراطورية لم تشغل أي دور فعال في تاريخ الاسلام إلا بعد نهاية القرن الخامس عشر ، إذ كان دورها سطحياً جداً قبل هذا التاريخ ، فقد كان تماسها مع الدول الاسلامية الأخرى ومع الامارات التركية الصغيرة في آسية الصغرى ، تماساً ضئيلاً جداً ، وإن أهمية هذه الامبراطورية تقع في قدرتها على حمل لواء محمد ﷺ إلى مناطق لم تكن خاضعة للحكم الإسلامي قبل ذلك ، فالحكم الاسلامي قد توسع على يد الأتراك كما كان قد توسع على يد المغول ، ولكن منطقة الشرق الأدنى لم تصلها قوة المد العثماني والتدخل التركي إلاّ بعد أن بدأ السلطان سليم الأول نضاله ضد الأسرة التركية الشيعية الجديدة التي وحدت ايران من جديد ، وبعدها طرد آخر الحكام التركمان ، ثم فتح سورية ومصر .

ان بقية هذا الكتاب سوف يخصص لبحث مصائر المسلمين في أوروبا الشرقية .

* * *

# المسلمون في أوربة الشرقية

إن احدى المناطق التي تسلط عليها سيف تيمور كانت منطقة امبراطورية شرقي أوروبة ، التي حكمتها القبائل الذهبية المغولية ، وأضافتها إلى الحكم الإسلامي ، وكان الخان الحاكم في تلك الامبراطورية هو ( تختمش ) الذي استطاع أن يستولي على السلطة بمساعدة تيمور ( كما سبق وأوضحنا ) ولكن لم يمض وقت طويل حتى قلب لسيده ظهر المجن ، وقاد حملة طائشة إلى القوقاز ، وهكذا حل عليه غضب الفاتح العظيم ونقمته ، ففي عام ١٣٨١ بدأ تيمور هجومه على تابعه السابق ، وبعد قتال أولي فيما وراء النهر انتهى الأمر بما لا يعجب تختمش وفتحت الطريق أمام تيمور الذي تقدم إلى منطقة الفولجا ، ولكنه سرعان ما انسحب ، عندها بدأ تختمش قتالاً مريراً لاسترجاع عرشه ، ولكن تيمور عاد في عام ١٣٩٥ على رأس حملة أنهت نفوذ تختمش إلى الأبد واضطر هذا للفرار من البلاد ، وبسبب عداوته القديمة مع موسكو التجأ إلى بلاط دوق لتوانيا الأعظم المدعو ( فيتولد ) وكان هذا الدوق قد عقد معه حلفاً دفاعياً هجومياً عام ١٣٩٢ ، وتعهد الآن بارجاعه إلى عرش القبائل الذهبية ومقابل ذلك أصبح من المفهوم أن تختمش سوف يعترف بالدوق سيداً لجميع روسيا في المستقبل ويعطيه مقاطعات كثيرة ، معظمها يخص أمير موسكو ، وبعضها يخص القبائل الذهبية مباشرة ، وهكذا أصبح لدى الدوق ( فيتولد ) شبه حق بالمطالبة ببعض أراضي القبائل الذهبية بهدف مد سلطانه إلى البحر الأسود ، ولكن خاب أمله ، فبعد عدد من الغزوات التمهيدية التي جعلته يظن أنه من السهل عليه

كسر شوكـة القبائل الذهبية ، والتي جعلته يتقدم جنوباً على ضفاف نهـر الدنيبر ، ووجه بهزيمة حاسمة على ضفاف نهر فورسكلا في ١٢ آب عـام ١٣٩٩ ، وذلك قرب مدينة بولتافيا الحديثة وذلك لأن القبائل الذهبية قد استعادت قوتها بعد سقوط تختمش عندما استلم السلطة أحد أمناء القصر المدعو ايديجو ، وكان قائداً محنكاً وقديراً .

إن استيقاظ القبائل الذهبية هـذا واستعادتها لقوتها سبب سيطرتها ثانية مما جعلها تجبي الجزية لصالح ( بودوليا ) ، وقد واجه الدوق فيتولد هزيمة منكرة مما أدى إلى كبح طموحاته ، وصرف الأذى عن القبائل الذهبية مدة من الزمن ، هذا وقـد تقلصت سلطة كورياتوفتش في هـذه الفترة واندثرت ، وأما ( ايديجو ) حاكم القبائل الذهبية الجديد فقد وجه اهتمامه إلى روسيا حيث احتمى تختمش في آخر الأمر ، وفي شتاء عام ١٤٠٦ـ١٤٠٧ استطاع القضاء على قوة الوصي المتسلط ، وفي عام ١٤٠٨ تعرضت موسكو لحصار آخر ، وهكذا وضع ( ايديجيو ) حداً لتمردها ، ولكن هذه الحروب سببت عبئاً ثقيلا على موارد القبائل الذهبية ، إلى حد ان ( ايديجيو ) لم يستطع أن يمنع رجوع النفوذ اللتواني ولو جزئياً على الفولغا ، حتى أن ( الدوق فيتولد ) أصبح يدبر إعادة الخانات إلى الحكم بما فيهم ابناء تختمش الذين كان راضياً عنهم ، وهكذا سعى إلى إضعاف سلطة ( ايديجيو ) وضعضعتها بحيث أن هذا أصبح من الصعب عليه الاحتفاظ بنفوذه وسلطته ، وبعـد موت ( ايديجيو ) عام ١٤١٩ استطاع اللتوانيون أن يبقوا القبائل الذهبية تحت وصايتهم مدة عقدٍ من الزمان ، وهكذا استطاع ( فيتولد ) أن يحرز مبتغاه بالحصول على منفذ على البحر الأسود ، وأصبحت المنطقة بين نهري الدنيبر والدنيستر منطقة نفوذ خاضعة للتوانيا ، واستطاع أن يشيد قلعة في الموقع الذي يؤلف أوديسا الحالية .

لقد دامت سيادة اللتوانيين في هذه الأجزاء طيلة حياة حاكمهم العظيم أي حتى وفاته عام ١٤٣٠ ، ولكن تدخلاته المستمرة تركت حالة من الفوضى

في صفوف القبائل الذهبية ، حتى أنها بدأت بالتفسخ الداخلي بعد مدة قليلة وقد أثرت سياسته بحيث أصبحت العادة أن يعين الخانات حسب رغبة كل فريق متغلب ، وساعد هذا العمل على الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية أكبر مدة ممكنة ، ولكن في عام ١٤٣٨ حدث انفصال واضح عندما كُسِر أحد الطامعين في العرش ، وغُلِب على أمره ، ولكنه لم يعترف بالأمر الواقع فعمل على إنشاء دولة صغيرة يحكمها ، عاصمتها مدينة (قازان) قرب انحناء نهر الفولجا ، واسم هذا الحاكم هو أولونج محمد ، وهكذا انقسمت امبراطورية القبائل الذهبية الى قسمين ، أو دويلتين ، وهما : دويلة القبائل العظمى ، ودويلة خانات قازان ، وسرعان ما حدث انقسام آخر في الجنوب الغربي عام ١٤٤٠ ، عندما أنشأ أحد أفراد الأسرة المالكة دويلة خانات القرم ، والتي بدأت تزدهر تحت قيادة خانها النشيط ( حاجي جيراي ) ، ثم نشأت دويلة خانات اسطراخان على مصب نهر الفولجا .

وهكذا نجحت خطة الدوق فيتولد ، في إيجاد خانات متنازعين بعضهم ضد بعض ، ولكن هذه السياسة لم تثمر إلا بعد موت الدوق ، فلم تعد هناك حاجة لممارسة السياسة القديمة ، وهو وجود أمراء يمكن استمالتهم بالوعود التي يعطونها لفريق معين ، وبذا يفوزون بالحكم والعرش ، بل أصبحت القبائل الذهبية التي كانت مرهوبة الجانب ، ألعوبة ، كالكرة تتقاذفها أهواء القوى في أوروبا الشرقية ، ولكن الخطر على دول التتار ظل منكمشاً لسبب يرجع إلى انقسام الدول الأوروبية الشرقية إلى ثلاث دويلات رئيسية كانت في خصام دائم بعضها مع بعض ، وذلك بسبب اختلافاتها الثقافية والدينية ، فمن جهة واحدة وقف اللتوانيون والبولنديون الذين كانت بينهم علاقات وثيقة بعد عام ١٣٨٦ تحت قيادة ( أسرة جاجلونيان ) البولندية ، التي كانت تحكم في كلا البلدين ، ومن الجهة الأخرى وقف أمير موسكو الكبير ، والدويلات الروسية الصغرى التي كان أمير موسكو يسعى دوماً لقص أجنحتها ، هذا وكان الحسد المتبادل سبباً في ظهور حالات من التوتر بينها .

كان تتار القبائل الذهبية يعتمدون لمدة طويلة على موسكو ، بعد أن أطلق سراح أمير موسكو الكبير باسيل الثاني الأعمى من سجون الخان لقاء شروط ودية عام ١٤٤٦ ، بينما نرى ( الحاجي جيراي ) من جهة أخرى يقضي جزءاً من شبابه في العاصمة اللتوانية ( فيلنا ) ، ولهذا أصبحت العلاقة وثيقة بينه وبين دوق لتوانيا الكبير المدعو ( كازيمير ) ، الذي أصبح ملك بولنده عام ١٤٤٧ باسم كازيمير الرابع ، ولهذا أصبح مركز (الحاجي جيراي)مدعوماً بشكل لا يخلو من القوة ، وإن التفاصيل الوافرة بين أيدينا من المصادر تجعل من السهل أن تتتبع الحوادث والتكتلات التاريخية لهذه الدويلات ، فالقبائل المغولية في القرم كانت تتربص بنفـوذ موسكو بكل ما أوتيت مـن قوة في ( قازان ) ، حيث كان المسكوفيون يعيّنون من شـاءوا بمنصب ( الخان ) ، ويعتبرون المنطقة تحت وصايتهم وحمايتهم، وكان الأمراء المسكوفيون من جهة أخرى يحاولون التوسع باتجاه جنوبي شرقي على أمل أن يستطيعوا بشكل ما أن يؤسسوا علاقات تجارية مباشرة مع الدويلات الواقعةعلىالبحر الأسود والمتاخمة له ، ولتسهيل مهمتهم هـذه أصبحوا يتوددون لنيل دعـم القبائل العظمى ، وكانت الخصومات الحاصلة طويلة الأمد ومعقدة ومريرة ، ولم تعط الثمرة المرجوة طيلة بقاء ( الحاجي جيراي ) حياً ، وهو الذي تمسك بكل قواه بالتحالف مع لتوانيا ، ولكن عند موته عام ١٤٦٦ تغيرت الأوضاع وانعكست تماماً ، فبعد فترة من الفوضى فاز بالعرش في القرم ابنه ( منجلي جيراي الأول) وهو أعظم أمير في تاريخ بلاد القرم ، ولقد تخاصم (منجلي) هذا مع(كازيمير) وتقدم منجلي هذا باقتراح لدى الأمير إيفان الثالث المسكوفي، يعرض تحالفهما، وقد قبل إيفان الثالث هذا العرض بعد تردد ، وكان هذان الحاكمان يتابعان أهدافاً متعارضة ، فكان همّ منجلي الأعظم هـو التغلب علـى منافسيه في ( القبائل العظمى ) أما هم ( إيفان ) فكان التوسع في اتجـاه جنوبي شرقي باتجاه تشيرنيجوف ، وسيفيريا ، وهذا ما حدا بالخان أحمد ، الخان الجديد للقبائل العظمى إلى التحالف مع كازيمير الرابع أمير بولنده ولتوانيا وقد نجح في تحقيق ذلك في حوالي سنة ١٤٦٥ .

وأخيراً ظهر أن الحلف بين (منجلي جيراي) و (إيفان الثالث) ظل معطلاً تعطيلاً موقتاً طالما أن كل واحد منهما كان مشغولاً في سياسة منفصلة لا تستدعي تعاونهما المشترك ، إذ بينما كان حاكم موسكو يرنو بعينيه إلى احتلال جمهورية مدينة ( نوفوجورد ) العظمى التجارية التي احتلها أخيراً ، نرى خان القرم يسعى الى تصفية حساباته مع تجار ( جنوى ) في القرم ، إذ أن مستوطنات الجنوبيين قد ازدهرت ، وعظم شأنها بعد أن اجتازت عدةمحن ومصائب أصابتها قبل نشوب الحروب الأهلية بين التتار في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، بينما نجد أن مستوطنات البندقية ذبلت وقل شأنها ، وقد أصبح جميع ساحل القرم الجنوبي عملياً بيد تجار جنوى ابتداء من عام ١٣٦٥ فصاعداً ، ولكن مصالحهم تضررت كثيراً بسبب توسع اللتوانيين تجاه البحر الأسود ، وذلك لأن الطرق التجارية تحولت الى الطريق الواقعة بين مالدافيا وبودوليا ، وغاليشيا نتيجة للتسهيلات والأفضليات التي منحها « دوقات » لتوانيا وهسبودارات مالدافيا وملوك بولنده ، وبالنسبة لإضعاف شأن هذه المستوطنات بعد ظهور الامبراطورية العثمانية التي توجت انتصاراتها باحتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، نجد أن هذا الانتصار لم يؤثر كثيراً ، وذلك لأن الجنويين والأتراك العثمانيين توصلوا الى تفاهم تجسّد بعقد معاهدات تجارية بين الفريقين ، لكن الأحوال ما لبثت أن بدأت تسوء بالنسبة للتجار الجنويين في القرم ، حتى أنهم ابتداءً من عام ١٤٩٩ فصاعداً اتخذوا موقفاً موالياً لملوك بولندة الذين كانوا بالحقيقة أعداءهم في المجالات التجارية،وقد قبل هؤلاء حماية اللتوانيين ، وهذا مما زاد في غيظ ( منجلي ) وسخطه عليهم وتمنى لو يكيل لهم ضربة قاضية •

في عام ١٤٧٥ سقط آخر معقل من المعاقل الايطالية على البحر الأسود وهو ميناء ( كافا ) بعد دفاع مستميت وبسقوط هذا الحصن انتهت سيطرة اللاتين على القرم بعد أن أخفقت كل محاولاتهم التبشيرية لمدة قرن ونصف القرن من الزمان •

وتصادف سقوط مستوطنات جنوى وتدميرها مع تطورات هامة لـم يُعرف لها سبب مفهوم ، ففي أثناء حصار ( كافـا ) اشتركت فرق عسكرية عثمانية وتتارية ، وتعاونتا ، وبينما تم لمنجلي القضاء على آخر معقل للنفوذ الأجنبي في القرم ، نرى أنه هو نفسه قد قدم ولاءه وخضوعه التام للسلطنة العثمانية ، ويمكننا أن تتخيل كم كان هـذا العمـل شديداً ومؤذياً بالنسبة لحاكم القرم ، ولكنه كان واقعياً ، فأخذ في الحصول على الإمداد والمساعدة بدلاً من انقاص قوته بالخصام مع العثمانيين ، حتى أنه قَبِلَ عن طيبة خاطر أن يقيم ابن السلطان العثماني «محمد الثاني» الفاتـح في ( كافا ) ويعتبرها مركزاً عثمانياً .

لقد وصل كل من الحاكمين الى أهدافهما بعد الاستيلاء على ( كافا ) ، و(نوفوجرود) على التوالي وأحرز كل منهما غايته المبتغاة ، فاستطاع كل منهما أن يتفرغ لمعالجة شؤون روسيا الجنوبية ( أوكرانيا ) ، ولكن هـذا الوضع جعل ملك بولندة ( كازامير الرابع ) يرد على ذلك بالدخول في حلف مع خان القبائل العظمى ( أحمد ) ، ولكنه أخفق في نجدة حليفه ومساعدته عندما زحف الأخير ضد موسكو في صيف عام ١٤٨٠ ، حتى أن أحمد اضطر للانسحاب على محاذاة نهر ( أوكا ) بعد أن وقف عـدة شهور مقابل ( ايفان الثالث ) ، واضطر للانسحاب بسبب حلول فصل الشتاء القاسي ، ولكن الأمير العظيم ( إيفان ) الذي لم يُظهر أي ثبات أثناء الساعات الحرجة استطاع أن يرجـع إلى موسكو ويدخلها دخول الظافرين ، بينما مات أحمد مقهوراً أثناء انسحابه مع جيشه من ( القبائل العظمى ) ، وقد تقاسم أبناؤه الميراث ، ولكن أحدهم المدعو سعيد أحمد نجح بالحصول على المركز الأعلى .

لقد انتهز ( ايفان الثالث ) فرصة انتصاره عام ١٤٨٠ لتعزيز مركزه في روسيا ، ففي العقود القليلة الماضية كان أمراء موسكو قد عقدوا معاهدات مع الأمراء الروس الآخرين يجبرونهم بهـا أن يسلموا الجزية ، التـي كانوا يدفعونها للخان ، لهم بدلا من الخان ، وهكذا أجبر جميع الأمراء الآن على

عدم دفع أي شيء للخان، وأكثر من هذا على قطع علاقاتهم كلياً مع القبائل التتارية، وقوبل تفتت امبراطورية القبلية الذهبية بارتياح شديد في موسكو ، فقد شعر الشعب الروسي بالراحة من مضايقات المغول المتكررة ، ولكن (القبائل العظمى) لم ينته أمرها بعد ، فقد رجع ( منجلى جيراي ) واستعاد سلطته في القرم بعد فترة نفي بسيطة ، وعندها عمد إلى الاتفاق مع إيفان الثالث لسحق القوة الصاعدة ( السيد أحمد ) إلى الأبـد ، ولكن تنفيذ هذه الخطة تأخـر لأن مصالح أصحابها كانت متضاربة ، فقد كان حاكم موسكو أولاً يتوق للحرب مع لتوانيا ، واضطر إلى وعد خان القرم على أساس قيام الأخير بالهجوم على جنوب لتوانيا وبولندة فضلا عن الاستعداد للعمل ضد خان (القبائل العظمى)، وفي تلك الأثناء كانت موسكو في مركز تستطيع به تقوية مركزها ونفوذها في ( قازان ) حيث كانت الخصومات المحتدمة تستدعي التدخل ، ولكن فجأة إذا بايفان الثالث يعقد معاهدة صلح مع دوق لتوانيا الكبير ( الاسكندر ) الذي كان صهره ، وقد استلم العرش عام ١٤٩٢ ، وأدى هـذا إلى تفاقم الأمور بين موسكو والقرم ، وذلك لأن القرم كانت قد تورطت في حرب مع لتوانيا ، وأصبحت في مركز لا تحسد عليه إذا لم ينجدها أو يساعدها أحد ، وأخيراً وصل الجميع إلى اتفاق جديد نتيجة لدبلوماسية ايفان الثالث الناجحة وبسبب التهديد لحكم ( منجلى ) من قبل سيد أحمد ، وكنتيجة لهذا الاتفاق استطاع دوق موسكو الدخول في علاقات دبلوماسية مع سلطان الاتراك في القسطنطينية لأول مـرة في عـام ١٤٩٥ ـ ١٤٩٦ ، وكانت علاقاتهم أولا تتخذ طابعاً تجارياً كانت القبائل التتارية تأخذ فيها دور الوسيط ، وقد اضطر سيد أحمد نظراً لوضعية بلاده الجغرافية غير المواتية ، إلى التغاضي عن هزيمة والده وتجاربه المريرة عام ١٤٨٠، فاستأنف علاقاته الودية مع لتوانيا وبولندة، ولكن هذا سبب غضب السلطان العثماني عليه وذلك لأن القوات البولندية واللتوانية المتحدة دخلت مولدافيا في محاولة عنيدة للفوز بالوصول المباشر إلـى البحر الأسود ، وكـان هدفهم استرجاع المناطق التي استلمها الاتراك

العثمانيون حول كيليا ( تشيليا ) عام ١٤٨٤ و ( آق كرمان ) ( سيتاتيا ألبا وتدعى الآن بيلي غورد ) وقد أصدر السلطان العثماني أمراً إلى حاكم ( القبائل العظمى ) أن يتوقف عن أعماله العدائية ضد ( القرم ) ونتيجة لذلك نجد أن عدة من خيرة فرق جيش سيد أحمد تحت قيادة قائده ووزيره ، قد هربت وانضمت إلى ( منجلي ) قبل أن تنتهي الحرب ، ووقعت المعركة النهائية بين سيد أحمد ( ومنجلي ) في حزيران عام ١٥٠٢ ، ولم تصل الينا أية تفاصيل عن هذه المعركة ، ولكن النتيجة كما هو متوقع أن بقية جيش سيد أحمد سحقت عن بكرة أبيها ، ولم تعد قوة نظامية بعد ذلك ، أما بقية من نجا فقد امتصه جيش القرم ، وقد وقع سيد أحمد نفسه أسيراً وأعدم عام ١٥٠٥ لأسباب سياسية ، وبهذا اختفت تلك الدويلة التي كانت الوريثة الوحيدة للقبائل الذهبية ، والتي كانت دوماً تحت رحمة جيرانها في السنوات الأخيرة ، وانتهى أمرها ، وفي وسط المعترك السياسي المعقد لأوروبا الشرقية نجد أن أحد اللاعبين الضعفاء قد اختفى من الساحة .

ولكن دويلات قازان واسطراخان والقرم ظلت موجودة تحافظ على كيانها وقد تأسس اقليم تاتاري جديد في غربي سيبريا ، فالعطاء السياسي لفتوحات المغول عام ١٢٤٠ لم يندثر وظل قائماً ، ولكن العلاقات والصلات الجغرافية بين خانات الفولجا والقرم تقطعت ، وبقيت أراضٍ واسعة من البلاد دون حماية ضد هجوم موسكو من الجنوب إذ أن الروس لم يهملوا انتهاز الفرص المتاحة لهم خصوصاً بعد أن أحرز ايفان الثالث ما ابتغاه ضد ( ليتوانيا ) عام ١٥٠٣ ، وأما قازان فقد وقعت تحت حكم موسكو وذلك لأن محاولات تاتار القرم بالتدخل أخفقت ، كما أن الخصومات الداخلية الدائمة جعلت هذه الدويلة تعتبر كإحدى الدويلات القليلة الشأن ، هذا وقد انضم كثير من أمراء الأسرة المالكة في قازان إلى خدمة الروس وبعضهم اعتنق الديانة المسيحية ، وفي عام ١٥٥٢ عمد إيفان الرابع ( الرهيب ) بعد بلوغه سن الرشد بقليل إلى إعداد حملة ضد قازان ، ولم يلق هذا أية مقاومة تذكر ،

وفي ١٥ تشرين الأول عام ١٥٥٢ سقطت المدينة وسقطت ( الخانية ) معها ، وفي عـام ١٥٥٤ سقطت اسطراخان أيضـاً ، وكانت هاتان الحادثتان علامتين فارقتين لانتهاءالنفوذ الآسيوي في أوروبا الشرقية ، التي قاست الأمرين منذ عام ١٢٤٠ ، وقد انتهى أمر ( خانية ) سيبريا الغربية عام ١٥٨٤ ، ولم تبق إلا ( القـرم ) تحت حكم أسرة ( جيراي ) التـي اعترفت بسيادة السلاطين العثمانيين ، وقد ساعدها أنها لم تكن تقع عبر طريق المسكوفيين الذين اعتبر قياصرتهم أن وجودها هو مشكلة سياسية خارجية أكثر منها مشكلة داخلية وطنية ،ولسوف ندرس تطورها التالي في فصل خاص .

لقـد ظلت الدويلات المستقلة تؤمن للشعب التاتاري أراضيـه التي احتلها منذ القرن الثالث عشر كذلك حريته الدينية والثقافية ، وظل الحال على هذا المنوال حتى سقوط خانات الفولجا ، وهذه الحالة سهلت ذوبان الأتراك والمغول في الفولجا في كيان جديد هو الكيان التاتاري المسلم ، في معتقداته والتركي في لغته والذين اعتبروا أنفسهم رغم بعض الاختلافات في اللهجات أنهـم ينتمون إلى أمة واحدة تختلف بشكل واضح عن الروس والفنلنديين الشرقيين وقـد كان التسامح الديني سبباً في بقـاء الروس علـى المذهب الارثوذكسي ، وأما الفنلنديون فبسبب بعدهم لم يصل إليهم الإسلام ، وقد تأثرت كل هذه الشعوب طبعاً بالمعيشة جنباً إلى جنب قروناً من الزمن ، ولقد تسرب قسم كبير من الدم الفنلندي إلى عروق الأمة التاتارية ، بينما أضاف الأسرى الروس البولنديون من كلا الجنسين شيئاً من العنصر السلافي ، مع أن السمات الروسية كانت لا تزال في منتصف القرن الخامس عشر ، وهنالك نقطة لا تقل أهمية عن عناصر بناء الأمة التاتارية المذكورة آنفاً ، وهي أن هذه الأمة أصبحت أمة مستقرة ابتداء من القرن الرابع عشر فصاعداً ، فالبداوة بدأت تضمحـل ، وعندما سقطت ( الخانيات ) أصبـح السكان زراعيون بالدرجة الأولى مع بعض الميول والمصالح التجارية .

وبنفس الوقت حافظت الحضارة الإسلامية على الفولجا علـى وجودها ونقاوتها وليس لدينا أي دليل يشير إلى أن الحضارة الروسية قد مارست أي تأثير على الأمة ( التاتارية ) بـل بالعكس فقد انعكست المعتقدات والأفكار التاتارية دون شك على الطقوس الاحتفالية في البلاط الروسي ، ليس بشكل مباشر بل بالتمازج بين التأثيرات البيزنطية ومظاهر البلاط الروسية القديمة التي كانت ظاهرة أيضاً ، والحقيقة أن هذا الموضوع لم يوف حقه من البحث والاستقصاء ، وقد بقي غامضاً إلى حـد ما ، ولكن من الواضح أن اللغـة الروسية قد اغتنت بمـا أحرزته من الكلمات التاتارية ، وهذا يدل على أن الروس اكتسبوا مآثر ثقافية وتقنية من ( التاتار ) ، ولنـا على هذا الأساس أن نستنتج أن التأثيرات الاجنبية كانت تعمل بنشاط في النظام المالي والبريدي في روسيا ، وكثير من الحرف مثل الأعمال المعدنية ، وكانت أقوى تأثيرات التاتار على الروس وأكثرها ديمومـة هي الأساليب العسكرية ، وإن تنظيم الجيش الروسي على النظام العشري هو من أصل تاتاري ، والأسلحة وتقنية الفرسان التي استعملت حتى أواخر العصور الوسطى في روسيا قد تطورت حتماً من الاساليب التاتارية .

# الحكم الروسي في الفولجا

بسقوط الخانيات ( ما عدا خانية القرم ) تعرّض التاتار لتغييرات جذرية، إذ لم يعد لهم حكام من طينتهم يحمونهم ، وتوقفت منطقة الفولجا ، التـي أصبحت تحت حكم الروس ، عن عمـل أي دور في العالم الاسلامي ، ولن يفوتنا في هذا الفصل بحث مصائر هذه المنطقة ، فقد تابع القيصر إيفان الرابع انتصاراته بتوحيد جميع الاصقاع التاتارية تحت ادارة منطقة واحدة لم تزل تسمى خانية قازان ، ولكنها تحكم على قواعد وأسس روسية ، وكانت هذه الخانية تمتد من بلاد تشيرميس حتى بحر الخزر وتشمل اسطراخان وسهوب القوقاز الشمالية ، ولم يهتم الروس كثيراً بالحفاظ على التاتار كأمة ، فمن البداية عمد الروس إلى تنشيط الهداية التبشيرية التي كانت تعتبر واجباً دينياً بالنسبة لدولـة مسيحية في القرون الوسطى ، وأمـا بالنسبة لمنطقة الفولجا فقد استهدفوا تحويلها إلى أرض روسية ، لهذا انشئت بطركية ارثوذكسية في قازان وبنيت عدة أديرة ، وانتشر التبشير برسالة الإنجيل في طول البـلاد وعرضها ، وكما كان هنالك عدد كبير من الأسر النبيلة قد تحولت إلى الديانة المسيحية أثناء القرون الماضية ، فقد كان الاعتقاد في موسكو أن امكانيات النجاح في الأراضي التاتارية عظيمة دون أدنى شك أو ريب ، والحقيقة أن اعتناق الدين المسيحي من قبل هذه الجموع قد تقرر باعتبارات اجتماعية من نفس طبيعة الاعتبارات التي ساهمت في الانتصار السريع للإسلام بين الطبقة النبيلة الفارسية في القرن السابع والثامن ، وبين النبلاء في البوسنة في القرن الخامس عشر ، ولكن الجماهير العريضة من الشعب التاتاري بدأت تبدي

مقاومة ضارية من النوع الذي كانت الهيئات التبشيرية المسيحية تواجهها كلما تعاملت مع المسلمين ، وقد حدثت ثورات عنيفة بعد وقت قصير من فتح تلك المنطقة ، وقد أخمدت هذه الثورات باجراءات عنيفة وسريعة كان من نتيجتها أن شعب « الباشكير » وهو شعب تركي أو ( متترك ) كان يعيش في جنوب شرقي تاتار قازان ، خضع طوعاً للحكم المسكوفي عام ١٥٥٤ .

ولم تكن النشاطات التبشيرية هي الوحيدة التي أثارت نقمة ومقاومة الشعب التاتاري ، إذ أن النظام المالـي الظالم المجحف أثقل كاهل دافعـي الضرائب ، ومما زاد الطين بلة أن البلاد اجتاحتها موجة عارمة من المهاجرين الروس ، فالقادمون الجدد لم يكفهم أن استقروا في أراض مسالمة خصبة بين نهري الفولجا وكاما ، بل في كثير من الظروف كانوا يحتلون مكان السكان المسلمين في المدن والقرى ، وفي أثنـاء هذه الفترة أخليت ( قازان ) تماماً من سكانها المسلمين ، فقد منع التاتار من السكن في المدينة ، وزرعت مناطق واسعة حولها بالمستوطنين الروس بصورة خاصة ، فقد كان طوفان المهاجرين الروس ، فالقادمون الجدد لم يكفهم أنهم استقروا في أراض مسالمة خصبة بين أينما حل في تلك المناطق الجديدة ، فالميل نحو التوسع والهجرة في الماضي الذي كان يتوجه شمالا وباتجاه شمالي شرقي منذ الفتح التاتاري في القرن الثالث عشر أصبح الآن يتوجه جنوباً ، وكما قلنا سابقاً إن موجات الهجرة هذه لا يشبهها أي ظاهرة مماثلة في التاريخ ــ سوى هجرات الألمان نحو الشرق ــ سواء في استمراريتها أو في حجمها[1] .

ونشبت ثورات أخرى في أواخر أيام حكم ايفان الرابع ، ولم تخمد إلاّ بعد موته عام ١٥٨٤ وانضم في هــذه الثورات الشعب الفنلندي علـى الفولجا إلى الشعب التاتاري ، لأن هؤلاء الفنلنديين قـد قاسوا أيضاً من الهجرات الروسية ، وتتيجة لهذه الثورات اضطر الروس لإعادة تنظيم جهازهم

---

(١) أسس الرواد الروس خوتسك على شاطىء الباسفيك سنة١٦٣٨م.

الإداري عام ١٥٨٦ ، وصدر قرار في عام ١٥٩٣ يأمر بهدم المساجد الموجودة ويمنع إقامة مساجد جديدة ، والحقيقة أن هذه الاجراءات وغيرها من الأعمال القاسية الشديدة ، كانت تدل على أن الروس لم يكونوا يعتمدون على التاتار في أي عمل ، إذ أن علاقات هؤلاء التاتار التجارية مع آسية الوسطى كانت مصدر قوة ونفع لهم يعوض عن حرمانهم في الأمور الأخرى ، والحقيقة أنه لولا نشاط التاتار التجاري لما أصبحت قازان على ما كانت عليه من الأهمية كمركز تجاري هام ، وقد كان التاتار يمثلون دور البلغار في الأزمنة الغابرة ، وإن احترام الروس لهذه الاعتبارات العملية ساعد التاتار على أن يتخطوا تلك الفترة العصيبة من الإرهاب الرسمي المقيت ، وفي أول الأمر لـم يكن هنالك تفكير في المعاملة بالمثل بالنسبة للروس الذين كانوا يعلمون كيف كان الأتراك العثمانيون يعاملون رعاياهم المسيحيين في البلقان بكل تسامح ديني ، نظراً لما كان يأمر به القرآن الكريم بمعاملة المسيحيين بالتسامح ، ولكن في عام ١٦٦٥ هدد الباب العالي العثماني باتخاذ اجراءات انتقامية ضد المسيحيين في البلقان ، إذا استمر الروس في اضطهاد المسلمين ، ولم يحسّنوا معاملة رعاياهم المسلمين ويضعوهم على قدم المساواة مع المسيحيين .

ان تشجيع الروس لنشاط التجار التاتار الأغنياء كان له نتيجة أخرى وهي أن مصالح هؤلاء التجار ( بعكس عامة الشعب ) ارتبطت بروابط وثيقة مع السياسة العامة للدولة الروسية ، وهكذا أصبح للقياصرة مؤيدون بين التاتار ، ففي أيام الاضطرابات في روسيا عام ( ١٦٠٦ — ١٦٠٩ ) اتخذ عامة الشعب التاتاري في الفولجا موقفاً مؤيداً لديميتريوس المزيف واشتركوا في نهب الأديرة وقصور النبلاء ، بينما وقفت الطبقة العليا التاتارية مع القانون والنظام وساعدوا الحركة التي تدعو لطرد البولنديين وانتخاب قيصر جديد وهو ( ميخائيل رومانوف ) عام ١٦١٣ ، فوثيقة الانتخاب تحتوي على سبع تواقيع تاتارية .

وفي أوائل الفترة التي تلت سُنّت قوانين أرحم من سابقتها وألغيت

فكرة الهجرات الجماعية السابقة ، ثم استؤنفت المحاولات لتحويل التاتار إلى الديانة المسيحية ، واتبعت اجراءات مالية لزيادة مفعول وتأثير الدعاية التبشيرية ، وفي عام ١٦٢٨ صدر قرار بمنع أي مسلم يملك أرضاً من استخدام عبيد أرض [ أقنان ] مسيحيين ، وفي خلال القرن السابع عشر جرت محاولات لتمليك التاتار الذين تحولوا إلى الديانة المسيحية أراضٍ كانت لأقاربهم المسلمين ، وقد تحول بعض التاتار الذين أخذت منهم أراضيهم إلى الشؤون التجارية ، وذلك لأن الحكومة الروسية كانت بحاجة للتاجر المسلم وطبقته ، ولذلك تركت هؤلاء التجار دون مساسٍ بهم ، أو إزعاجهم ولكن نسبة كبيرة من النبلاء التاتار تحولوا إلى الديانة المسيحية ، لأنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عن أملاكهم وثرواتهم ، وأما المتحولون إلى الديانة المسيحية ، ممن هم أقل شأناً من النبلاء ، فقد كافأتهم الدولة بإعفائهم من الضرائب ومن الخدمات الشخصية ، كعمل السخرة ، والخدمة العسكرية الخ .. وهكذا اقتنع عدد لا بأس به من الطبقة الوسطى بتغيير دينهم ، وفي بعض الحالات اعتنقت قرى بكاملها ، وقبائل برمتها الديانة المسيحية ، وكانت نتيجة ذلك أن ظهرت خلال قرن من الزمان مجتمعات كاملة من التاتار المسيحيين يبلغون عشرات الألوف ويعرفون باسم ( كرشن ) أي ( المعمدون ) ، وأصبحت هذه المجموعات قوية ومتماسكة بشكل تام ، بنقل المسلمين المجاورين من بينهم ، ووضعهم في أماكن أخرى .

ورغم كل هذه المحاولات والنجاحات التبشيرية استمرت الغالبية العظمى من التاتار على اعتناق الديانة الاسلامية ، وهكذا تعرضوا إلى عدد من الاضطهادات على يد الحكومات الروسية ، وقد كانت القيود التي وضعت على حرياتهم ، وخصوصاً في اجبارهم على أعمال السخرة ( مثل قطع الاشجار للسفن وحراثة أراضي الدولة الخ .. ) كل هذه الأعمال التي كانوا يجبرون عليها رغماً عن استيائهم ( وذلك خلال القرن الثامن عشر ) ، جعلت التاتار أول من ساهم في أية حركة ضد الحكومة ، وقد كان هنالك عدد من المسلمين

في جماعة ستنكاراسين عام ( ١٦٦٧ ـ ١٦٧١ ) وكندراتي بولدفين ( ١٧٠٨ ) واميلان بوقشيف ( ١٧٧٣ ـ ١٧٧٤ ) وقد انتشرت في مناطق الفولجا تمردات أخرى منفصلة قضت الدولة عليها كما قضت على التمردات الكبرى ، وجواباً على التمردات زيدت حدة وشراسة القوانين الموضوعة ، فقـد تغير وضع خانية قـازان ، وأصبحت في عـام ١٧٠٩ ولايـة حكومية ، وزاد الاهتمام بالسياسة التبشيرية ، وبالشؤون المالية ، وفي أثناء جميع هذه الاضطرابات كان من الواضح أن قسماً كبيراً من الطبقات العليا التاتارية بـدأ يبدي رغبته بالتعاون مع الروس ، فالحكومة كانت تتلاعب بالمجموعات الوطنية المختلفة من التاتار والباشكير وفنلنديي الفولجا وتحرضهم بعضهم ضد بعض ، وحتى الزعماء المسلمين الذين كانوا يأملون بالحصول علـى مساعدة العثمانيين ، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر تدخل الشاه الشيعي ( عباس الكبير ) في ايران، هؤلاء أيضاً حافظوا على الهدوء ، فلم يستطيعوا بأي حال من الاحوال أن يكرروا الجهود المتواضعة التي قام بها الأولون لنشر الإسلام بين فنلنديي الفولجا ، وخلال القرن الثامن عشر بدأت الكنيسة الأرثوذكسية بنشر الديانة المسيحية بين تلك القبائل التي كانت لا تزال وثنية ، ولتجنب الضغط الروسي عمد بعض هؤلاء الفنلنديين إلى الهجرة إلـى أراضي الباشكير حيث عاشوا أولاً طبقـاً لعاداتهم وتقاليدهم ، ولكنهم بدأوا بالتدريج يعتنقون الديانـة الاسلامية ، وأصبحوا يتكلمون لغة الباشكير ، وهكذا اندمجوا اندماجاً تاماً ( بالباشكير ) مع أنهم احتفظوا ببعض صفات شخصيتهم الأصلية حتى الوقت الحاضر تحت اسماء مثل ( مشير ) ( وتابتير ) .

لقد كانت حركات الهجرة والتحولات الدينية الجماعية في القرن السابع عشر والثامن عشر ذات أثر على الوضع الجغرافي والسياسي للتاتار ، فالمنطقة التي عاشوا فيها أصبحت محاطة بالمستوطنات الروسية إلى حد أصبحت فيه منطقتهم تحتوي على تنف متفرقة من شعبهم ، وقد سهل تحول بعض تاتار الفولجا وفنلنديي الفولجا إلى الديانـة المسيحية اندماج هـؤلاء بالروس

واندماج بعضهم ببعض ، بينما ساعدت هجرة بعض الفنلنديين إلــى مناطق التاتار على مد وتقوية العنصر الفنلندي بالدماء التاتارية ، وهكذا نرى أنه حتــى الروس في الجنوب الشرقي من روسيا لا يخلون من سمات تتارية ، بينما نــرى أن هنالك سمتان غالبتان على الباشكير والتاتار ، وهما السحنة الطورانية بين أولئك الذين يعيشون في أقصى الشرق ، والسحنة الأوروبية الشرقية بين أولئك الذين هم من أصل فنلندي أو روسي •

لقد كانت الملكة ( كاترينا العظيمة ) ( ١٧٦٢ — ١٧٩٦ ) تتبع سياسة التمييز بين مختلف طبقات الشعب التاتاري طيلة مدة حكمها ، وخصوصاً بعد أن أخمدت ثورة بوجاشيف ففي عام ١٨٧٤ وضعت النبلاء التاتار على قدم المساواة مع النبلاء الروس ، ومنحتهم شيئاً يسيراً من الحكم الذاتي ، فصار بامكانهم الآن النظر في القضايا المدنيــة الصغرى ، وأن ينتخبوا رؤساءهم الروحانيين مثل ( مفتي أورنبرج ) ، وسمح لهم بحمل رتبة ضابط في الكتيبة العسكرية الباشكيرية التي أنشئت حديثاً ، وكان الأمل في تقدمهم الاجتماعي منوطاً باستعدادهم للتعاون مــع الحكومة الروسية ، وعلى هــذا الأساس أصبحت الأمة التاتارية تتمتع بدرجة لا بأس بها من الازدهار والرخاء خلال القسم الأول من القرن التاسع عشر ، وبالاضافة إلى نشاطهم التجاري المحض بدأوا في القيام بنشاطات صناعية مثــل المدابغ ، ومعامل نسيج الصوف ، ومصانع الورق ، وقد أنشأوا دار طباعة ونشر أيضاً ، واشتغلت هذه الدار بطبع الكتب الدينية والاطروحات الطبية ودراسات للحياة التاتارية •

وقــد تنفس الفلاحون التاتار الصعداء وطوروا الصناعات اليدوية ، فضلاً عن الأعمال الزراعية بنجاح تام ، وقد سبب قانون تحرير الفلاحين عام ١٨٦١ بعض التوترات الاجتماعية ، التي وجدت متنفساً لها في بعض الثورات المحلية وخصوصاً في عام ١٨٨١ •

وفي أثناء ذلك ظهرت حركة جديدة بدأت في إثارة تاتار ( الفولجا ) ، ففي أوائل هذا القرن كان المذهب السني لا يزال مسيطراً على حياتهم الثقافية

الخاصة ، ولكن ابتداء من عام ١٨٥٠ بدأت نغمة جديدة من الاصلاح بالظهور تزعمها فئة من المواطنين الشرفاء الذين حازوا بالتدريج على التأييد الشعبي للرأي العام وكان أحد هؤلاء يدعى شهاب الدين مرجاني ( ١٨١٨ ــ ١٨٩٨ ) والتاتاري القرمي اسماعيل بيك جاسبيراتي أو جاسبرنسكي(١٨١٥ ــ ١٩١٤)، فكلاهما كان قد تأثر بالافكار التركية العثمانية والأفكار الأوروبية الغربية ، وقد كان هدفهما الاصلاح التام الجذري للخلفية الفكرية للحياة التاتارية ، ولهذا اعتبرا أولاً مارقين من الاسلام وواجهتهما وبسبب البدع التي قدماها معارضة قوية على يد الزعماء المسلمين بحيث لم يستطيعا أن يسيرا في البداية إلى الامام ولا خطوة واحدة ، ولكن استطاعا أخيراً أن يقنعا الناس حتـى (الملاوات ــ ج • ملا) بأهمية اقتراحاتهما، وقد كانت أفكارهما سبباً في نشوء مدارس دينية جديدة ، أعطت للاطفال معلومات صحيحة عن اللغة الوطنية بأساليب حديثة ، وهيأت الظروف للتقدم في بحث المواضيع الأخرى ، وفي نفس الوقت عمل ( جاسبيراتي ) على خلق لغة وطنية جديدة عامـة تفهمها جميع الشعوب التاتارية ، وكانت قريبة جداً من اللهجات التاتارية ، وبنفس الوقت من اللغة العثمانية التركية ، وقد كان المقصود مـن هذه اللغـة أيضاً أن تكون همزة للوصول بين تاتار الفولجا وشعبهم من تاتار القرم ، وكان هؤلاء قـد قاسوا الأمرّين على يد الروس منذ ضمهم إلى الوطن الروسي عام ١٧٨٣ والهجرة العظمى لعام ١٨٥٦ ( كما سنبين ذلك ) ، وقد كان معظم المصلحين يميلون إلى نشر اللغة الروسية بين الشعب التاتاري ، كما ارتأوا تعريف الشعب التاتاري على الثقافة الأوروبية التي كانت قد انتشرت جذورها في امبراطورية القياصرة •

إن استيقاظ الوعي الوطني بين جميع الشعوب التركية في روسيا وتشابه حياتهم الثقافية والمحاولة لتنسيق اللهجات المختلفة كلها عملت على تشديـد الاحساس بالتضامن والتماسك كأمة مسلمة ، مما جعلهم يستجيبون الى تعاليم القسطنطينية التي كانت تدعو إلى الوحدة الاسلامية العالمية ، ولـم تفاجىء ثورة عام ١٩٠٥ الروسية التاتار ، إذ دعا المسلمون الروس بعد نشوبها مباشرة

الى مؤتمر يبحث في مصالحهم، وفي سبل المحافظة عليها ، وقد مثلهم في الدوما عدد من المبعوثين يصحبهم ( الكاديت ) والأحزاب الاشتراكية التي كان من المنتظر أن تعطف على الطموحات والأماني الإسلامية ٠

وبدأت مرحلة جديدة تماماً بنشوب الثورة الروسية لعام ١٩١٧ ، وكان رد الفعل التاتاري لها مختلفاً حسب الفئات المختلفة ، فإحدى الفئات كانت تصر على الحكم الذاتي في الأمور الثقافية ، ولكنها تعتقد ولأسباب اقتصادية أن من الواجب بقاء الوحدة مع روسيا ، وأما الفئات الأخرى ، فقد طلبت الاستقلال التام للتاتار القاطنين بين الفولجا وجبال أورال ، ولكن لم تحرز أي من هذه الفئات انتصارات ذات بال ، ما عدا أن تاتار القرم تمتعوا بالاستقلال بضعة أشهر ، وتمتعت أزربيجان الشمالية بالاستقلال سنتين (١٩١٨ــ١٩٢٠) ففي أزربيجان هذه حيث كان الحكم الروسي غير راسخ الأركان، بقي السكان المسلمون متماسكون نسبياً ، والحركة الوطنية قوية أيدتها تركيا القريبة ، وأخيراً تغلبت الحكومة البلشفيـة على كل قوى الانفصال ، وعمل النظام الشيوعي الجديد على إعطاء الشعوب التركية المختلفة عدة امتيازات للحكم الذاتي الثقافي ، وهذا الحكم أصبح محكماً ، ووضع موضع التنفيذ ، ولكن بنفس الوقت وضع حداً لتواصل هـذه الشعوب بتقسيمها الـى مناطق ذات استقلال ذاتي ، أو جمهوريات ، وإعلاء شأن لهجاتهـا بحيث أصبحت لغات أدبية معترف بها ، وقـد كانت مناطق الباشكير والقرم وأزربيجان ممن تأثر بهذا الوضع ٠

وبحسب الخطة البلشفية نجد أن هذا الاستقلال منحصراً في اللغة فقط، إذ أن محتوى الثقافة الوطنيـة يجب أن يكون ماركسياً ، وهكذا أصبحت وبشكل متزايد ، وقد أخمدت كل الحركات الرامية الـى الحصول على أي استقلال ذاتي ، إلا أن وظيفة ( المفتي ) بقيت ، وكان المفتي ينتخب على يـد المؤمنين ، ومركزه في ( أوجا ) ، وقد اكتسب المفتي أهمية خاصة منذ ١٩١٧،

إذ أصبح (المؤسسة) الاسلامية الوحيدةالمسموح بها للاتراك في روسيا ، ولكن الحركات ضد الدين امتدت الى الدين الإسلامي أيضاً ، وبقيت سلطة المفتي قليلة وضيقة أيضاً •

ولقد حدثت تغيرات شاملة في الحياة اليوميـة للأتراك في روسيا تحت الحكم البلشفي، فقد أدى موقف البلاشفة المتشددين بكل قوة في أول عهدهم في معاداة الأديان الى نشوء طبقة من الشباب لا دين لهـا ، وخصوصاً وأن حضور الصلوات في المساجد أصبح غير قائم ، وبهذه الوسيلة زالت عقـدة واحدة كانت تحول دون اندماجهم بالخصائص الروسية البلشفية ، وفوق ذلك فإن تغلغل اللغة الروسية استمر في خطوات واسعة سريعة رغـم منح الحكم الذاتي الاستقلالي للغات المحلية ، ففي حين كانت اللغة الروسية سابقاً مفهومة لدى الندرة القليلة أصبحت الآن مفهومة لدى عامة الشعب ، مع أن فهمها يظل الى حد ما غير شامل بعمق تماماً ، ولكن جمهرة من أغلبية الشعب فضلوا وبسبب الفوائد الشخصية العملية أن يحضروا الدروس في المدارس الروسية على الذهاب الى المدارس التاتارية ، فأصبحوا يجيدون اللغة الروسية أكثر من لغتهم الأم ، وإن اتباع نظام المدارس الجماعية في منطقة الفولجا والقرم بين عامي ١٩٢٨ ــ ١٩٣٠ أجبر عدداً كبيراً من الفلاحين على الهجرة الى مناطق أخرى في روسيا ، وعلى نطاق واسع الـى أواسط آسيا ، وقد حـل محلهم فلاحون روس ، وهكذا أصبح العنصر التاتاري مهدداً بالفناء أكثر مما كان عليه قبل جيل ، ومع أن نسبة الشباب الذين تنكروا للغتهم الوطنية وثقافتهم لا تزال ضئيلة ، إلا أن تزايد نسبة الزواج المختلط مـن جنسيات متعددة ، عندما يكون الفريقان أي الزوج والزوجة من الملحدين المنكرين لوجود الله يظهر لنا بوضوح التيار الجديد الذي يجرف المجتمع الآن ، ولا نعلم إذا كانت التنازلات لمصلحة الأديان التي حدثت في عام ١٩٤٢ أو إذا كان الدعم الذي أعطاه الكرملين للرؤساء الروحيين ، سوف يساعد على إزالة روح عدم المبالاة ،

الدينية ، كل هذا لا يمكن التحقق منه ( فالتاتار ) المعمَّدون والذين يدعون ( كرشن ) ، أصبحوا أكثر من أي وقت مضى معرضين للتأثيرات الروسية ، مع أنهم كانوا منفصلين عن المسلمين بشكل واضح .

ولكن أهالي أزربيجان هم الوحيدون الذين لا يزالون يشكلون العقبة أمام المفاهيم الجديدة، ذلك بفضل وجودهم في مستوطنات بعيدة، لكنهم لا يزالون يواجهون تهديدات صارخة لقوميتهم وشخصيتهم المستقلة ، وذلك لنمو الحركة الصناعية في باكو ، وهكذا نرى أن أحفاد الأتراك والمغول الذين حكموا أوروبا الشرقية في ماضي الزمان يقتربون من أزمة تهدد وجودهم كأمة ، ولا ندري ما ستكون النتيجة ؟...

# القـــرم

لقد أسست ( خانية القرم ) المستقلة كما رأينا على يد ( حاجي جيراي ) الذي انتزع السلطة في شبـه الجزيرة والمناطق المجاورة في الشمال والشرق حوالي عام ١٤٤١ ، وفي السنوات الأولى من تأسيس هذه الخانية نجدها قد شُغلت بحروب ضد ( القبائل العظمى ) تلك القبائــل التي كانت تبغي طبعاً إرجاع سلطتها علــى تلك المناطق السليبة ولــذا أصبح مصير القرم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمصير منافسيه الشماليين حتى ظهور ( منجلي جيراي ) ، الذي حطم تلك القوى الشمالية عام ١٥٠٢ ، مما مهد السبيل أمام (القبائل القرمية) للإمساك بزمام مصائرها ، واعتماد السياسة التي تختارها ، ورغم تبعية حاجي جيراي الاسمية للسلطان العثماني إلا أن هذا الحاكم القدير أوصل ( الدولة القرمية ) الى ذروة القوة الخارجية والهيبة ، ولكنه أخفق في الاحتفاظ بحلفه مع موسكو ، وذلك لأنه بعد سقوط ( القبائل العظمى ) لم يعد لدى باسيل الثالث ( ١٥٠٥ ــ ١٥٣٣ ) أي دافع للتعاون مع ( منجلي ) ، وبالحقيقة كان لديه أسبابه التي تدعوه للقلق لئلا تمثل أسرة ( منجلي ) دور خانات (ساراي) السابق • ولكن في أواخر أيامه عمد ( منجلي ) عام ١٥١٥ لنبذ سياسة والده والاتفاق مع بولندة ولتوانيا بمعاهدات صداقة •

وبالنسبة للاصلاحات والازدهــار الداخلي وصلت منطقة القرم إلــى الأوج خلال حكم ( منجلي ) ، فالروابط الوثيقة مع السلطنة العثمانية فتحت

أبواب القرم للتأثيرات الأناضولية التي أصبحت أكثر ظهوراً ووضوحاً في جميع مجالات النشاطات ، فظهرت الأبنية الرائعة ، ومنها قصر الخانات في ( باغشيش ساراي ) الى حيث انتقل ( منجلي ) ، وأصبح يقيم بدلاً من إقامته في (كريم القديمة)، وكذلك شيد المدرسة الفقهية الشهيرة «زنجرلي مدريش» التي لا تزال موجودة حتى الآن ، ونجد بين المهندسين المعماريين في تلك الفترة بعض الجنويين الذين بقوا في خدمة الخان بعد سقوط ( كافا ) .

وفي نفس الوقت اتبعت طرق مبرمجة لإدارة شؤون الدولة ، فالوثائق الباقية تشير الى أن الضرائب أصبحت تجبى والعدالة تنفذ طبقاً لقوانين صارمة ، وتنظيمات سارية ، وقد قسمت البلاد الى /٢٨/ وحدة قضائية ، كل منها له ديوان أو محكمة عليا ، وتمتعت المرأة بقسط وافر من الحرية يزيد عما تمتعت به أخواتها في أي بلد من البلدان الإسلامية المجاورة ، وقد وجدت بعض النسوة اللواتي اشتركن في الحياة العامة، أو وقفن أنفسهن على فنون الشعر والأدب ، وقد هُجرت وتُركت العادة القديمة في إرسال الأمراء الشباب ، وبصورة خاصة ( ولي العهد ) الذي كان يحمل دوماً لقب ( كالجا ) لقضاء قسم من أيام شبابهم للتدريب العسكري مع الجراكس ، وقد ظل هؤلاء مشهورين كمدربين حتى القرن التاسع عشر ، ولكن الميل الشديد لنبذ البساطة القديمة كان يوازيه تزايد الفوضى في الحياة السياسية مما شجع السلاطين العثمانيين على خلع خانات القرم في مناسبات متكررة، وهكذا بدأت حالة الاستقرار في الدولة تضعف رويداً رويداً بشكل خطير .

ولكن في خلال القرن السادس عشر أصبح خانات القرم في مركز من القوة استطاعوا به ممارسة تدخلات عديدة في شؤون شرقي أوروبا ، ففي عام ١٥٢٠ قاد الخان ( محمد جيراي ) حملة ضد ( قازان ) و ( اسطراخان ) بقصد اتقليص مناطق نفوذ الروس في تينك الخانتين ، وكان استيلاؤه على أسطراخان

مؤشراً لانتصار سياسته هذه،ولكن نتيجةللمكائد الداخليةقتل(محمدجيراي) عام ١٥٢١ وكان لموته نتائج وخيمة العاقبة فقد بدأت سلطة تاتار القرم بالانحطاط ، ومع أنهم استطاعوا أن يقوموا بعمل عدائي ضد موسكو في عام ١٥٤١ ، إلا أنهم لم يستطيعوا منع سقوط قازان واسطراخان بالتوالي ، وهكذا وقفوا وحيدين ضد قوة القياصرة المتنامية ، ولم يمنع سقوط القرم نهائياً إلا انشغال قوى ( إيفان الرابع ) في بولندة والسويد، مما أكسب القرم وقتاً قصيراً للإصلاح ورد الاعتبار ، هذا وقد بدأ السلطان التركي ووزيره بالتفكير بإنزال ضربة قاضية على روسيا ، وذلك لاسترجاع خانيات الفولجا التي استولى عليها الروس ، وقد اتخذت خطة بالاشتراك مع القرم عام ١٥٦٩ وكانت هذه الخطة تهدف لربط نهري الفولجا والدون بقنال في النقطة التي يقترب النهران بعضهما من بعض ( قرب ستالينجراد الحديثة ) وذلك لكي يستطيع الأسطول البحري العثماني أن يصل الى بحر الخزر ، وكان هذا أمراً ضرورياً لنجاح الحرب ضد روسيا ، ولكن شدة وطأة الطقس ، وفتور وعدم مبالاة الخان القرمي ( دولت جيراي ) الذي لم يكن لديه أي رغبة في السماح للجيوش التركية بالتمركز في بلاده ، قاد الى منع تنفيذ هذه الخطة ، التي فقدت أهميتها خاصة عندما تحطم الأسطول العثماني في معركة ليبانتو في ٧ تشرين الأول عام ١٥٧١، وحالما هدأت مخاوف الخان من تدخل العثمانيين في شؤونه ، بدأ في شن الحرب ضد موسكو ، وللمرة الأخيرة في التاريخ دخلت جيوش التاتار الى موسكو واضطر إيفان الرابع عام ١٥٧١ أن يوافق على دفع الجزية ( تنِش ) للتاتار .

وعندما استلم محمد جيراي الثاني العرش عام ١٥٧٧ ، كان أول همومه أن يسترجع قازان واسطراخان ، ولذا دخل في مفاوضات مع ستيفن باثوري أمير ترانسلفانيا وملك بولندة ، الذي كان الخصم اللدود لإيفان الرابع ،وقد وصلت به الحيلة الى أن بدأ يدغدغ خيال البعثة التبشيرية اليسوعية التي

ظهرت في بلاطه بالآمال الكاذبة بامكانية تحوله الى الكاثوليكية ولكن هذا الحلف لم يتم بسبب انشغال السلطان بغزو ايران ، ثم اضطراب الأحوال العالمية التي قتل أثناءها الخان عام ١٥٨٤ والتي حالت دون قيام التحالف ، ثم عادت الأمور للتوتر بين بولندة والقرم بسبب الغارات المتكررة التي كان يقوم بها المغامرون التاتار على حدود أوكرانيا وبولندة ، وقد كان السبب الأساسي لهذه الغارات تردي الأحوال الاقتصادية في القرم ، ولكن ملك بولندة لم يستطع أن يتغاضى عن الأضرار التي سببتها تلك الغارات من التخريب في بلاده ، ولهذا أحجم عن عقد أي تحالف مع تاتار القرم •

على أنه لم تلبث مصالح ملوك بولندة وخانات التاتار أن التقت مرة ثانية عندما قلب القوزاق بقيادة الهيتمان بورجان خميلنتسكي ظهر المجن لبولندة، وتحالفوا مع روسيا في عام ١٦٥٤ ، ولهذا فقد تهددت مصالح البولنديين والتاتار بسبب توسع نفوذ الروس الى الدنيبير الأسفل ، ولهذا فازت في عام ١٦٥٥ القوى المتحالفة التاتارية والبولندية بالنصر على الروس والقوزاق في أوخماتوف ، وفي معركة وارسو عام ١٦٥٦ حارب التاتار جنباً إلى جنب مع البولنديين ضد السويد وبراندبورغ ، وقد عقد ( محمد جيراي ) الرابع أثناء حكمه للمرة الثانية معاهدة مع ملك بولندة ( يوحنا الثاني كازيمير ) إقتسما بينهما بموجب هذه المعاهدة الأراضي التي خططا أن يحتلاها ، وكان هدف محمد هو الاستيلاء على قازان واسطراخان ، وطبقاً لهذه المعاهدة غزا تاتار القرم ترانسلفانيا عام ١٦٥٧ تعزيزاً لمركز بولندة ، ثم تم لهم النصر النهائي في معركة تساندوف عام ١٦٦٠ وقد بالغ الكتاب المعاصرون في تقدير عددالقوات المشتركة في تلك المعركة ، ولكن بعد البحث والاستقصاء وُجد أن القوات التاتارية القرمية كانت لا تزيد على ثلاثين أو أربعين ألفاً،ولم يكن باستطاعتهم فرز مثل هذا العدد للمعركة ما لم يكونوا قد تمتعوا بدرجة عالية من التنظيم رغم ما اشتهر عنهم من أنهم شعب سلاّب نهّاب غير منتظم •

بعد إجراء الهدنة بين بولندة وروسيا في أندروسوف عام ١٦٦٧ تبدلت الحالة والصورة العامة ، وقد أثرت هذه الهدنة على العلاقات بين البولنديين وتاتار القرم ، فقد حدث أن الهيتمان القوزاقي بطرس دوروشنكو أخذ يتذمر بأنه قد خُدع على يد المسكوفيين ، وأصبح يشعر بنفس روح الغضب التي شعر بها سلفه ضد البولنديين ، وهكذا وضع نفسه وقواته تحت تصرف السلطان العثماني ، وبذلك تلقى الدعم السياسي من لدن خان القرم ( عادل جيراي ) ١٦٦٦ ـ ١٦٧١ وأنهى هذا العمل الصداقة بين الملك جون كازيمير والخان ، وعليه فعندما نشبت الحرب بين الامبراطورية العثمانية من جهة وبولندة وروسيا من جهة أخرى ، والتي دامت من عام ١٦٨٢ـ١٦٩٩ ، منعت هذه الحرب استئناف التعاون البولندي التاتاري ، وفي أثناء ذلك بدأت قوة الدولة القرمية في الضعف بسبب الاضطرابات الداخلية من جهة ،وبسبب اشتراك قوات قرمية تاتارية في الحملة المخفقة ضد فينا عام ١٦٨٣ ، وعندما عاد الروس وأخذوا زمام المبادرة وهجموا عام ١٦٨٦ وعام ١٦٨٧ لم يعد القرميون في قوة تمكنهم من الدفاع كما يجب ، وفي عام ١٦٩٩ اعترفوا بضم بطرس الأكبر لقلعة آزوف على مصب الدون لأملاكه ، ولكن تصرف بطرس الأخرق في أعماله ضد مولدافيا عام ١٧١١ ، وما نتج عنه من معاهدة الصلح في ( بروث ) أدى إلى رجوع آزوف إلى حكم ( القرم ) ، ولكن روسيا ما لبثت أن استعادت آزوف عام ١٧٣٩ بعد حروب دامت ثلاث سنوات • وهكذ كسرت شوكة التاتار ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في شغل أي دور في السياسية العالمية ، ولكن أعمالهم العمرانية استمرت باقامة القصر الجديد للخانات في ( باغشيش ساراي ) عام ١٧٤٠ ـ ١٧٤٣ ليحل محل القصر القديم الذي خربه الروس ، وكذلك اشتهروا بصناعة السجاد الممتاز وقد كان لصناعة السجاد تأثير لا بأس به على تطور الفنون في غاليشيا البولندية •

وفي عام ١٧٦١ أنشأ الملك فردريك الأكبر ملك بروسيا علاقات صداقة مع خان القرم ، وذلك بسبب موقفه الحرج في حروبه مع روسيا ، والحقيقة أنه كان مسوقاً بعامل اليأس لأنه لم يكن هنالك من أمل في ان تهاجم القرم روسيا وتخفف الضغط عنه باضعاف قوة روسيا ، ولكن هذه العلاقات سببت تشدد الملكة كاترينا الثانية الروسية في تعاملها مع القرم ، وقد بدأت تذيع بوسائل اعلامها ان القضاء على قوة القرم ما هو إلاّ في مصلحة الدول الأوربية الغربية والحضارة الأوروبية وجاء انكسار تركيا في الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ ــ ١٧٧٤ وما تلاه من عقد معاهدة ( كوتشوك كنارجي ) عام ١٧٧٤ خاتمة تقرير مصير القرم فبالرغم من أنها بقيت مستقلة اسمياً لكنها أصبحت تحت رحمة روسيا ، هذا وقد استطاع السلطان العثماني أن يحصل على اعتراف الروس من خلال معاهدة ( اينالي كافاك ) عام ١٧٧٩ بسلطة السلطان الاسمية على المسلمين في القرم بصفته خليفة المسلمين ، وقد كان قصد الاتراك من هذا العمل أن يستفيدوا من وهم كان يعتري الدول الأوروبية وكان متأصل الجذور في نفوسهم ، وكان ذكر اسم السلطان في صلاة الجمعة ليس من الطقوس الدينية فحسب بل عملاً سياسياً يقصد منه ديمومة الدعوة للخليفة في أرجاء بلاد القرم ، وإن فكرة السلطة الدينية العليا التي تشبه سلطة البابا هي فكرة غريبة عن الاسلام ، ورغم هذه المعاهدة ، فإن الروس استمروا في سياستهم إلى النهاية ، وقد وجدت روسيا صديقاً حميماً في شخصية خان شاهين ( جيراي ) الذي ورث العرش في القرم عام ١٧٧٧ وكان يألف ويعطف على الأفكار الأوروبية ، ولكن حاكم مقاطعة توريدا الروسي على البحر الأسود المدعو غريغور يغينموفتش بوتيومكين أثار الاختلافات والقطيعة في القرم ، وحرّض بك قبيلة نوجاي على التدخل ، ولهذا أقنع شاهين نفسه بالتنازل عن العرش عام ١٧٨٣ ، وهكذا أصبحت القرم بملحقاتها وسهوب ( نوجاي ) وقاعدة نهر كوباف ولاية روسية .

وهكذا انتهت تلك الموجـة التي بدأت عـام ١٢٤٠ بالغزو المغولي الكاسح ، وأصبح تاتار القرم في نفس الصفة والحالة التي وقع بها اخوانهم على الفولجا من حوالي ٢٥٠ عاماً ، غير أن مسلمي القرم لم يعانوا أي ضغط ديني ولم يعانوا من السياسات التجريبية الضرائبية الشاذة التي كانت تميز بها معاملة الروس لرعاياهم من المسلمين حتى عصر كاترين الثانية العظمى ، بل على العكس فقد أعلن التسامح الديني حالا ، وأجريت تحسينات على الجهاز الاداري ، وإصلاحات مدروسة ، وقد حصلت تغيرات في الصورة السكانية ، فلم يُدْعَ الروس والاكرانيون لسكنى القرم فحسب بل دعي الألمان واليونانيون أيضاً للاستيطان فيها ، وأدى وجود هؤلاء إلى انقاص المساحة المتبقية للتتار مما دفع كثيرين منهم إلى الهجرة من بلادهم .

ولقد حدثت تغيرات اجتماعية بعد عام ١٧٨١ ، وذلك بسبب إعـادة توزيع الحكومة الروسية للأراضي ، وفي القرن التاسع عشر ظهرت حركة الوحدة السلافية العالمية التي زادت من حماس القياصرة التبشيري فهم إلى جانب عواطفهم الدينية كانوا في الحقيقة يعتقدون أنهم إذا فازوا بتحويل رعاياهم إلى الديانة المسيحية سوف يملكون التحكم التام بأنحاء الامبراطورية وهكذا قل عدد المساجد والأئمة وتحول كثير مـن المساجد رغـم اعتراض وغضب المسلمين إلى كنائس ، وعندئذ حدثت حرب القـرم ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ حيث تحاربت روسيا مع تركيا ، وهكذا حـل الخراب والدمار في منطقة القرم ، ولا عجب أن حدثت حركة هجرة جديدة على مقياس واسع ، ففـي خلال بضع سنوات هاجر حوالي ٢٠٠٠٠٠ نسمة ، وهم يؤلفون أكثر من نصف سكان القرم التاتار إلى أراضي العثمانيين ، وقد ألفوا مع عائلاتهم وجوداً لهم في دبروجا وبلغاريا ، وبعد الحرب العالمية الأولى بدأوا يستوطنون في الأراضي التركية الآسيوية تبعاً لسياسة الاستيطان في الأراضي التي مارستها

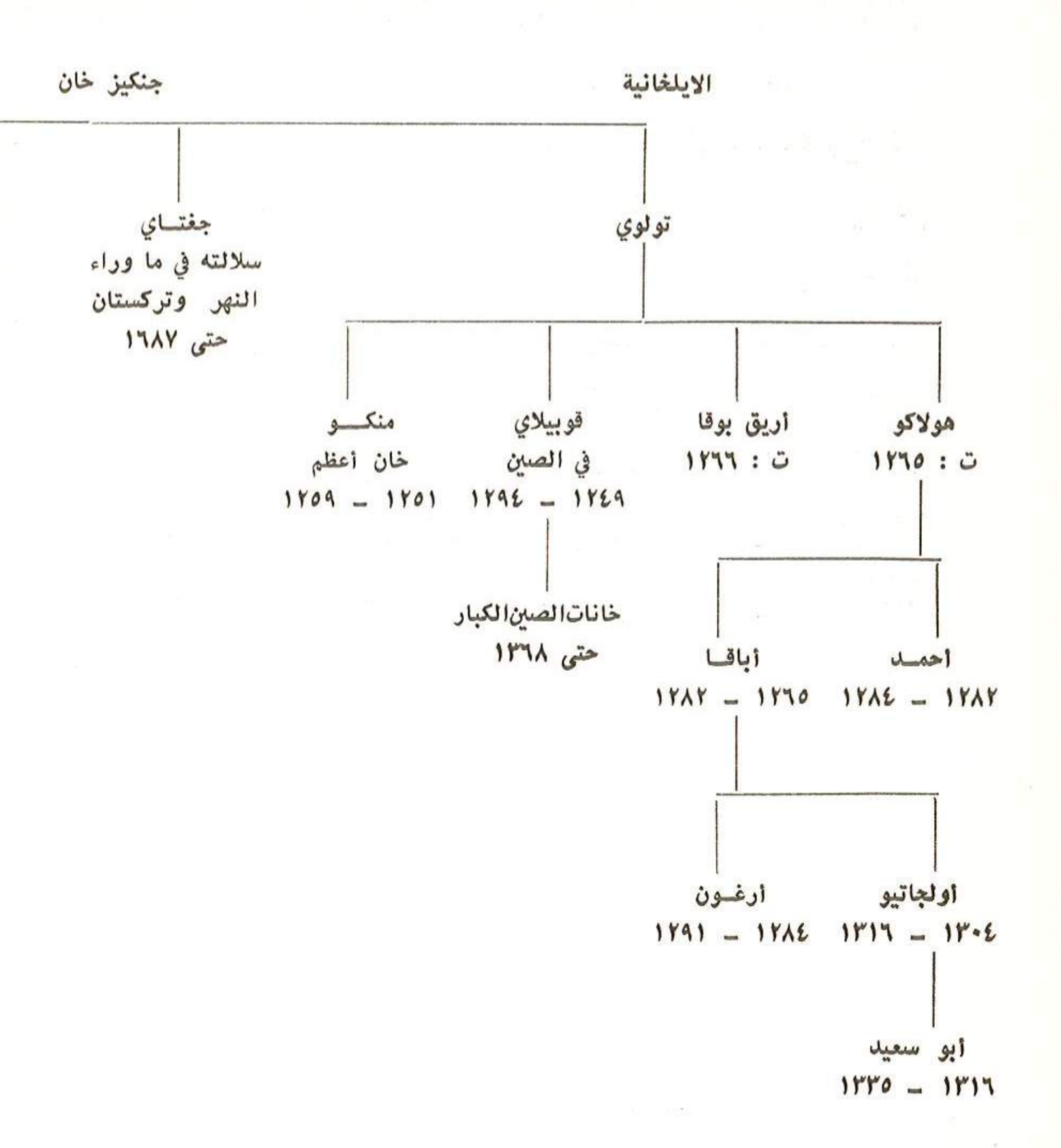
الحكومات الجمهورية ، وأما السلطات الروسية فقد شجعت هذه الهجرة في أول الأمر ، ولكن بعد بضع سنوات اضطرت لاعتبارات مادية واقتصادية لاتخاذ الاجراءات ضدها ، ولكن هذه الاجراءات المضادة للهجرة لم تنجح في إيقافها ولو إلى حد قليل .

وكانت الحياة الروحية والمعنوية والاقتصادية للتاتار في القرم تجتاز أزمة من الانحطاط والانهيار عندما وجدوا لهم زعيماً في شخص اسماعيل بك جاسبيرالي (انظر ص١٥٩) الذي ادخل الحيوية إلى مدارسهم وثقافتهم وقادهم من دياجير الظلام ، وهداهم للاتصال بإخوانهم الأتراك في الامبراطورية القيصرية ، ومن خلال ( جاسبيرالي ) هذا ومجلته الدورية ( التركمان ) أسهم تاتار القرم في إنماء الوعي القومي بين الاتراك في روسيا .

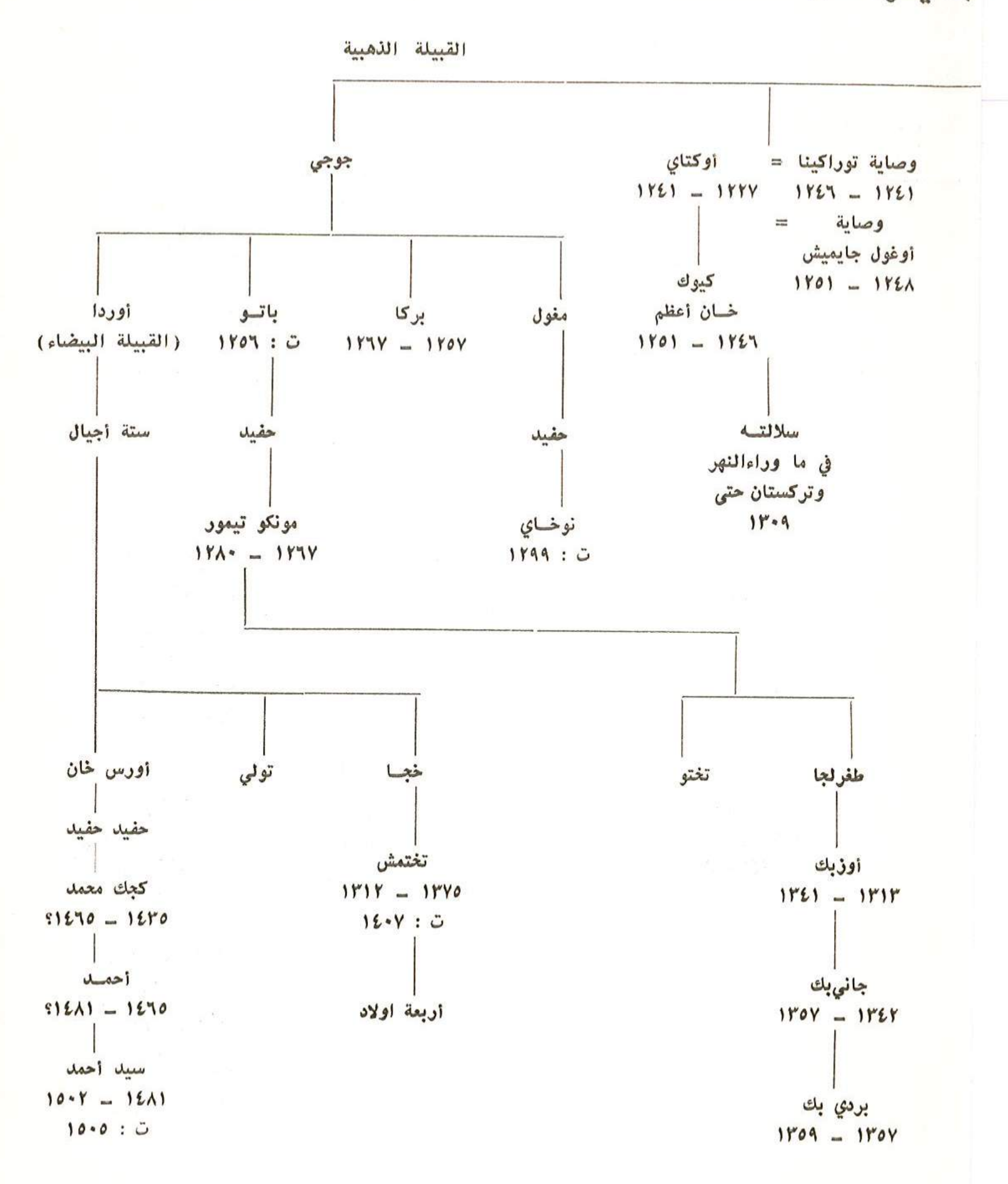
وعندما نشبت الثورة الروسية ، بدا أن الأحوال سوف تتعرض لتغير جذري لأن شهر أيار عام ١٩١٧ شهد تأسيس الجمهورية التاتارية في القرم والتي اعترفت بها الحكومات الروسية والأوكرانية ، وكذلك السلطات الألمانية العسكرية المحتلة ، وقد اجازتها حركة الروس البيض أيضاً ، وظلت باقية حتى هزمت على يد البلاشفة عام ١٩٢١ ، وبعد أن قام القائد الهنغاري الشيوعي بيلاكون بتهدئة الأحوال في القرم باجراءات في منتهى الشدة والخشونة ، قرر البلاشفة أن يسمحوا للتاتار في القرم بقسط من الحكم الذاتي مقابل ما وُهِبَ لبقية الاقليات الوطنية في الاتحاد السوفييتي ، والحقيقة أن هذا العمل كان دافعاً لانتعاش الثقافة التاتارية ، إنما حدثت نكسة عندما بدأ التاتار في مقاومة سياسة خطة استيطان اليهود بين ظهرانيهم ، ولكن الاجراءات التي قام بها البلاشفة كانت كافية للقضاء على مقاومتهم ، ففي القرم كما في الفولجا تأثرت الأجيال الجديدة من الشباب بالتعاليم البلشفية ،

وبنفس الوقت كان في إيجاد المستوطنين اليهود ، وانحلال المستوطنات الألمانية بالاضافة إلى الهجرة على نطاق واسع للروس والاوكرانيين إلى المدن ، ما ساعد على تغيير الصورة السكانية وإضعاف العنصر التاتاري في المنطقة ، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عمدت القوى الألمانية التي كانت تحتل القرم في عام ١٩٤٢ إلى إعطاء الإذن بإعادة بناء خمسين مسجداً ، وهذا كان يقصد منه تعبيد الطريق للانتعاش القومي للتاتار ، ولكن بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفي ربيع عام ١٩٤٤ بدأ السوفييت في إعادة إسكان تتار منطقة القرم بتوزيعهم مما جعل المنطقة تخسر كل العناصر الاسلامية فيها ، فبعض التاتار نقلوا ليسكنوا قرب ( جرودنو ) وآخرون نقلوا إلى سيبريا ، وكثير منهم قد هلكوا ، ومهما كان مصيرهم يمكننا القول أن تاريخ التاتار في القرم كأمة قد انتهى .

سـلالـة

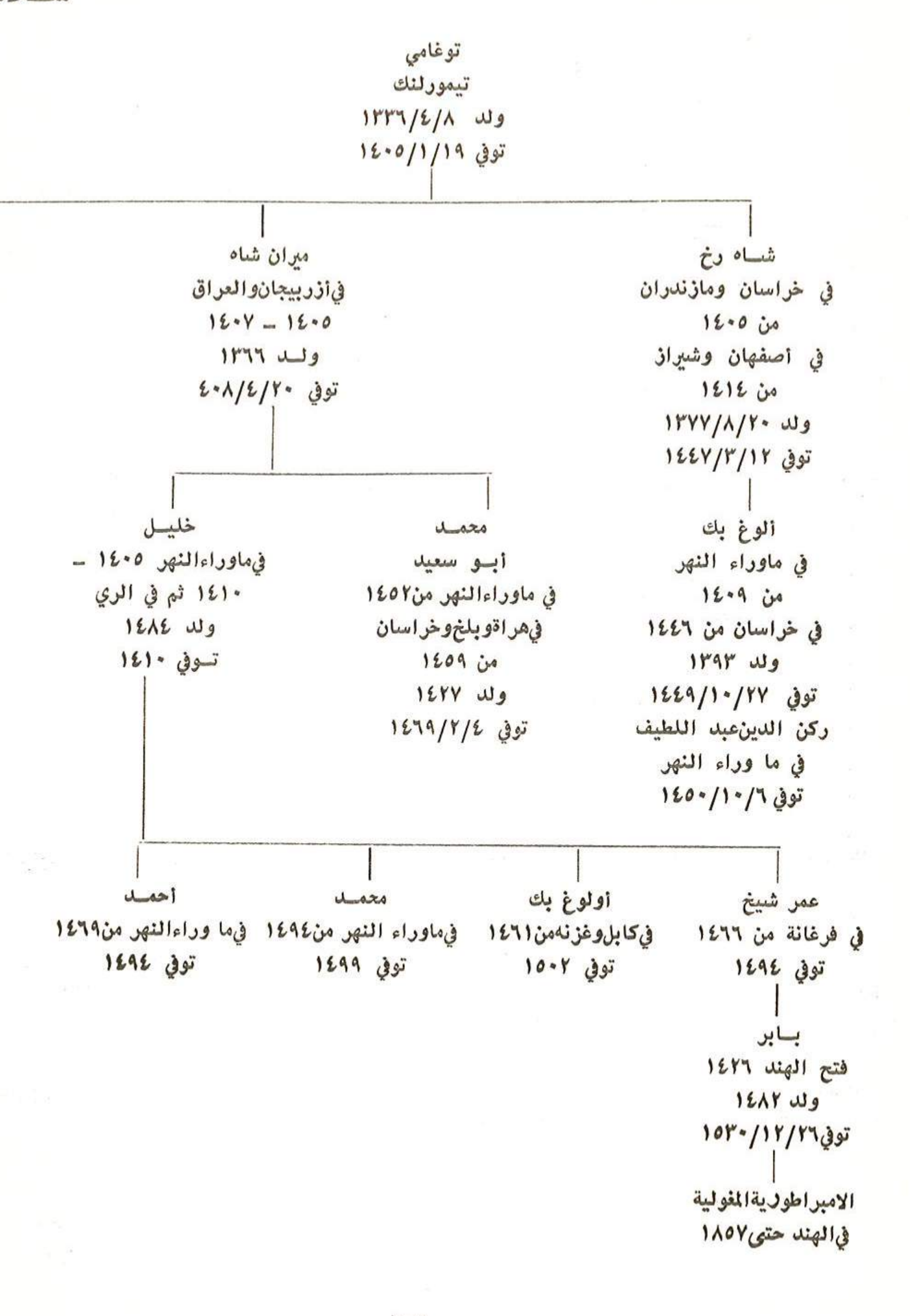

جنكيز خان
الايلخانية
جغتـاي
سلالته في ما وراء
النهر وتركستان
حتى ١٦٨٧
تولوي
منكـــو
خان أعظم
١٢٥١ - ١٢٥٩
قوبيلاي
في الصين
١٢٤٩ - ١٢٩٤
أريق بوقا
ت : ١٢٦٦
هولاكو
ت : ١٢٦٥
خانات الصين الكبار
حتى ١٣٦٨
أباقـا
١٢٦٥ - ١٢٨٢
احمـد
١٢٨٢ - ١٢٨٤
أرغـون
١٢٨٤ - ١٢٩١
أولجاتيو
١٣٠٤ - ١٣١٦
أبو سعيد
١٣١٦ - ١٣٣٥

# جنكيـز خـان



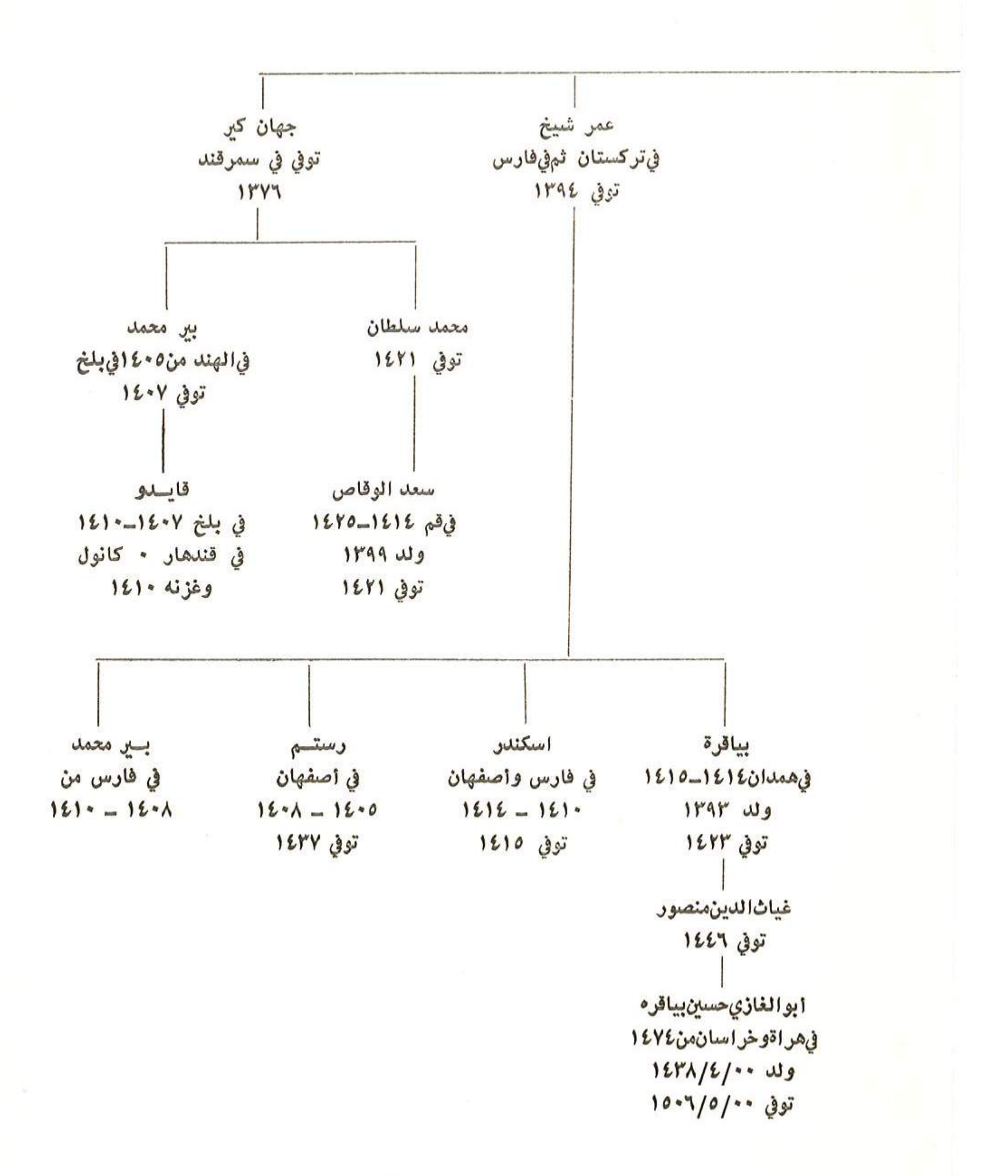
القبيلة الذهبية
وصاية توراكينا = أوكتاي
١٢٤١ ـ ١٢٤٦ ١٢٢٧ ـ ١٢٤١
وصاية =
أوغول جايميش
١٢٤٨ ـ ١٢٥١
كيوك
خـان أعظم
١٢٤٦ ـ ١٢٥١
سلالتـه
في ما وراءالنهر
وتركستان حتى
١٣٠٩
جوجي
مغول
بركا
١٢٥٧ ـ ١٢٦٧
باتـو
ت : ١٢٥٦
أوردا
(القبيلة البيضاء)
حفيد
حفيد
ستة أجيال
نوخـاي
ت : ١٢٩٩
مونكو تيمور
١٢٦٧ ـ ١٢٨٠
طغرلجا
تختو
خجـا
تولي
أورس خان
أوزبك
١٣١٣ ـ ١٣٤١
جانيبك
١٣٤٢ ـ ١٣٥٧
بردي بك
١٣٥٧ ـ ١٣٥٩
تختمش
١٣٧٥ ـ ١٣١٢
ت : ١٤٠٧
أربعة اولاد
حفيد حفيد
كجك محمد
١٤٣٥ ـ ١٤٦٥؟
أحمـد
١٤٦٥ ـ ١٤٨١؟
سيد أحمد
١٤٨١ ـ ١٥٠٢
ت : ١٥٠٥

سلالـــة

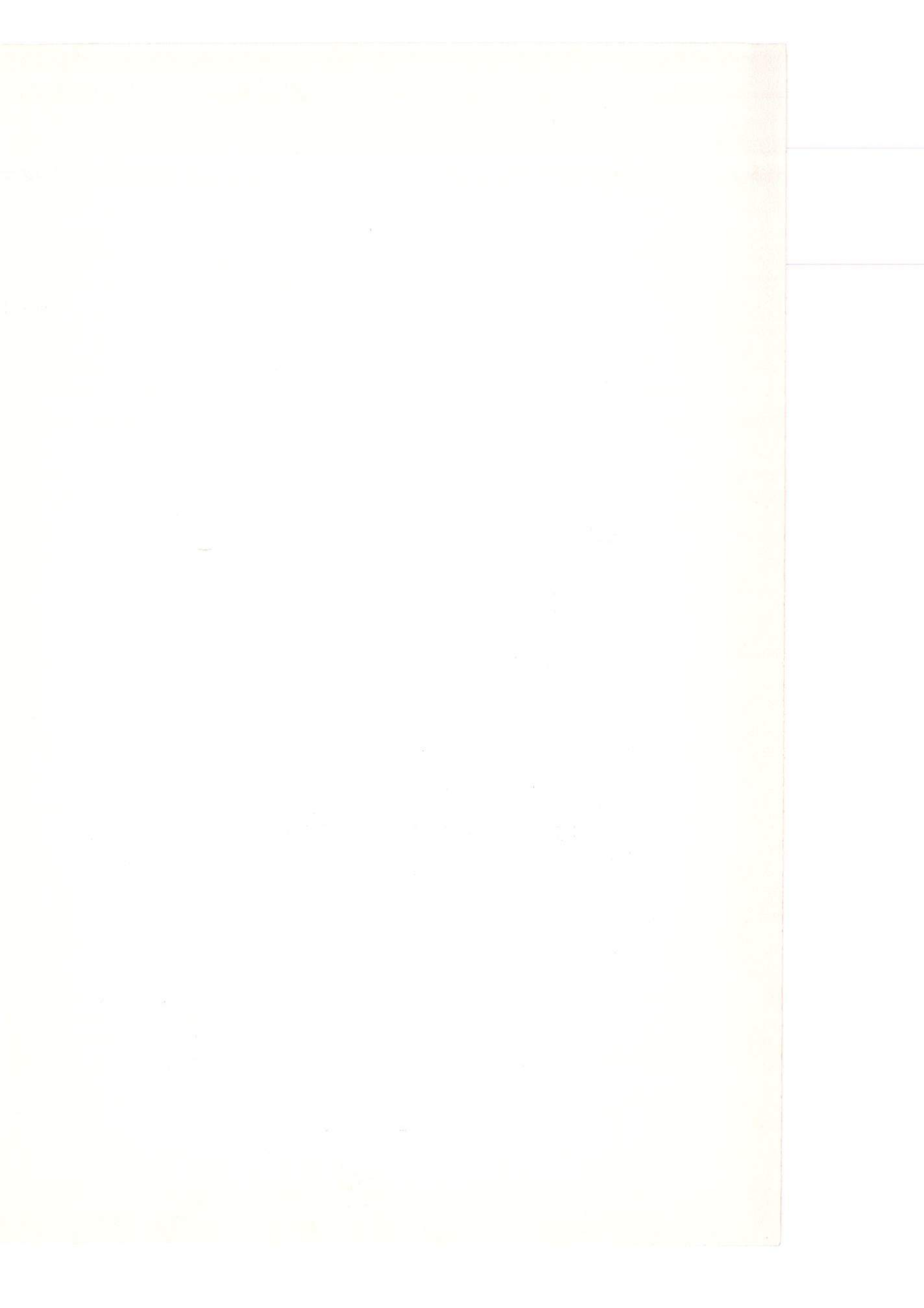


توغامي
تيمورلنك
ولد ١٣٣٦/٤/٨
توفي ١٤٠٥/١/١٩
شـاه رخ
في خراسان ومازندران
من ١٤٠٥
في أصفهان وشيراز
من ١٤١٤
ولد ١٣٧٧/٨/٢٠
توفي ١٤٤٧/٣/١٢
ميران شاه
فيأزربيجانوالعراق
١٤٠٥ ـ ١٤٠٧
ولـد ١٣٦٦
توفي ٤٠٨/٤/٢٠
ألوغ بك
في ماوراء النهر
من ١٤٠٩
في خراسان من ١٤٤٦
ولد ١٣٩٣
توفي ١٤٤٩/١٠/٢٧
ركن الدينعبد اللطيف
في ما وراء النهر
توفي ١٤٥٠/١٠/٦
محمـد
أبـو سعيد
في ماوراءالنهر من١٤٥٢
فيهراةوبلخوخراسان
من ١٤٥٩
ولد ١٤٢٧
توفي ١٤٦٩/٢/٤
خليـل
فيماوراءالنهر ١٤٠٥ ـ
١٤١٠ ثم في الري
ولد ١٤٨٤
تـوفي ١٤١٠
عمر شيخ
في فرغانة من ١٤٦٦
توفي ١٤٩٤
أولوغ بك
فيكابلوغزنهمن١٤٦١
توفي ١٥٠٢
محمـد
فيماوراء النهر من١٤٩٤
توفي ١٤٩٩
أحمـد
فيما وراءالنهر من١٤٦٩
توفي ١٤٩٤
بـابر
فتح الهند ١٤٢٦
ولد ١٤٨٢
توفي١٥٣٠/١٢/٢٦
الامبراطوريةالمغولية
فيالهند حتى١٨٥٧

# تيمورلنك



عمر شيخ
في تركستان ثم في فارس
توفي ١٣٩٤
جهان كير
توفي في سمرقند
١٣٧٦
محمد سلطان
توفي ١٤٢١
بير محمد
في الهند من ١٤٠٥ في بلخ
توفي ١٤٠٧
سعد الوقاص
في قم ١٤١٤ــ١٤٢٥
ولد ١٣٩٩
توفي ١٤٢١
قايـدو
في بلخ ١٤٠٧ــ١٤١٠
في قندهار ٠ كانول
وغزنه ١٤١٠
بياقرة
في همدان ١٤١٤ــ١٤١٥
ولد ١٣٩٣
توفي ١٤٢٣
اسكندر
في فارس واصفهان
١٤١٠ ــ ١٤١٤
توفي ١٤١٥
رستـم
في أصفهان
١٤٠٥ ــ ١٤٠٨
توفي ١٤٣٧
بـير محمد
في فارس من
١٤٠٨ ــ ١٤١٠
غياث الدين منصور
توفي ١٤٤٦
ابو الغازي حسين بياقره
في هراة وخراسان من ١٤٧٤
ولد ١٤٣٨/٤/٠٠
توفي ١٥٠٦/٥/٠٠



# جدول تاريخي للأسر الحاكمة

عندما تتوافق نهاية حكم أحد الحكام مع بداية حكم آخر يذكر تاريخ وصول الحاكم الأول ٠

## المماليك في مصر

### ١ ـ المماليك البحرية

/١١/١٢٥٩ ــ المظفر سيف الدين قطز ٠

٢٤/١٠/١٢٦٠ ــ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ٠

١ / ٧ /١٢٧٧ ــ الملك السعيد ناصر الدين بركة خان بن بيبرس ( ت : آذار ١٢٨٠ ) ٠

/ ٨ /١٢٧٩ ــ الملك المنصور سيف الدين قلاوون ٠

١٠/١١/١٢٩٠ ــ الملك الأشرف صلاح الدين محمد بن قلاوون ٠

١٢/١٢/١٢٩٣ ــ الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون ٠

/١٢/١٢٩٤ ــ الملك علاء الدين كتبغا ٠

٧ /١٢/١٢٩٦ ــ الملك المنصور حسام الدين لاجين ٠

١٦/ ١ /١٢٩٩ ــ الملك الناصر محمد ( المرة الثانية ) ٠

٥ / ٤ /١٣٠٩ ــ الملك المظفر ركن الدين بيبرس البرجي ٠

٥ / ٣ /١٣١٠ ــ الملك الناصر محمد ( المرة الثالثة ) ٠

٦ / ٦ /١٣٤١ ــ الملك المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد ٠

١٣٤١ ــ الملك الأشرف علاء الدين قجق بن الناصر محمد .
١٣٤٢ ــ الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد .
١٣٤٣ ــ الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد .
١٣٤٦ ــ الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد .
١٣٤٧ ــ الملك المظفر سيف الدين حاجي بن الناصر محمد .
/١٢/١٣٤٧ ــ الملك الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر محمد .
١٣٥١ ــ الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد .
١٣٥٤ ــ الحسن ( مرة ثانية ) .
١٣٦١ ــ الملك المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي .
١٣٦٣ ــ الملك الأشرف ناصر الدين شعبان .
١٣٧٧ ــ الملك المنصور علاء الدين علي بن شعبان .
١٣٨١ ــ الملك الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان .

## ٢ ـ المماليك البرجية

١٦/١١/١٣٨٢ ــ الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس .
١ /٦ /١٣٨٩ ــ الملك الصالح حاجي ( مرة ثانية ، توفي : ١٤١٢ ) .
١ /٢ /١٣٩٠ ــ برقوق ( مرة ثانية ) .
٢٠/٦ /١٣٩٩ ــ الملك الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق .
٢٠/٩ /١٤٠٥ ــ الملك المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق ( توفي : ٢٠/٩/١٤٠٦ ) .
٢٠/١١/١٤٠٥ ــ فرج ( مرة ثانية ) .
٢٨/٥ /١٤١٢ ــ الخليفة العباسي المستعين .
٦ /١١/١٤١٢ ــ الملك المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي .
١٣/١ /١٤٢١ ــ الملك المظفر أحمد بن شيخ .
٢٩/٧ /١٤٢١ ــ الملك الظاهر سيف الدين ططر .

٣٠/١١/١٤٢١ ــ الملك الصالح ناصر الدين محمد بن ططر •
١ / ٤ / ١٤٢٢ ــ الملك الأشرف سيف الدين يوسف بارسباي •
٧ / ٦ / ١٤٣٨ ــ الملك العزيز جمال الدين جقمق •
١٣/ ٢ / ١٤٥٣ ــ الملك المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق •
١٩/ ٣ / ١٤٥٣ ــ الملك الأشرف سيف الدين اينال العلائي الظاهري الأجرود •
٢٦/ ٢ / ١٤٦١ ــ الملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال •
٢٨/ ٦ / ١٤٦١ ــ الملك الظاهر سيف الدين خشقدم •
٣ / ١٢/ ١٤٦٧ ــ الملك الظاهر تيمور بغا •
٣١/ ١/ ١٤٦٨ ــ الملك الأشرف سيف الدين قاتباي ( توفي : ٧/٨/١٤٩٦) •
٦ / ٨ / ١٤٩٦ ــ الملك الناصر محمد بن قاتباي •
٣١/ ٠١/ ١٤٩٨ ــ الملك الظاهر قانصوه •
٢٨/ ٦ / ١٥٠٠ ــ الملك الأشرف جانبولاط •
٢٥/ ١ / ١٥٠١ ــ الملك العادل سيف الدين طومان باي •
٢٠/ ٤ / ١٥٠١ ــ ٢٤/ ٨/ ١٥١٦ ــ الملك الأشرف قانصوه الغوري •
١٧/ ١٠/ ١٥١٦ ــ ٢٣/ ١/ ١٥١٧ ــ الملك الأشرف طومان باي •



# الحكام المسلمون في الهند

## الغزنويون

/٩٩٧ ــ محمود ( ولد : ٩٧١ ) ٠

٣٠/٦ /١٠٣٠ ــ محمد بن محمود ( ولد : ٩٩٨ ) ٠

/١٠/١٣٠٣٠ ــ مسعود بن محمود(ولد : ٩٩٨ ٠ توفي : ٦/١/١٠٤٢)٠

/١٠٤١ ــ محمد ( مرة ثانية ) ٠

/٤ /١٠٤٢ ــ مودود بن مسعود ( ولد : ١٠١١ ) ٠

/١٢/١٠٤٨ ــ /١/١٠٤٩ ــ علي ( عم مسعود السابق ) ٠

/١٠٥٠ ــ عبد الرشيد ( أخو علي السابق ) ٠

/١٠٥٣ ــ فرخزاد بن مسعود ( ولد : ١٠٣٦ ) ٠

/١٠٥٩ ــ ابراهيم بن مسعود ( ولد : ١٠٣٣ ) ٠

/١٠٩٩؟ــ مسعود ( ولد : ١٠٦١ ) ٠

/١١١٥ ــ شيزاد بن مسعود ٠

/١١١٦ ــ أرسلان بن مسعود ٠

/٨ / ــ ١١/١١١٨ ــ بهرام شاه بن مسعود ٠

/١١٥٣ ــ خسرو شاه بن بهرام ٠

/١١٦٠ ــ ١١٨٦ ــ خسرو ملك بن خسرو شاه ٠

## الغوريـــون

/١١٨٦ ــ غياث الدين سام بن محمد •
٢ / ٢ /١٢٠٣ ــ معز الدين محمد الغوري بن غياث الدين •

## أسرة تركية تدعى باثان ( يعني أفغان )

٦/٢٤ /١٢٠٦ ــ أيبك قطب الدين •
١٢١٠/١١/١٠ ــ آرام شـــاه •
/١٢١١ ــ التتمش شمس الدين القطبي •
/١٢٣٦/٥/٤ ــ فيروز شاه ــ ركن الدين •
/١٢٣٦/١١ ــ رضية بيجوم جلالة الدين •
٤/٢٢ /١٢٤٠ ــ بهرام شاه ــ معز الدين •
/٤ /١٢٤٢ ــ مسعود شاه علاء الدين •
٩ / ٤ /١٢٤٦ ــ محمد شاه ناصر الدين •
٢/١٧ /١٢٦٦ ــ بلبان غياث الدين ألغ خان •
/١٢٨٧ ــ كياقبا معز الدين •
١٢٩٠/٦/٥ ــ كيمورث شمس الدين •

## الأسرة الخلجيـة الأفغانيـة

٦/١٣ /١٢٩٠ ــ فيروز شاه جلال الدين •
١٢٩٤/١١/٢٤ ــ ابراهيم شاه ــ ركن الدين ( توفي : ١٢٩٥/١١/٢٦ ) •
/١٢٩٥/١٠ ــ ١٣١٦/١/٣ ــ محمد شاه علاء الدين •
/٣ /١٣١٦ ــ عمر شاه شهاب الدين •
١ / ٤ /١٣١٦ ــ مبارك شاه قطب الدين •
٤/١٥ /١٢٣٠ ــ خسرو شاه ناصر الدين •

## التغلقيـــون

/٩/١٠/١٢٣٠ ـ تغلق شاه ـ غياث الدين ـ غازي ملك •
/٢/٣/١٣٢٥ ـ محمد جونا بن تغلق ( توفي : ١٢٥١/٣/٢٠ ) •
وسط/٣/١٣٥١ ـ محمود بن محمد •
٣/٢٠ /١٣٥١ ـ فيروز شـاه •
٩/٢١ /١٣٨٨ ـ تغلق شاه غياث الدين سالار شاه •
٢/١٥ /١٣٨٩ ـ أبو بكر شاه •
١٣٨٩/١٢/٢٥ ـ محمـد شـاه •
١ /٣ /١٣٩٣ ـ سكندر شاه هايون •
٤/١٢ /١٣٩٤ ـ محمد شاه ـ ناصر الدين •
/١٣٩٥ ـ نصرت شـاه •
/١٣٩٩ ـ محمد شاه ـ ناصر الدين ( مرة ثانية ) •
/١٤٠٠ ـ ١٤٠٦ ـ اقبال خان بن ظفر ( مدعي ) •
/١٤١١ أو ١٤١٣ ـ ١٤١٥ ـ دولت خان لودي ( فترة تداخل ) •

## الأسيـــاد

١٤١٤/١٧/١٩ ـ خضر خان •
٥/١٩ /١٤٢١ ـ مبارك شاه معز الدين •
١/٢٧ /١٤٣٥ ـ محمـد شـاه •
/١ /١٤٤٦ ـ ١٤٥١ ـ عالم شاه علاء الدين •

## الأسـرة اللوديـة

١/١٧ /١٤٥٢ ـ بهلول لودي •
١ /٧ /١٤٨٩ ـ سكندر بن بهلول •
٢/١٥ /١٥١٠؟ ـ ١٥٢٦/٤/١٩ ابراهيم •

## حكـام الشـاة البيضـاء

١٣٧٩ ـ بهاء الدين قرا إلوك عثمان بن فخر الدين .

١٤٣٥ ـ نور الدين حمزة بن بهاء الدين .

١٤٤٥ ـ معز الدين جنجير بن علي بن قرا الوك .

١٤٥٣ ـ أوزون حسن بن علي .

٦ / ١ / ١٤٧٨ ـ خليل بن أوزون .

١٤٨٠ ـ يعقوب بن أوزون .

١٤٩١ ـ بايسنقر بن يعقوب .

١٤٩١ ـ مسيح بن أوزون حسن .

١٤٩١ ـ علي بن خليل .

١٤٩٢ ـ رستم بن مقصود .

١٤٩٧ ـ أحمد جودي بن محمد .

١٤٩٨ ـ مراد بن يعقوب .

١٥٠٠ ـ أدواند بن يوسف .

١٥٠١ ـ محمد بن يوسف ( في أصفهان ، ألواند وكرمان ) .

١٥٠٢ ـ ١٥٠٣ ـ مراد ( مرة ثانية ) .

# ثبت بالمراجع

إن القائمة المذكورة أدناه هي مختارات من دراسات حديثة قيمة ، مع ذكر لبعض المصادر الهامة ويمكن عند ارادة التوسع في البحث الرجوع إلى دائرة المعارف الاسلامية •

## مصـــادر عامـــة


ـ ادهسون ( قسطنطين مورادجيا ) : تاريخ المغول ـ الطبعة الثانية في أربعة مجلدات • أمستردام ١٨٥٢ م •

ـ هوارث ( سير هنري هويلي ) : تاريخ المغول من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر في أربعة مجلدات • لندن ١٨٧٦ ـ ١٨٨٨ ، ملحق وفهرست لندن ١٩٢٧ •

ـ ديموجين ( جوزيف ) : تاريخ الترك والمغول والتتار في أربعة مجلدات • باريس ١٧٥٦ ـ ١٧٥٨ م •

غروسيه ( رينه ) تاريخ آسية ـ العصر المغولي ـ باريس : ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ في ثلاث مجلدات •

غروسيه ( رينـــه ) أباطرة السهوب : آتيلا ، جنكيز خـــان ، تيمورلنك • باريس : ١٩٣٩ •

غروسيه ( رينه ) امبراطورية المغول : باريس : ١٩٤١ •

ـ بلوشيت ( ادجار ) مدخل إلى كتاب تاريخ المغول لرشيد الدين ، ليدن لندن : ١٩١٠ ( سلسلة ذكرى جب ) •

Pawlikowski-Cholewa, Alfred von, *Die Heere des Morgenlandes. Militärische Beiträge zur Geschichte des Nahen und Fernen Ostens*, Berlin 1940.

——, *Militärische Organisation und Taktik der innerasiatischen Reiter-Völker von den Parthern über Mao-tun, Attila und Tschinggiz-Chan bis Timur*, Leipzig 1937 (*Deutsche Kavallerie-Zeitung, Beiheft I*).

ـ الجويني ( علاء الدين ، عطــاء الملك ) تاريخ قاهر العالم • ترجمــه عن الفارسية جون اندرو بويل • مجلدان مانشستر ١٩٥٨ •

## الفتــرة الأولى

HAENISCH, ERICH, *Die Geheime Geschichte der Mongolen aus einer mongolischen Niederschrift des Jahres 1240 von der Insel Kode'e im Keluren-Fluss, erstmalig übersetzt und erläutert*, 2nd ed., Leipzig 1948. (Das Mongolische Weltreich I).

ـ بيلوت ( بول ) التاريخ السري للمغول • باريس : ١٩٤٩ •

ـ فالديميرتسوف ( بوريس ) « البنية الاجتماعية لدى المغول » ، « النظام القبلي الاقطاعي لدى المغول » لينينغراد : ١٩٣٤ •

ـ بارثولد ( ولهلم ) ـ تركستان حتى الغزو المغولي • الطبعة الثانية مترجمة عن اللغة الروسية •

ـ راجعهــا المؤلف بمساعدة هـ • أ • ب جب لندن ١٩٢٨ ( سلسلة ذكــرى جب ) •

ـ زوولف ( فورليسونجن ) تاريخ الأتراك في آسية الوسطى• برلين : ١٩٣٥، ترجمة فرنسية من قبل م• دونسكس ، باريس : ١٩٤٥ •

ـ ألنج ( كورت ) أعمال المغول ، ليبزغ : ١٩٣٤ •

## الوثائــق والنقــود

WADDING, LUCAS, *Annales Ordinis Minorum*, vols. V-VII, Rome 1731.
RAYNALDUS, ODORICUS, *Annales Ecclesiastici ab Anno MCXCVIII*, 21 vols., Lucca 1747.
GOLUBOVICH, GEROLAMO, *Biblioteca Bio-Bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Franciscano*, 5 vols., Quaracchi near Florence 1906-27.

ـ لين بول ( ستانلي ) النقــود المغولية في المتحف البريطاني ، لنــدن : ١٨٨١ ، ١٨٩٠ •

FRÄHN, CHRISTIAN MARTIN, *De Il-Chanorum seu Chulaguidarum numis commentationes duae*, in *Mém. de l'Ac. Imp. des Sciences de St.-Pétersbourg*, Series 6, vol. 2, St. Petersburg 1833, pp. 479-562.

## الرحـــــلات

WYNGAERT, ANASTASIUS VAN DEN, *Itinera et relationes fratrum minorum saeculi XIII et XIV*, Quaracchi near Florence 1929 *(Sinica Franciscana, I)*.

ـ يول ( سير هنري ) كاساي والطريق إلى هنالك ( مجموعة من الملاحظات الوسيطة عن الصين ) في أربعة مجلدات لندن : ١٩١٣ ـ ١٩١٦ .

ـ سايك ( سير برسي ) البحث عن كاساي . لندن : ١٩٣٦ .

ـ بيزلي ( سير تشارلز ريموند ) نصوص رحلتي جون دي بلانو كاربيني ووليم دي روبروكس كما طبعتا للمرة الأولى عام ١٥٩٨ كمبرج : ١٩٠٣ .

ـ جوهان فون دي بلانو كاربيني ـ رحلته إلى بلاد المغول في : ١٢٤٥ ـ ١٢٤٧ ، ترجمة ألمانية . ليبزغ : ١٩٣٠ .

ـ ولهلم فون روبروك ـ رحلته إلى بلاد المغول . ترجمة ألمانية ـ ليبزغ : ١٩٣٤ .

ـ ماركوبولو ـ وصف العالم ـ لندن : ١٩٣٨ .

ـ برتسندير ( أميل واصلفتش ) أبحاث وسيطة من مصادر شرقي آسية . في مجلدين . لندن ١٩١٠ .

ـ ابن بطوطة ( أبو عبد الله محمد ) رحلته ـ النص العربي مع ترجمة فرنسية في أربع مجلدات . باريس : ١٨٥٤ ـ ١٨٧٤ .

ـ رحلة ابن بطوطة ـ ترجمة هاملتون جب . كمبرج : ١٩٥٨ .

## جنكيـز خـان

ـ فلاديمير تسوف ( بوريس ياكوفلافتش ) حيـاة جنكيز خان . لندن : ١٩٣٠ . ترجمة فرنسية . باريس : ١٩٤٨ .

ـ فوكس ( رالف ) جنكيز خان • لندن : ١٩٣٦ •

ـ لامب (هارولد) جنكيز خان• امبراطور جميع الرجال• نيويورك : ١٩٣٠•

ـ بيتس دي لاكروكس ( فرانسيس ) تاريخ جنكيز خان العظيم • باريس : ١٧١٠ •

ـ شارا ـ دافان ( ايرينزن ) جنكيز خـان القائد العسكري وانجازاته • بلغراد : ١٩٢٩ •

ـ ايفانين ( ميخائيل ايفانفتش ) المذاهب العسكرية وفتوحات المغول والتتار وشعوب أواسط آسيةفي عصري جنكيز خان وتيمور• بطرسبرغ : ١٨٧٥م•

ـ فرناندسكي ( جورجي فلاديمفتش ) محتويات ياسا جنكيز خان العظيمة • بروكسل : ١٩٣٩ •

ـ فرناندسكي ( جورجي فلاديمفتش ) محتويات ياسا جنكيز خان • في دورية دراسات جامعة هارفرد الآسيوية • المجلد الثالث • كانون أول : ١٩٣٨ • ص : ٣٣٧ ـ ٣٦٠ •

## الايلكخانيـون : ( السياسة )

ـ شبولر ( برتولد ) السياسة المغولية في إيران • ليبزغ : ١٩٣٩ • ط • ثانية برلين : ١٩٥٥ •

JAHN, KARL, *Das iranische Papiergeld*, in *Archiv Orientální*, X (1935), pp. 308-40.

ـ عباس العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين • بغداد : ١٣٥٣/١٩٣٤ •••

PELLIOT, PAUL, *Les Mongols et la papauté*, in *Revue de l'Orient Chrétien*, Series 3, Vol. XXIII (1922-23), pp. 1-30, and vol. XXVIII (1931-32), pp. 3-84.
SORANZO, GIOVANNI, *Il papato, L'Europa cristiana e i Tartari*, Milan 1930. *(Pubblicazioni dell'università cattolica del Sacro Cuore*, Series 5, Vol. XII).

OPPERT, GUSTAV SALOMON, *Der Priester Johannes in Sage und Geschichte*, 2nd ed., Berlin 1870.
ZARNCKE, FRIEDRICH, *Der Priester Johannes*, in *Abhandlungen der kgl. sächsischen Gesellschaft der Wissenschaften*, Vol. VII (Leipzig 1879), pp. 827-1039; Vol. VIII (1883), pp. 1-186.
RICHARD, JEAN, *L'extrême Orient...:... Prêtre Jean*, in "*Annales d'Éthiopie*" II (Paris 1957), p. 225-42.

## الاقتصـــاد

ـ هايد ( فلهلم ) تاريخ الاقتصاد في شرقي البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ٠ ليبزغ : ١٩٢٣ ٠

ـ بيترشيفسك ( ب ـ ي ) الطبقات الثقافية في الدولة الالخانية : ١٩٤٨ ٠

ـ بيلينتسكي ( ا ـ م ـ ك ) حول قضايا العلاقات الاجتماعية في ايران في العصر الايلكخاني : ١٩٤٨ ٠

## ايران والعراق في القرن الرابع عشر

ـ ديفريمري ( تشارلز ) روايات تاريخيـة حـول سقوط الأسرة المظفرية ٠ باريس : ١٨٥٤ ٠

ـ عباس العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين ٠ بغداد : ١٣٠٤/١٩٣٦م ٠

ـ فريزر ( تتلر ) أفغانستان ـ دراسة في التطورات الاجتماعية في أواسط آسية ٠ لندن : ١٩٥٣ ٠

ـ سايك ( سير برسي ) تاريخ أفغانستان ٠ لندن : ١٩٤٠ ٠

## تيمور والعصر التيموري


ـ بويفات ( لوسيان ) امبراطورية المغول ( المرحلة الثانية ) باريس : ١٩٢٧ .

ـ اقبال ( عباس ) تاريخ مفصل لايران منذ الفتح المغولي وحتى سقوط القاجار . طهران : ١٩٤١ .

ـ سكرين ( فرانسيس ) تاريخ قلب آسية : تاريخ روسيا وتركستان ووسط آسية من العصور القديمة . لندن : ١٨٩٩ .

ـ ساندرز ( ج . هـ ) تيمور الأمير العظيم ـ ترجمة من ابن عرب شاه . لندن : ١٩٣٦ .

ـ تايور ( فلكس ) تاريخ تيمورلنك لنجم الدين الشامي . براغ : ١٩٣٧ .

ـ الكسندر سكو ـ درسكا وماريا ماتليدا . حملة تيمورلنك في الأناضول سنة ١٤٠٢ . بخارست : ١٩٤٢ .

ـ كلافيجو روي جونز لازدي . رواية السفارة إلى بلاط تيمورلنك في سمرقند سنة ١٤٠٣ ـ ١٤٠٦ ـ مترجمة من الاسبانية بواسطة جي لاسترانج . لندن : ١٩٢٨ .

ـ شلتبرجر ( جوهانس ) رحلة جوهان شلتبرجر ... ١٣٩٦ ـ ١٤٢٧ ترجمة انكليزية . لندن : ١٨٧٩ .

ـ هنز ( والثر )

HINZ, WALTHER, *Quellenstudien zur Geschichte der Timuriden*, in the *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, 90 (1936), pp. 357-398.

ـ بوفات ( لوسين ) مقال عن الحضارة التيمورية ـ في المجلة الآسيوية . ١٩٢٦ . ص ١٩٣ ـ ٢٩٩ .

ـ بارثولد ( ولهلم ) أولنج بك . ليبزغ : ١٩٣٥ .

ـ بارثولد ( ولهلم ) هراة تحت حكم حسين باي قرا . ليبزغ : ١٩٣٧ .

ـ بولديرف ( أ ٠ ن ) حول مجتمع هراة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر ٠ لينيغراد ٠ ١٩٤٧ ٠

ـ علي شهر نافوي ـ كتاب الذكرى الخامسة والعشرين لعلي شهر نوفا ٠ موسكو ولينيغراد : ١٩٤٨ ٠

ـ برثلس ( ايفانجيني ) نوفا ٠ موسكو ولينيغراد : ١٩٤٨ ٠

ـ تارلان ( أ ٠ ن ) علي شهر نيفائي ٠ استانبول : ١٩٤٢ ٠

ـ كواترمير ( مارك ) بحث عن حكم شاه رخ ٠ في المجلة الآسيوية الفرنسية : ١٨٣٦ ٠

ـ طوقان ( زكي وليدي ) شاه رخ الحاكم التركي العظيم ـ مجلة الأدبيات التركية ـ المجلد الثالث ١٩٤٩ ـ ص : ٥٢٠ ـ ٥٣٨ ٠

## القبائل الذهبية

### ( التاريخ العام )

ـ برتولد ( شبولر ) القبائل الذهبية ـ المغول في روسيا ١٢٢٣ ـ ١٥٠٢ ٠ ليبزغ : ١٩٤٣ ٠

ـ هامر ( بورجستول ) القبائل الذهبية والقبجاق ٠ بست : ١٨٤٠ ٠

ـ جركوف ( بورس ٠٠٠٠ ) القبائل الذهبية وسقوطها ٠ موسكو ولينيغراد : ١٩٥٠ ٠

ـ بليوت ( بول ) بحث تاريخي عن القبائل الذهبية ٠ باريس : ١٩٥٠ ٠

## العلاقات الخارجية

ـ زدان ( ميشال ) العلاقات التتارية ـ الليتوانية أيام فيتولد الأمير الليتواني الكبير : ١٩٣٠ ٠

– كوتشونسكي ( ستيفان مرجـا ) الادارة الشيرنيقوية تحـت الحـكم الليتواني – وارسو : ١٩٣٦ .

– ناسونوف ( أ . ن ) التتار وروسيا القديمة – تاريخ عن السياسة التتارية في روسيا . ولينينغراد : ١٩٤٠ .

## القضايـا الداخليـة

– برزين ( ايليا ) حول البنية الداخلية في أولوس – جوش – بطرسبوغ : ١٨٦٤ .

– سبلوكوف ( جوردي ) حـول الأحوال الداخلية في خانيـة القبجاق . قازان : ١٨٩٥ .

## النقـــود

– فراهن (شرستان)حول نقود القبائل الذهبية. بطرسبرغ – ليبزغ: ١٨٣٢ .

– سافلييف ( باول ) النقود المغولية المتداولة في دولـة القبائل الذهبية . بطرسبرغ : ١٨٥٧ – ١٨٥٨ .

## الآثـــار

– بالوديس (فرانز) مكتشفات ساراي عاصمة القبائل الذهبية. راجي:١٩٢٦.

– بالود ( فرانتز ) بومبي على الفولغا . موسكو وبتروغراد : ١٩٢٣ .

## التجـــارة

– براتيانو ( جورج ) التجارة في القرن الثالث عشر . باريس : ١٩٢٩ .

ــ كوترزيبا ( ستانسلو ) التجارة البولندية في العصور الوسطى • كراكوف : ١٩٠٣ •

## الحكم الروسي على الفولغا

ــ السجلات والوثائق التاريخية التترية • موسكو : ١٩٣٧ •

ــ مشكلة الزراعة وحركة الفلاحين في الخمسين والسبعين من القرن التاسع عشر • موسكو ولينغراد : ١٩٣٦ •

ــ كليموفتش ( ليوسيان ) الاسلام في روسيا القيصرية • موسكو : ١٩٣٦ •

ــ مواد حـول تاريخ جمهورية البشكير وثورات البشكير في القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر • موسكو ولينينغراد : ١٩٣٦ •

ــ توخفاتولين ( فاتح ) مواد حول تاريخ البشكير • أوفا : ١٩٢٨ •

ــ مجموعة القوانين الكاملة للامبراطورية الروسية • بطرسبرغ : ١٨٣٠ •••

## الرحـــــلات

ــ برونيوفوس ( مارتين ) وصف بلاد التتار • كولون : ١٥٩٥ •

PALLAS, PETER SIMON, *Reise durch verschiedene Provinzen des Russischen Reiches in den Jahren 1768 bis 1774*, 3 vols., St. Petersburg 1771-76.

GMELIN, SAMUEL GOTTLIEB, *Reise durch Russland*, Part 2, St. Petersburg 1774.

GEORGI, JOHANN GOTTLIEB, *Beobachtungen während einer Reise im Russischen Reiche*, St. Petersburg 1775.

HAXTHAUSEN-ABBENBURG, AUGUST, Freiherr VON, *Studien über die inneren Zustände, das Leben und insbesondere die ländliche Einrichtungen Russlands*, 2 vols., Hanover 1847.

## مصـــادر عامــة

SPULER, BERTOLD, *Idel-Ural: Völker und Staaten zwischen Volga und Ural*, Berlin 1942.

——, *Die Wolga-Tataren und Baschkiren unter russischer Herrschaft*, in *Islam XXIX* (1949), pp 142-216.

MENDE, GERHARD VON, *Der nationale Kampf der Russlandtürken. Ein Beitrag zur nationalen Frage in der Sovetunion*, Berlin 1936 (*Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen*, supp. to year XXXIX).

ـ جوبيدولين ( غازي ) من ماضي التتار • قازان ١٩٢٥ •

ـ فوربئيف ( نيقولاي ) المواد الثقافية عن تتار قازان • قازان : ١٩٣٠ •

ـ تبيف ( سمسون ) من تاريخ البشكير • أوفا : ١٩٣٠ •

ـ كوفتين ( بورس ) المواد الثقافية عن لمشير الروس • موسكو : ١٩٢٦ •

ـ بيرتياكوفتش ( جورجي ) منطقة الفولغا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ـ من تاريخ الحركة الاستيطانية في المنطقة : ١٨٧٧ •

ـ بيرتياكوفتش ( جورجي ) منطقة الفولغا في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر • أوديسا : ١٨٨٢ •

WASTL, JOSEPH, *Baschkiren. Ein Beitrag zur Klärung der Rassenprobleme Osteuropas*, Vienna 1938 (*Rudolf Pöchs Nachlass, Serie A. Physische Anthropologie*, vol. V).

TUPPA, KARL, *Mischeren und Tipteren. Beiträge zur Anthropologie der Türkvolker Russlands*, Vienna 1941.

## القـــرم

ـ سميرنوف ( واصلي ) خانية القرم تحت الرعاية العثمانية حتى بداية القرن الثامن عشر • بطرسبرغ : ١٨٨٧ •

ـ سميرنوف ( واصلي ) خانية القرم تحت الرعاية العثمانية في القرن الثامن عشر • أوديسا : ١٨٨٩ •

ـ سويسال ( عبد الله زهني ) من تاريخ القرم • وارسو ١٩٣٨ •

ـ هامر ـ بورجستال ( جوزف ) خانية القرم تحت الحكم العثماني • فينا : ١٨٥٦ •

ـ بارزويتش ( جولجان ) تقويم لعلاقات بولندا مع الترك والتتار • وارسو : ١٨٦٠ •

ـ زافادوفسكي ( أ ) مائة سنة من حياة ترودِيا • سمفروبول : ١٨٨٥ •

SPULER, BERTOLD, *Die Krim unter russischer Herrschaft*, in "*Blick in die Wissenschaft*" (Berlin), August 1948, pp. 356-363.
KIRIMAL, EDIGE, *Der nationale Kampf der Krimtürken*, Emsdetten (Westphalia) 1952. (Covers period 1917-1945) — (Highly informative work).

ـ كيريمال ( ايدجي )

## الأراتقـــــة

ـ فردي ( كاتب ) تاريخ الأراتقة في ماردين • استانبول : ١٩٣٩ •

ـ أرتق ( ابراهيم ) تاريخ أراتقة ماردين • استانبول : ١٩٤١ •

## الشاة السوداء والشاة البيضاء

ـ هنز ( والزر ) الحركة الوطنية الايرانية في القرن الخامس عشر • برلين وليبزغ : ١٩٣٦ •

ـ عباس العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين • بغداد ١٣٥٧ / ١٩٣٩ •

ـ أوزون قرصللي ( اسماعيل حقي ) امارات الأناضول ودولتي الشاة السوداء والشاة البيضاء • استانبول : ١٩٣٧ •

ـ برشيت ( جوجليلمو ) جمهورية البندقية وايران • تورين : ١٨٥٩ •

ـ ساسون ( دافيد سلمون ) تاريخ اليهود في بغداد • لتشورث : ١٩٤٩ •

## الهنـــــد

ـ البيروني ( أبو الريحان ) تحقيق ما للهند من مقولة • لندن : ١٨٨٨ •

ـ بليوت (سير هنري ••••) تاريخ الهند كما روته مصادرها (٨ ـ مجلدات) لندن : ١٨٦٧ ـ ١٨٧٧ •

ـ فيريشتاه ( محمد قاسم ) تاريخ هندستان ـ لندن : ١٧٧٠ ـ ١٧٧٢ •

ـ سمث ( فايسنت آرثر ) تاريخ أكسفورد للهند • أكسفورد : ١٩٢٣ •

ـ باول ( برايس •••• ) تاريخ الهند • لندن : ١٩٥٥ •

ـ دونبار ( سير جورج ) تاريخ الهند منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر• لندن : ١٩٣٣ •

ـ نورلأند ( وليام هاريسون ) مختصر تاريخ الهند • لندن : ١٩٣٥ •

ـ لين بول ( ستانلي ) الهند في العصور الوسطى تحت الحكم الاسلامي • لندن : ١٩٠٦ •

ـ براساد ( اشواري ) مختصر تاريخ الحكم الاسلامي في الهند منذ الفتح الاسلامي وحتى وفاة أورانجزيب الله أباد : ١٩٣٩ •

ـ شرما ( سيربرام ) الاسلام في الهند • برلين : ١٩٤٢ •

ـ حسان ( عبيد ) الاسلام في الهند • برلين : ١٩٤٢ •

ـ جعفر ( س•م ) الهند في العصور الوسطى تحت الحكم الاسلامي ( قيام وسقوط الغزنويين ) بيشارو : ١٩٤٠ •

ـ جعفر ( س•م ) حول الحكم الاسلامي في الهند • بيشارو : ١٩٥٦ •

ـ هاشمي ( يوسف عباس ) الغزنويون المتأخرون ـ ١٠٣٠ ـ ١١٨٧ ـ هامبرغ ١٩٥٧ •

ـ مونال حق ( سيد ) مختصر تاريخ سلطنة دلهي : عليكره : ١٩٤٥ •

ـ أحمد محمد ( عزيز ) التاريخ السياسي للمؤسسات الحاكمة في الفترة المبكرة للامبراطورية التركية في دلهي • لاهور : ١٩٤٩ •

ـ قرشي ( اشتياق حسين ) الادارة في سلطنة دلهي • لاهور : ١٩٤٤ •

ـ لال كيشوري ( ساران ) تاريخ الخلج (١٢٩٠ ـ ١٣٢٠) الله أباد : ١٩٥٠ •

ـ حسين ( آغا مهدي ) قيام وسقوط محمد بن تغلق • لندن : ١٩٣٨ •

ـ بيكتاف ( هالس ) الامبراطورية التركية في الهند أيام التيموريين ••••

ـ شرواني ( هرون خان ) البهمانيين أصحاب دكا • لندن : ١٩٥٣ •
ـ صوفي ( غلام محي الدين ) تاريخ كشمير منذ أقدم العصور حتى أيامنا • لاهور : ١٩٤٨ •

ـ تيتوس ( ميوري ) اسلام الهند • لندن : ١٩٣٠ •
ـ هولستر ( جون نورمان ) الشيعة في الهند • لندن : ١٩٥٣ •

ـ مورلاند ( وليم هارسون ) النظام الزراعي في الهند المسلمة • كمبرج : ١٩٢٩ •
ـ يوسف علي • الهند الوسيطة • الأحوال الاجتماعية والاقتصادية • لندن : ١٩٣٢ •
ـ أشرف ( كونوار محمد ) أحوال حياة الشعب في هندستان ( ١٢٠٠ ـ ١٥٥٠ م ) كلكتا : ١٩٣٥ •

ـ راولسون ( هيوغ جورج ) الهند • مختصر تاريخ ثقافي • لندن : ١٩٥٢ •
ـ سركار ( سير جادوناث ) الهند عبر العصور • كلكتا : ١٩٢٨ •
ـ جاريت ( جيوفري ثيودور ) تراث الهند • اكسفورد : ١٩٣٧ •

## مصر

ـ موير ( سير وليام ) المماليك ( أو أسر العبيد ) في مصر • لندن : ١٨٩٦ • ترجمة عربية القاهرة : ١٩٢٤ •

ـ كواترمير ( مارك ) تاريخ سلاطين المماليك • ( مجلدان ) باريس : ١٨٣٧ ـ ١٨٤٥ •

ـ لين ( أدوارد وليام ) المجتمع العربي في العصور الوسطى•لندن : ١٨٨٣ •

ـ نيميير ( ولف جانج ) العصر المملوكي المتأخر • برلين : ١٩٣٦ •

ـ بولياك ( أبرهام ) الاقطاع في مصر وسورية وفلسطين ولبنان ـ ١٢٠٠ ـ ١٩٠٠ • لندن : ١٩٣٩ •

ـ غروسيه (رينه) امبراطورية شرقي البحر الأبيض المتوسط• باريس : ١٩٤ •

ـ عطية ( عزيز سوريال ) مصر وأراغون •••• ليبزغ • ١٩٣٨ •

ـ عطية ( عزيز سوريال ) الصليبيون في أواخر العصور الوسطى • لندن : ١٩٣٨ •

ـ ستريلنج ( جورج ) العثمانيون الترك والعرب ـ ١٥١١ ـ ١٥٧٤ : أوريانا : ١٩٤٢ •

ـ أيلون ( ديفد ) البارود والأسلحة النارية لدى المماليك • لندن : ١٩٥٦ •


## سورية وفلسطين


ـ جودفري ( موريس ) سورية المملوكية • باريس : ١٩٢٣ •

ـ زيادة ( نقولا ) الحياة الريفية في سورية تحت ظل أوائل المماليك ـ بيروت : ١٩٥٣ •

# فهرس الأعلام

# ( حرف الباء )



# ( حرف التاء )

( حرف الجيم )



( حرف الحاء )



( حرف الخاء )



( حرف الدال )



( حرف الذال )



( حرف الراء )



( حرف الزاي )



( حرف السين )

## ( حرف الشين )



## ( حرف الصاد )



## ( حرف الطاء )



## ( حرف العين )



## ( حرف الغين )

## ( حرف الفاء )



## ( حرف القاف )



## ( حرف الكاف )



## ( حرف اللام )



## ( حرف الميم )

## ( حرف النون )



## ( حرف الهاء )



## ( حرف الواو )



## ( حرف الياء )

# المحتوى

## « مـن منشوراتنـا »

١ ـ مائة أوائل من تراثنا — تأليف : د. سهيل زكار

٢ ـ الكسب للامام محمد بن الحسن الشيباني — تحقيق : د. سهيل زكار

٣ ـ أخبـار القرامطـة — جمع وتحقيق : د. سهيل زكار

٤ ـ الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين
تصنيف أحمد بن علي الحريري ، تحقيق : د. سهيل زكار

٥ ـ بلاد الشام في القرن التاسع عشر ( روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام ١٨٦٠ ومقدماتها في سورية ولبنان ) — دراسة وتحقيق : د. سهيل زكار

٦ ـ مائة أوائل من تراثنا ( طبعة ثانية ) — تأليف : د. سهيل زكار

٧ ـ العالم الاسلامي في العصر المغولي — تأليف : برتولد شبولر
نقله إلى العربية : الاستاذ خالد العيسى
راجعه وقدم له : د. سهيل زكار

٨ ـ قاهر العالم ( جنكيز خان ) — تأليف : رينه غروسيه
نقله إلى العربية : الاستاذ خالد أسعد عيسى
راجعه وقدم له : د. سهيل زكار

## ( قيـد الطباعة والنشر )

**١ ـ تاريخ العرب والاسلام منـذ ما قبـل المبعث وحتى نهايـة العصر العثماني في ـ ٧ ـ مجلدات كبار .**

**٢ ـ تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار .**

ألفه باللاتينية وليم رئيس أساقفة صور ومؤرخ بلاط مملكة القدس الصليبيـة .

ـ هو أهم مصدر كتبـه الصليبيون عن تاريخهم في الشرق منذ البداية وحتى ما قبل معركة حطين .

ـ يحوي من المعلومات مالا يوجد في أي مصدر آخر بأية لغة كانت .

ـ تاريخ موسع وقد جاء بالعربية في أربع مجلدات رفيعة الضبط فيها جميع الإحالات والمقارنات مع روايات المصادر العربية وغيرها .

**٣ ـ التاريخ السري للمغول ووثائق العلاقات المغولية الكاثوليكية .**

يتحدث عن حياة جنكيز خان كما روتها الكتابات الصينية المعاصرة له ويقدم سجلات رحلات السفراء الذين جاؤوا من الفاتيكان وانكلترا وأوربة إلى البلاط المغولي وسفارات هذا البلاط إلى أوربة ، مترجمة عن الصينية واللاتينية والفرنسية القديمة .

**٤ ـ الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية كما روتها المصادر السريانية اللاتينية .**
انها روايات وثائقية لشهود عيان شاركوا في الأحداث بشكل مباشر .

**٥ ـ بابوات يهود ( من الغيتو اليهودي لروما )** بحث تاريخي موثق كتبه بالانكليزية حاخام نيويورك الاسبق فتحدث فيه عن أسرة يهودية قدمت عدداً من مشاهير البابوات حتى قيام الدعوة للحروب الصليبية .

**٦ ـ تاريخ امبراطورية الخزر اليهودية : تأليف م ـ دنلوب ـ هو أفضل بحث** اكاديمي موثق كتب عن تاريخ هذه الدولة التي شغلت دوراً هاماً في تاريخ المسلمين والامبراطورية البيزنطية .

**ان دار حسان للطباعة والنشر** تهتم بجمع الدراسات عن تاريخ العرب والاسلام وتسعى لإحياء النصوص التراثية ونشرها محققة بشكل علمي واخراج لائق .

---

يمكن الحصول على مطبوعاتنا عن طريق مراسلتنا إلى العنوان التالي :
دمشق ـ ص . ب ٣٢١٨
هاتف ١١٩٣١٣

## هـذا الكتاب

يعد موضوع تاسيس الامبراطورية المغولية المترامية الأطراف من أخطر موضوعات التاريخ الانساني ، وأشدها مساساً بتاريخ العرب والاسلام ، فالمغول اجتاحوا ديار المسلمين في الشرق اجتياحاً كاملاً ومدمراً ، وسعوا متحالفين مع الصليبية والبوذية إلى إطفاء مشاعل جميع منائر الفكر العربي ، وطمس معالم الحضارة الإسلامية طمساً كاملاً .

فهم الذين دمروا بلاد ما وراء النهر وخراسان ، وهم الذين آزالوا الخلافة العباسية من الوجود بعد دخولهم الموجع المفجع الى بغداد .

لقد أولى هذا الكتاب هذا الموضوع الخطير كل عناية وعرض تاريخ المغول والعالم الإسلامي في آسية وأوروبة منذ قيام جنكيز خان وحتى ما بعد تيمورلنك بشكل علمي موثق وأخاذ قل أن نشهده في كتاب مماثل .

إنه جدير بالاقتناء والمطالعة .

5.000